فوضى الأفكار

فوضى الأفكار

محمد خليفة

القياس: 14 × 20 عدد الصفحات: 256

ISBN: 978 - 625 - 99052 - 1 - 1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الطبعة الأولى

1444 هـ - 2023 م

لا يسمح بإعادة نسخ أو طبع أو تصوير هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي واسطة كانت
إلكترونية أو مرئية أو مسموعة دون إذن خطي مسبق من المؤلفة
تحت طائلة المسؤولية والمحاسبة القانونية

دار منابع النور

DÂR MENABİU'N NÛR

+90 546 590 74 07 +90 552 213 61 35

FEVZİPAŞA Cad. Fatih PTT Merkezi
No:11 Kat:3/9 - 34080
FATİH/ İSTANBUL
إسطنبول - الفاتح - شارع فوزي باشا

التصميم والإخراج الداخلي
لمسات للتنفيذ والإخراج الطباعي
lamasattdp@gmail.com
لمسات

فوضى الأفكار

محمد خليفة

دار منابع الثور

إلى

عـبـد الـحـفـيـظ الـزيـانـي

صـديـق الكلمة والـفـكـرة

مقدمة

امتلاء فراغنا الفكري بمصطلحات ومفاهيم غربية جعلنا لا ندرك تعقيدات الانحطاط الذي نحن فيه، والضحالة الفكرية التي نعيشها[1]. هذا الواقع غير المُدرَك يجعل نقاشنا للمشاكل المزمنة جنوب المتوسط مجرد جدل ضحل، تستخدم فيه آخر مصطلحات الحضارة (الغربية) وصولًا إلى عالمنا الفقير[2].

إذا انتقلنا من الإجمال إلى التفصيل فسنكتشف الضحالة متمثلة عندنا في عدم معرفة البناء على التفرقة بين «الدين» و«الدنيا» (في الشريعة) بشكل يغني المسلمين عن فكرة «العلمانية»، وعدم إدراكنا أن «الشورى» مبدأ يمكن تطويره ليغنينا عن استيراد فكرة من نوع الديمقراطية، وأن «البيعة» عقد تتأسس عليه العلاقة بين الحاكم الذي يؤدي ما عليه بالمعروف والمحكوم الذي يطيع الحاكم في حدود طاعة الحاكم لله. كل هذه القيم الإسلامية النبيلة مهملة لأن مكانها امتلأ بمصطلحات غربية (الديمقراطية، حقوق الإنسان، سيادة الشعب، هيبة الدولة، أمن الثورة... إلخ).

(1) معالجة المشاكل في عالم الأشياء أو عالم الأشخاص، مع اهمال شبه مطلق لضرورة معالجتها في عالم الأفكار من معالم الضحالة.

(2) «الجندرة» و«النسوية»، وهما من نفايات الحضارة الغربية، تتمركزان اليوم في فراغنا الفكري، مثلما تمركزت فيه قبل قرن من الزمان «القومية» و«الاشتراكية».

إهمالنا للرصيد الإسلامي، الذي لا يمكن الاستفادة منه قبل تحول الإسلام إلى منهج تفكير من جديد[1]، أكبر معالم الانحطاط والضحالة اللذين نعيشهما، فحسرة مسلم اليوم أغلبها على رصيدنا المادي (مالي وغير مالي)، أما رصيدنا القيمي-الإسلامي فهو مهمل، لأننا جزء من عالم تهيمن عليه المادة في عالم الأشياء والمذهب المادي في عالم الأفكار!

الأخذ بالجملة والرفض بالجملة مظهر آخر من مظاهر الضحالة عندنا. وفي هذا يتساوى الذي يرفض الحضارة الغربية جملة، والذي يدعو إلى أخذ كل ما جاءت به دون فرز، ومهما كانت العواقب. الذي يرفض الحضارة الغربية يرفضها واقعًا ماديًا ظالمًا، ومذاهبَ فكرية فاسدة تنتهي إلى الفصل بين السياسة ومكارم الأخلاق. والذي يدعو إلى أخذ كل ما جاء عن الحضارة الغربية، دون فرز، يعبر عن فكر صبياني لمجتمع يحلم بامتلاك كل دكان الألعاب.

من جانب آخر؛ كثيرًا ما تظهر الضحالة عندنا في عدم القدرة على قراءة الفروق الدقيقة في المواقف الفكرية. ومن ذلك شعور إدوارد سعيد بالإحراج والحيرة أمام موقف بعض الذين رأوا فيه مدافعًا عن الإسلام[2] بينما لم يتجاوز قصده، وقدرته، نقد وسائل إعلام ومؤسسات تعليم الحضارة التي ينتمي إليها.[3]

(1) الإسلام الآن منهج تقليد أكثر منه منهج تفكير وتجديد.

(2) E. Said, Orientalism, London, Penguin Books, afterward to the 1995 printing, p. 329

(3) «Orientalism has in fact been read and written about in the Arab world as a systematic defense of Islam and the Arabs, even though I say explicitly that I have no interest in, much less capacity for, showing what the true Orient or Islam really are». (Ibid p. 331)

المسلمون الذين رأوا في سعيد مدافعًا عن الإسلام لم يستوقفهم أن سعيد غير مسلم، وأن موقفه الفكري سيكون في غاية التناقض، وغياب المنطق، إن هو دافع عن عقيدة لا يؤمن بها! والذين رأوا في سعيد مدافعًا عن الإسلام ارتكبوا، في الوقع، خطأً إجرائيًا فادحًا عندما أهملوا أن الإسلام يقسم عالم الأشخاص إلى مسلمين وغير مسلمين. وترتب على هذا الإخفاق الإجرائي تصور إمكانية أن يدافع غير المسلم عن الإسلام. سعيد من أصول مسيحية، وما قام به لا يتجاوز النقد لموقف حضارته الغربية التي تقول إنها يهودية-مسيحية. وفي هذا السياق لم يتوقف أحد عند العلاقة بين مسيحية إدوارد سعيد ومحاولته تسويق أخلاق العبيد للفلسطينيين.

أخلاق العبيد هي الأخلاق التي ورثها المسيحيون عن اليهود، وكانت محل نظر أول مفكري ما بعد الحداثة، فريدريش نيتشه. تعاليم المسيحية تقول: لا تنهض لمقاومة الشر.. ومن صفعك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر[1].. وأحبوا عدوكم[2].. إلخ! هذه هي القيم التي اعتنقها اليهود في الأسر والشتات، عندما كانوا مخيرين بينها وبين الفناء، فاختاروها للبقاء. هذا النوع من الأخلاق يسميه نيتشه «أخلاق العبيد» و«التظاهر بالانحطاط» من أجل البقاء، أما القرآن فيسميه «الذلة والمسكنة».

أخلاق العبيد التي اكتسبها اليهود في الأسر والشتات بشرَ بها بولس في أوربا فصبغتها بصبغة يهودية بعد أن محت هويتها الإغريقية-الرومانية. وفي هذا السياق يعتقد نيتشه أن اليهودية هزمت الحضارة الإغريقية-الرومانية في عقر دارها (روما)[3]! وبذا أمسى الأوربي يهوديًا وهو يعتقد أنه مسيحي.

(1) أنجيل لوقا 29:6

(2) انجيل متى 43:5

(3) فريدريش نيتشه، نقيض المسيح، ترجمة على مصباح، الطبعة الأولى 2011، منشورات دار الجمل،

وفي وصف هذا النوع من الغفلة يقول نيتشه: «ذاك الذي ظل لألفي سنة يسمي نفسه مسيحيًا هو مجرد سوء فهم سيكولوجي للذات»[1]. فالمسيحي قد «يشعر بنفسه معاديًا لليهودية دون أن يكون قادرًا على أن يفهم أنه النتيجة النهائية لليهودية»[2].

أخلاق العبيد التي أدخلها بولس إلى أوربا تحرسها، وتعمل على نشرها، المنظمة العالمية للصد عن سبيل الله (الكنيسة). هذه المنظمة هي التي ثبتت أخلاق العبيد في نفسية عَلمين من أعلام المناضلين السود في القرن العشرين: الدكتور لوثر كنغ في أمريكا ونيلسون مانديلا في جنوب افريقيا. كنغ ومانديلا لم يحملا أخلاق العبيد لأنهما أسودين، بل لأنهما مسيحيين. المسيحي يحمل أخلاق العبيد في منطقة اللاشعور سواء كان أبيض مثل إدوارد سعيد، أو أسود مثل كنغ أو مانديلا.[3]

عندما يعترض سعيد على عسكرة الانتفاضة فإنه يعبر عن لاشعور سعيد اليهودي-المسيحي، لأن «المسيحي ليس شيئًا آخر سوى يهودي بعقيدة أكثر انفتاحًا»[4]. سعيد من أصول فلسطينية لكنه لن يقف إلى جانب الجهاد لأن الجهاد موقف من صميم الإسلام، وهو غير مسلم.[5] في هذا السياق فقط يمكن تفهم دعوة سعيد الفلسطينيين إلى تبني أخلاق العبيد في انتفاضتهم ضد الاحتلال.

(1) المرجع السابق الفقرة 39.

(2) المرجع السابق، الفقرة 24.

(3) الأسود الذي مثل اخلاق الاحرار وأشعل ثورة اسلامية لتحرير العبيد في أمريكا والعالم هو مالكوم اكس.

(4) نيتشه، نقيض المسيح، مرجع سابق، فقرة 44.

(5) الحاسم في الموقف الأخلاقي للمواطن الأمريكي ادوارد سعيد هنا هو لاشعوره المسيحي-اليهودي، وليس شعوره العربي-الفلسطيني.

وفقًا لمنطق العبيد، كان على الشيخ أحمد ياسين (والشعب الفلسطيني) الاكتفاء بتلقي الصفعات حتى يرق لهم ضمير الإنسانية، مثلما رق لمنديلا والسود من قبل، غير أن الشيخ ولد مسلمًا ومات مجاهدًا، تاركًا أخلاق العبيد لمنظمة التحرير التي لم تحرر شيئًا. بالنسبة للشيخ أحمد ياسين وتلاميذه كان الإسلام موقف براءة من أخلاق العبيد أولاً، ثم منهج تفكير وتحرير بعد ذلك.

الإسلام منهج تفكير معناها أن الإسلام منهج فرز للأفكار؛ منهج لا يقبل أي فكرة ولا يرفض أي فكرة إلا بعد إخضاعها للمعايير الإسلامية وتقييمها وفق المنهج الإسلامي. في هذا السياق لم يلجأ الشيخ أحمد ياسين إلى فكرة غثة من نوع «الحق في تقرير المصير» أو «حقوق الإنسان» أو «حل الدولتين»، بل لجأ إلى ما يتجاوز كل هذه المُسكنات والمُثبطات. لقد توفرت إرادة القوة عند الرجل المُقعد فلجأ إلى السلاح لتحرير ما يمكن تحريره ببذل المهج في ميدان الجهاد. الذلة والمسكنة لم تكن من سياسة الشيخ أحمد ياسين، ولذا عاش حرًا ومات شهيدًا.

الشيخ أحمد ياسين وأبناء حركة حماس يمثلون الأقلية الحرة، لأن أخلاق العبيد أصبحت أخلاق كثير من المحسوبين على الإسلام الذين يلومون حماس على حمل السلاح. العبيد يغنون ويرقصون، يتظلمون ويتوسلون، ولكن لا يحملون السلاح، فليس من شيم العبيد حمل السلاح.

بعد ألفي سنة من ميلاد المسيح اكتسب اليهودي أخلاق الأحرار، ومن بينها عدم التردد في الهجوم كلما أقتضى الأمر، ولذا ترى طائراته تقصف بغداد، وتقصف حمام الشط، وتقصف في السودان، وتقصف في سوريا ولبنان، باسم الدفاع عن النفس تدليسًا، ولا يقصفه أحد دفاعًا عن نفسه إلا وُصم بالإرهاب ظلمًا!

خشية أبناء المسلمين من أن يوصموا بالإرهاب ناتج عن اكتساب بعضهم، إن لم يكن غالبيتهم، أخلاق العبيد. هؤلاء يديرون الخد الأيسر تلقائيًا كلما صفعوا على الخد الأيمن، ويحبون عدوهم كما يأمر الإنجيل، ويعتقدون أن الحل يأتي من اليهود كما يقول الإنجيل[1]! لقد أصبح الكثير منا مجرد أهل كتاب، مجرد يهود في السبي أو الشتات، أو مجرد عبيد لا ينهضون لمقاومة الشر. كل هذا التحمل للصفعات المتتالية، وكل هذا الانسحاب أمام الشر، هو في الواقع امتثالٌ لا شعوري لما تدعو إليه الكنيسة! فأي قيمة بعد ذلك لقول إننا مسلمون؟!

ولا يقف السوء والتردي عند هذا الحد، لأن تجرع الغصص يولد الضغينة. ومن ذا الذي يتجرع الغصص أكثر من العبيد؟! ولذا تخفي الأخلاق اليهودية-المسيحية ضغائن هائلة تفجر بعضها، وحقدًا دفينًا ظهر جزء منه بمناسبة غزو العراق، وفي سجن من سجونه اسمه «أبو غريب».[2] ما جرى في ذاك السجن سرًا هو ما كان يجري جهرًا قبل خمسة قرون في إسبانيا. في حينها كان الجهاز الذي تحركه أخلاق الضغينة يسمى «محاكم التفتيش»!

نتائج التنقيب على الأصول التاريخية لأخلاق الضغينة أودعها نيتشه كتابه «جنيالوجيا الأخلاق». وملخص تلك النتائج جاء في قوله: «قدمت في جنيالوجيا الأخلاق لأول مرة طرحًا سيكولوجيًا للتناقض بين أخلاق نبيلة وأخلاق الضغينة، تكون الأخيرة فيه ناشئة عن نفي للأولى: لكن هذه هي الأخلاق المسيحية-اليهودية في كلها وتمامها»[3]. أخلاق الضغينة ناشئة عن

(1) انجيل يوحنا، الاصحاح الرابع: 22.

(2) قتل الصليبيون الجدد نصف مليون طفل بالحصار قبل الغزو، وفي سجن ابي غريب انكشفت اخلاق الضغينة عن غير قصد.

(3) نيتشه، نقيض المسيح، مرجع سابق، فقرة 24.

بغض الإسلام ولا تتحقق لها السيادة إلا في غيابه، ولذا لا تتوقف الحرب على الإسلام على مدار الساعة وفي كافة الحقول، معرفية وغير معرفية.[1]

بعض أبناء المسلمين المشاركين الآن في الحملة على الإسلام والحضارة الإسلامية تحركهم تلك الضغينة التي اكتسبوها من خلال التعليم الفرنسي (والغربي عمومًا).[2] ولم يتوقف البوار عند استيراد الضغينة من فرنسا، وإنما تجاوزها إلى استيراد أجهزة فرنسية وقودها الحقد وغايتها الانتقام والتشفي، وأشهرها نيابات ومحاكم «أمن الدولة» و«أمن الثورة»!

لا فرق بين «محاكم التفتيش» الإسبانية قبل خمسة قرون ومحاكم «أمن الدولة» و«أمن الثورة» الآن، فالمحاكم الثلاثة تجعل إبادة الخصوم السياسيين من وظائف القضاء، لكن ولطول العهد لا أحد يهتم لتحول الضغينة المسيحية إلى ضغينة علمانية (ماركسية أو ليبرالية) أو تحول محاكم التفتيش التي تديرها الكنيسة إلى محاكم انتقام وتشفي تديرها «الفئة الباغية» باسم «الدولة» أو باسم «الثورة».

الحقائق السالف بيانها لا يصل إليها إلا من حمل روحًا نقديًا عميقًا وفكرًا موسوعيًا من النوع الذي ظهر عند نيتشه لحظة انتقال أوربا من «الحداثة» إلى «ما بعد الحداثة». لقد تقرر لدى نيتشه أن «المسيحية والقيم المسيحية هي التي تحول كل ثورة إلى أنهار من الدماء والجرائم»![3] والماركسية في هذا

(1) ومن ذلك حذف هنري ألبير الفقرتين 59 و60 من ترجمته كتاب «نقيض المسيح» إلى اللغة الفرنسية، لأن في الفقرتين ذكر للحضارة الإسلامية بخير وإكبار للمنجز الموريسكي في الاندلس. راجع بالخصوص مقدمة ترجمة على مصباح للمرجع المذكور، ص 8.

(2) لن اتوقف عند المشتغلين بالهجوم على الإسلام في وسائل الإعلام بمعاشات شهرية، فهؤلاء مجرد مرتزقة.

(3) نقيض المسيح، مرجع سابق، فقرة 43.

السياق هي الأخت الرضيعة للمسيحية فهما من مدرسة واحدة: مدرسة الضغينة التي يديرها أشد الناس عداوة للذين آمنوا! وفي هذه المدرسة ينتظم اليوم الكثير من أبناء المسلمين الذين أصبحوا من أهل الكتاب.

وما تقدم مجرد قطرة من تعقيدات عالم الأفكار التي أود الكشف عنها في هذا الكتاب تفصيلًا لما يشكل فهمه، أو يخفى كنهه، من مصطلحات ومفاهيم تملأ فراغنا الفكري، وتسبب فوضى لا حدود لها على مستويي النظر والتخطيط، وتورثنا سمومًا نفسية ومآسي اجتماعية لا حصر لها. ويعلم الله أني ما كتبت كل ما كتبت إلا لوجهه تعالى، ونصيحةً للمسلمين، وكل ما أرجوه في المقابل هو ألا يكون القارئ ممن لا يحبون الناصحين.

الفناء في مدرسة المركزية الغربية

الفناء في مدرسة المركزية الغربية نوع جديد من فناء يتجدد عبر العصور، وهو متفرع عن فكرة وحدة الوجود التي من أعلامها في الحضارة الإسلامية البائدة البسطامي والحلاج وابن عربي! فني البسطامي في الله حتى لم يعد يشعر أن بينه وبين الله فاصل فقال: «سبحاني ما أعظم شأني»! واتحد الحلاج مع الله حتى قال: «ليس في الجبة إلا الله». ولم يكن ابن عربي قادرًا على رؤية شيء غير الله فقال: «سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها»!

سأترك كل هؤلاء القدماء حيث هم بين دفات الكتب، وأهتم بالمعاصرين من أبناء المسلمين الذين فنوا في الحضارة الغربية التي أصبحت مدرسة مركزية، تتذبذب بين وحدة الوجود وتعدد الآلهة. ومن شدة فناء بعض أبناء المسلمين في مدرسة المركزية هذه أصبحوا يسالمون سلمها ويحاربون حربها. ومن أشهر الذين حققوا درجة الفناء في الحضارة الغربية المعاصرة سيد القمني، الذي بات مقتنعًا أن «الأزهر منظمة إرهابية»! هذا الإنسان تجاوز درجة التماهي في الحضارة الغربية وحقق درجة الفناء فيها، ليصبح من جنودها المحاربين للإسلام والمسلمين!

ولما كان الأمر مرتبطًا بفكرة وحدة الوجود جوهريًا، فسأبدأ بموجز عن الفكرة، ثم أنتقل إلى درجة التماهي وهي الدرجة التي تسبق، وتمهد، للفناء في

الحضارة الغربية، ثم أنتقل بعد ذلك إلى الدرجة التي حققها سيد القمني، مبينًا كيف حققها، عبر التتلمذ في مدرسة المركزية الغربية.

أولاً. جوهر فكرة وحدة الوجود. مختصر فكرة وحدة الوجود هو إن كل موجود هو الله، أو كل شيء في الوجود هو الله! ولما كانت مدرسة المركزية الغربية موجودة، ولو على سبيل الفرضية، فهذا الوجود يؤهلها لأن تكون الإله الذي يقرر مصير العالم، ويحدد القيم الحاكمة فيه: الخير والشر، والحق والباطل!

والحضارة الغربية لا تدعي الألوهية وإنما تدعو كل إنسان للفناء فيها دون إعلان، لأنها حضارة سرية (أو حضارة أسرار)، ولذا لا تطلب من الناس نفي بقية الحضارات والأديان صراحة، وإنما تغريهم بتركها لأنها ميتة، كما تغريهم بقبول رؤاها لأن نجاحها المادي دليل على الصدق المطلق لتلك الرؤى وصلاحيتها لتحقيق السعادة في كل زمان ومكان.

الحضارة الغربية هي الإله الذي يكشف عن نفسه من خلال إنجازاته المادية، ويجذب الأفراد للتماهي فيه وتبني رؤاه كما يجذب المغنطيس الحديد. ومن المسلمين من لم يتماه في الحضارة الغربية كمدرسة مركزية فقط، بل فني فيها كغاية (قيم وأفكار) يقاتل ويموت من أجلها. وهذا يستدعي التفرقة بين التماهي والفناء في الحضارة الغربية.

ثانيًا. التماهي في الحضارة الغربية. من يقبل رؤى الحضارة الغربية ـ وإن انتقدها من داخلها ـ يصبح متماهيًا فيها، بمعنى أنه يرى ما تراه الحضارة الغربية خيرًا هو الخير، وما تراه شرًا هو الشر، وما تراه الحضارة الغربية حقًا هو الحق وما تراه باطلاً هو الباطل.

عندما يعيش مجتمعنا في أزمة ممتدة فإن المفكر المتماهي في الحضارة الغربية يرى أن الماركسية هي الحل، أو الليبرالية هي الحل، أو العلمانية هي الحل، ولكن لا يرى أن الإسلام هو الحل، لأن الحضارة الغربية ترى أن الإسلام هو المشكلة، ومن تماهى فيها لا يرى غير رؤيتها. وكثير من الذين رأوا الماركسية هي الحل تحولوا إلى الليبرالية هي الحل، وليس إلى الإسلام هو الحل، التزامًا منهم بحدود المدرسة المركزية التي تخرجوا فيها.

وهؤلاء مسلمون ويعلنون أنهم كذلك، غير أنهم يعتقدون انسجاما مع مدرسة المركزية الغربية أن الدين (وهو الإسلام فيما يخصنا) ينفع للعبادات دون المعاملات (والسياسة من المعاملات)، أو هو حضارة ميتة مثل الحضارة الفرعونية والآشورية والبابلية، ولا يمكن إحياؤه! ما يمكن إحياؤه فقط هو ديمقراطية أثينا، وأمجاد الرومان!

عند بعض التابعين اليوم؛ العلمانية هي الحل، وإن لم تكن المشكلة التي تعالجها فكرة العلمانية موجودة عندنا. المشكلة التي تحلها «العلمانية» هي مشكلة تعدد الآلهة، وهي في الفرضية ـ وليس في التطبيق ـ غير موجودة عندنا. وحيث لم يبلغ إدراك التابعين من العمق ما يجعلهم يفهمون المسألة على هذا النحو، يكتفي المساكين بالمناداة بأن العلمانية هي الحل، وإن لم توجد عندنا المشكلة التي تحلها العلمانية. وبذا تكون المناداة بالعلمانية مجرد تماه غير واع في الحضارة الغربية، ومن لوازم الانسجام الفكري معها لا أكثر.

وعلى الجانب العملي يلوم التابعون المقاومة الإسلامية كلما قصفت غزة، انسجامًا مع موقف الحضارة الغربية القائل: «من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها». وبذا يكون دفاع الفلسطينيين عن أنفسهم إثمًا وعدوانًا في سلم القيم الغربية، ويكون تخريب غزة على رؤوس ساكنيها مجرد دفاع عن النفس.

العدوان إذن ليس وجود الصهاينة في فلسطين، بل وجود الفلسطينيين في بلادهم!

لوم الفلسطينيين والمقاومة الفلسطينية شيء متوقع من حضارة الباطل، والقول إن الذي يدمر غزة (أو العراق) يدافع عن نفسه، قيمة من قيم الإثم والعدوان التي تتحول في الحضارة الغربية إلى دفاع عن النفس. وكل هذه المواقف الشاذة والقيم المقلوبة مما يتوقع من حضارة الظلم والعدوان فهذا تاريخها، لكن أن يتبناها مسلم فهو مما يتطلب الشرح أو إلغاء العقل.

التماهي في الحضارة الغربية هو ما يجعل المسلم يحمل قيمها ويدافع عن أفكارها. غير أن هناك ما هو أسوأ، وهو أن يصل التماهي درجة الفناء، وهي ظاهرة مرضية وصلها سيد القمني ضمن آخرين لا يتسع المجال لذكرهم.

ثالثًا. الفناء في الحضارة الغربية. الحضارة الغربية هي الإله الذي يتجلى مرة في المسيح، ومرة في الكنيسة، ومرة في الدولة، ومرة في الإنسان. ويمكن لأي إنسان أن يفنى فيها لأنها، طبقًا لفكرة وحدة الوجود، مفتوحة لمن يحمل قيمها (الإنسانية) ويفكر بمنهجها (الذي يقود إلى الفناء فيها).

قديمًا كانت الحضارة الغربية مغلقة على قيمها الأوربية، أما اليوم فهي منفتحة وتدعو إلى الانفتاح على كل الثقافات والأديان، وتدعو إلى عدم التفرقة بين من يعبد الله ومن يعبد الشيطان، وتدعو للتسامح الذي يجعل نوع الرجل والمرأة قابلاً للتغير وقابلاً للإلغاء حتى. ومن يعترض على هذه الأنواع من الشذوذ يعتبر منتهكًا لألوهية آخر الآلهة (الإنسان)، أو منتهكًا لحقوق الإنسان-الإله بعبارة أخرى.

بعض الإسلاميين تظاهروا بالتماهي في الحضارة الغربية ودخلوا مدرستها المركزية من باب الديمقراطية، لكن حراس المدرسة استشعروا الخطر

الداهم، فحاولوا قلب النظام في تركيا، ويحاولون الآن قدر جهدهم تخريب تونس، قبل أن تمكن الديمقراطية للإسلاميين في الأرض. فإذا قدر لتونس أن تصبح دولة إسلامية فلابد أن تكون من النوع الأفغاني وليس النوع التركي، لأن تركيا كارثة على مدرسة المركزية الغربية، وهذه الكارثة تكفي لوحدها أما أن تصبح معها كارثة أخرى اسمها تونس ديمقراطية إسلامية، فهذا ما لا تطيقه حضارة النفاق وسوء الاخلاق!

وفي سبيل الحيلولة دون وقوع الكارثة تعول المدرسة المركزية على تلاميذها النجباء، من نوع سيد القمني الذي تماهى فيها بالقول «أنا كافر»، ومتسولاً الغربيين أن يزيدوا من جرعات «الإسلام-فوبيا». وبلغ القمني درجة الفناء في المركزية الغربية عندما أعلن (من بروكسل) أنه أعد ملفًا يثبت أن «الأزهر منظمة إرهابية»، وأنه ينوي تقديمه للأمم المتحدة حتى تصنف الأزهر كذلك.

القمني هو الأنموذج الذي تحاول الحضارة الغربية إنتاجه علمانيًا بعد أن أخفقت في إنتاجه مسيحيًا، لأن من بركات المسيحية اجبارها الإنسانية على أن تتمخض على انتاج نقيضها من صلبها (وهذه وجهة نظر نيتشه). وما أخفقت فيه بركات أوربا الصليبية حققته بركات أوربا العلمانية، فإذا بنقيض الإسلام يخرج من أحشاء الأمة الإسلامية.

القمني مجرد حالة فردية، مجرد مثال لشريحة من أبناء المسلمين الذين يعتقدون أن الإسلام هو أكبر خطر يواجه البشرية، ولا بد من سحق الإسلاميين حتى ينجو العالم من الإسلام. وهؤلاء جميعًا حققوا ما حققه القمني من فناء في مدرسة الفناء.

الفرضية الفرنسية

تقوم الفرضية الفرنسية على أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين، ومن ثمَّ تكون مهمة فرنسا الحضارية هي تخليص المسلمين من الإسلام. وتنطلق هذه الفرضية، التي فصّلها رينان في مناظرته للأفغاني سنة 1883[1]، من أن الإسلام كارثة عالمية[2]، وأن «أفضل مساعدة يمكن أن نقدمها للمسلم هي أن نحرره من دينه».[3]

ولشرح الخلفية التاريخية للفرضية الفرنسية من الضروري تبيان الظروف التي ولدت فيها، ثم التفرقة بين الاستراتيجي والتكتيكي في تطورات الموقف الفرنسي، لأن خفاء الهدف الاستراتيجي عن افق المسلمين مكن فرنسا من تجنيد الكثير منهم في حربها على الإسلام.

أولاً. الظروف التي ولدت فيها الفرضية.

تمثل رؤية رينان مرحلة من مراحل تطور الضغينة المسيحية التي تحولت

(1) المناظرة منشورة على الانترنت، وهي من ترجمة د/ هاشم صالح.

(2) في سياق تصوره للإسلام على أنه كارثة بين كوارث أخرى، يساوي رينان بين عمر بن الخطاب وجنكيز خان فيقول: «لو اعترضت المدفعية سبيل عمر بن الخطاب وجنكيز خان لما أمكنهما تجاوز الصحراء»!

(3) هذا كله يسمى بحثًا علميًا في فرنسا.

إلى غريزة. هذه الغريزة وصفها نيتشه بدقة عندما قال: «إننا نلمس في غريزة الحقد على كل ما هو واقع العنصر المحرك، والمحرك الوحيد، المتأصل في عمق المسيحية»[1].

الشيخ محمد عبده ممن أدركوا الحقد المسيحي متحولاً إلى غريزة فرنسية، لا يبررها شيء سوى أنها غريزة. في هذا السياق يقول الشيخ: «لا توجد أمة تكره المسلم لأنه مسلم، لا لأمر آخر، سوى فرنسا»![2] وما دام الحقد على الواقع، والإسلام جزء منه، هو المحرك المتأصل في عمق المسيحية فلا غرابة في موقف فرنسا، لأن حقدها على الإسلام جزء من الغريزة التي تسكن لاشعور الحضارة الغربية عمومًا.

إخفاق أوربا في استئصال الإسلام بإحدى عشرة حملة صليبية ـ خرجت تسعة منها من فرنسا ـ اقتضى تغييرًا لا يمس الهدف الاستراتيجي وإنما يتحول به إلى التدرج عبر أساليب تكتيكية متعددة منها «الحوار» و«التنويم» و«تجفيف المنابع». هذه التكتيكات أثبتت فعاليتها في استضعاف الإسلام وإن لم تقض عليه.

ثانيًا. الاستراتيجي والتكتيكي في الموقف الفرنسي.

كل ما تم بين الحروب الصليبية وحملة نابليون على مصر في نهاية القرن الثامن عشر هو تحول الضغينة التي تحملها أوربا للإسلام من ضغينة دينية

(1) نقيض المسيح، مرجع سابق، فقرة 39.

(2) توفي محمد عبده سنة 1905، وهي السنة التي ولد فيها مالك بن نبي. وولد ماسينيون في السنة التي جرت فيها المناظرة بين رينان والأفغاني، ومات في السنة التي استقلت فيها الجزائر (1962). الحقد المسيحي، الذي رآه محمد عبده غريزة فرنسية تجرع مرارته حمودة بن ساعي ومالك بن نبي، اللذان وجدا نفسيهما دون غطاء اجتماعي في مواجهة بقية الصليبية، لويس ماسينيون.

(= صليبية) إلى ضغينة لا دين لها (= علمانية).[1] هذا التحول، الذي مر بالكثير من التدقيق والتعقيد عبر العصور، كان العمود الفقري للموقف الفرنسي لحظة وصول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية في الأول من يوليو سنة 1798.

ما ميز حملة نابليون عن الحملات الصليبية القديمة هو أن الاستيلاء على مصر معرفيًا (توثيق كل كبيرة وصغيرة فيها) كان من ضمن أهداف حملة نابليون[2]. وكان الزاد المعرفي لنابليون نفسه غير قليل وجدير بالتوقف عنده هو الآخر. فمما عرفه نابليون سلفًا هو أن عليه أن يخوض ثلاثة حروب في سبيل بناء امبراطورية فرنسية في الشرق: الحرب الأولى مع الإنجليز، والثانية مع الباب العالي، والثالثة ــ والتي ستكون الأشد ضراوة ــ مع المسلمين.

لمجابهة ضراوة المقاومة الإسلامية المحتملة جاء نابليون بفكرة التنويم تكتيكًا فرنسيًا جديدًا في الحرب على الإسلام. إعلان نابليون أنه وجيشه مسلمون وأنهم جاءوا لتحرير مصر والمصريين كان شروعًا فعليًا في تطبيق التكتيك الجديد (التنويم). هذا التكتيك تحول إلى وصية عندما انسل نابليون عائدًا إلى فرنسا تاركًا جيشه محاصرًا في مصر. في تلك الوصية للجنرال كليبر الذي خلفه في قيادة الحملة كتب نابليون يقول: «لا بد من تنويم التعصب لاقتلاعه من جذوره».

(1) عندما تحدث سعيد عن تطور الاستشراق شرح انقلابه عبر القرون الطويلة من بنى دينية (= صليبية) إلى بنى لا دين لها، تزعم أنها علمية عقلانية (= علمانية). الاستشراق دين تمت علمنته (Secularized Religion) في وصف سعيد. وبذا يؤكد سعيد على وصف نيتشه للحقد بأنه المحرك المتأصل في عمق المسيحية، فالاستشراق هو الحقد الأوربي بعدما تعلمن.

(2) ولذا اصطحب نابليون مئات العلماء والفنانين لتعضيد القوة العسكرية بأخرى ثقافية، وهو ما أنتج في النهاية موسوعة «وصف مصر».

IL faut endormir le fanatisme afin de pouvoir le déraciner

وهذا معناه إن اقتلاع الإسلام من جذوره يستلزم تنويم المسلمين أولاً. وما لا تقوله وصية نابليون وتقوله الممارسة الفرنسية على الدوام هو أن من استعصى على التنويم ليس له عند فرنسا غير الإبادة (مادية أو معنوية). والأخطر مما سلف هو استخدام فرنسا لمن يمشي نائمًا من أبناء المسلمين ضد من استعصى على التنويم. وهذا هو السر في الحروب الأهلية في العراق وسوريا والجزائر وليبيا[1]. أستاذ التنويم الفرنسي، والحلقة الموصلة بين «الاستعمار» و«ما بعد الاستعمار»، هو لويس ماسينيون (1883-1962).

ثالثًا. من نابليون إلى ماسينيون.

ولد ماسينيون في السنة التي جرت فيها المناظرة بين رينان وآلافغاني، وتبحر في دراسة الشرق والشرقيين حتى انتهى به الأمر صليبيًا على مستوى الدين واستعماريًا على مستوى الدنيا. كان ماسينيون أشهر من مارس تنويم المسلمين تمهيدًا لانتزاع الإسلام من قلوبهم. سمى نفسه «صديق المسلمين» وخرج في المظاهرات التي تدعم استقلال الجزائر معرضًا نفسه لهراوات البوليس، وهو ما أخفى حقيقته عن أعين كبار الغافلين من أمثال طه حسين[2]، وعبد الرحمن بدوي، وإبراهيم مدكور[3]. مارس ماسينيون تنويم

(1) التعليم الفرنسي الذي انخرط فيه العرب منذ محمد علي خلق مثقفًا عربيًا مستنسخًا على المثال الفرنسي. هذا المثقف أقرب لأهل الكتاب منه إلى المسلمين فهو يقبل الإسلام عبادة ويرفضه شريعة. ورفض الشريعة هو ما يجعله مساويًا لأهل الكتاب.

(2) يقول طه حسين عن ماسينيون إنه «كان يحب المسلمين كما لو انه أحدهم دون أن يتخلى عن ارتباطه العميق بإيمانه المسيحي»!

(3) وبخصوصه قال إبراهيم مدكور: «ماسينيون هو أكبر مسيحي بين المسلمين، وأكبر مسلم بين المسيحيين». راجع علي بدر، «ماسينيون في بغداد»، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 2010، ص 89.

المسلمين بصفته مستشرق، ومارس تجفيف منابع رزق المقاومين منهم بصفته مستعمِر.

1. ماسينيون المستشرق.

ماسنيون من طبقة لورنس العرب، فكلاهما مستشرق في خدمة الاستعمار، ولكن كل على طريقته.[1] وما يهمنا هنا هو دور ماسينيون الصليبي في الشق الفرنسي من الظاهرة الاستعمارية. وفي هذا السياق يقول نيتشه: إن «من بركات المسيحية إجبارها الإنسانية على انتاج نقيضها من صلبها»! ولا تصدق هذه العبارة على أحد مثل صدقها على الجهد الصليبي لماسينيون الذي اشتهر برسالته عن الحلاج.

كان ماسنيون يحاول إرغام الحضارة الإسلامية على أن تتمخض عن مسيحها على الصليب، وقد وجد في الحلاج على الصليب المسيح المطلوب إسلاميًا، فإذا بالحضارة الإسلامية تتمخض عن نقيضها من صلبها في صورة الحلاج (المصلوب مثل المسيح في الخرافة المسيحية). هذه بعض من بركات المسيحية التي كان ماسينيون ممثلها في بلاد المسلمين.

جمع ماسينيون بين تكتيك نابليون (التنويم) والسرية التي تطبع الجهد الصليبي المعاصر. وقد مارس المذكور التنويم بفعالية منقطعة النظير، فنام بفعله خلق كثير وانتزع الإسلام من قلوب الذين كانت لديهم قابلية للتنويم. وفي هذا لن أتجاوز مثال «الأب عبد الجليل»[2]، الذي يقول مالك

(1) في مفاوضات سايكس-بيكو؛ كان لورنس في الفريق الانجليزي بقيادة مارك سايكس، بينما كان ماسينيون في الفريق الفرنسي بقيادة جورج بيكو.

(2). ذكره مالك بن نبي في كتابه «العفن» (Pourritures)، ترجمه عن الفرنسية نور الدين خندودي، الجزائر، دار الأمة، 2007.

بن نبي بخصوصه: «لم يتسن لي التعرف على عبد الجليل، الذي استفرد به ماسينيون قبل وصولي باريس، فاحتجز بين أربعة جدران لحضور حلقات دراسية وتكوينية في الدين المسيحي (séminaire) ليغادرها سنين بعد ذلك تحت اسم الأب عبد الجليل».[1]

مؤخرًا كُتب الكثير عن الأب عبد الجليل (1904-1979)، فهو سليل أسرة مغربية من مدينة فاس. حج مع والده وعمره 9 سنوات، ثم تنصر أثناء دراسته في فرنسا، وعاش بقية حياته مسيحيًا. وبخصوص انقلابه مسيحيًا يقول بن نبي أن عبد الجليل «كان شاهدًا على تحلل البورجوازية وتعفنها (وكان هو نفسه منتميًا إليها) فلجأ إلى المسيحية مدفوعًا بمثالية عرف ماسينيون كيف يزينها له وهو المبتدئ الذي تعوزه التجربة».[2]

كان عبد الجليل مثل مالك بن نبي في «ساحة يجب أن يكون فيها للمرء إعداد تربوي جيد يشكل عمادًا قويًا وتتأسس عليه التجربة»[3]، لكن الحضارة الإسلامية غربت شمسها منذ قرون وتوقفت عن إعداد أجيال بإمكانها أن تأتي بالجديد أو تدافع عن جوهر القديم، فامتدت إلى ناشئتها يد التنصير. وبذا أنتج الإسلام نقيضه من صلبه (الأب عبد الجليل) ببركات الإحسان المسيحي الذي مثله ماسينيون.

على الجانب الآخر؛ كان ماسينيون يراقب الطلبة العرب عن قرب، ويجفف منابع رزق من لم تكن لديه قابلية للتنويم منهم، وكان على رأس هؤلاء حمودة بن ساعي ومالك بن نبي. وفيما يخصه يقول بن نبي «عندما

(1) المرجع السابق ص 25.
(2) المرجع السابق نفس الصفحة.
(3) المرجع السابق ص 29.

أخبرني صديقي بن ساعي عن رغبة ماسينيون بلقائي كنت أجهل أن كل الخيوط التي تحرك عالمنا الصغير كانت بين يدي هذا الأخير. وكان هو نفسه خفيًا متواريًا كالعنكبوت في بيتها. ويجب أن أقول من جهة أخرى، إنني أخذت وعيًا في الحين لماذا تسعى هذه العنكبوت لاجتذابي في شبكتها التي وجد عبد الجليل نفسه سنوات من قبل محبوسًا بين خيوطها مخدرًا ومقيدًا»[1]

حمودة بن ساعي الذي كان طالبًا يعد بحثًا تحت إشراف ماسينيون استيقظ بعد تخدير وانتبه بعد غفلة فكتب إلى ماسينيون يقول له: «لن أغفر لنفسي أني أحببتك... أنت أسوء من أولئك الذين حرقوا بيوتنا واغتصبوا بناتنا... لقد نزعت عني سلاحي لسنوات عدة عندما جعلتني أؤمن بأن هناك إمكانية للتصالح والوفاق بين فرنسي مسيحي وعربي مسلم».[2] على إثرها حطم ماسينيون بن ساعي فعاش المسكين يعاني عقدة اضطهاد على هامش المجتمع الجزائري حتى وفاته سنة 1998.

بقية التفاصيل المؤلمة، ولاسيما ما تعلق منها بتجفيف منابع رزق بن نبي، يمكن الرجوع إليها في كتابه «العفن» وبقية كتبه، ومن أهمها «مذكرات شاهد القرن» و«الصراع الفكري في البلاد المستعمرة». ولكن لا بد، قبل ختام هذه الفقرة، من كلمة بخصوص الذين اقتنعوا بالفرضية الفرنسية، فأصبحوا نقيض الإسلام وأكبر خصومه فيما يسمى تاريخيًا «دار الإسلام». لقد أصبح هؤلاء الطابور الخامس في بلاد المسلمين، يحاربون حرب فرنسا على الإسلام وهم لا يشعرون، ويحققون أهدافها في غفلة منقطعة النظير، ويعتقدون في نفس الوقت أنهم ممن يحسنون صنعًا.

(1) المرجع السابق ص 26.

(2) راجع محمد خليفة، مئة سنة من الصراع الفكري، إسطنبول، دار منابع النور، 2020، ص 43.

2. ماسينيون المستعمِر.

بالنسبة لمالك بن نبي، لم يكن ماسينيون شيئًا سوى «عقدة من الاستعلاء الأكثر غباوة والحيلة الأكثر مكيافيللية». وكان جوهر المحنة في تجربة بن نبي هو أن الوحيد الذي يفهمه هو ماسينيون الذي قال عن «شروط النهضة»: هذا الكتاب خطر على الاستعمار.

استشعر ماسينيون قرب نهاية الاستعمار المباشر بعد الحرب العالمية الثانية، فوضع تصورًا لحقبة ما بعد الاستعمار كي تكون ما يعرف بالاستعمار الجديد (neocolonialism)، أي استمرار الاستعمار في صورة «استقلال» بأدوات قمع محلية. وقد ظهر تصور ماسينيون هذا (سنة 1952) في صورة بحث بعنوان «الغرب في مواجهة الشرق: أولوية الحل الثقافي».

في هذا البحث أكد ماسينيون أن على الإحسان المسيحي -الذي تمثله فرنسا- توفير التعليم المناسب للعرب. وهذا وجه من وجوه إحسان ماسينيون: حيلة مكيافيللية هدفها تسخير التعليم الفرنسي لإعادة تركيب القوى العقلية لأبناء المسلمين وفق الحاجات الفرنسية! وقد ضمن بحثه المذكور هذا الهدف دون أن ينسى أن ذلك يقتضي المرور باللغة وضرورة التدخل بها أو فيها لتحقيق الأهداف غير المعلنة صراحة حتى لا يضطرب نوم النائمين.

الرائد لخضر بورقعة[1] من الذين شهدوا التطبيق العملي لهذه التكتيكات على أرض الواقع، وقد سجل أحداثها في مذكراته المعنونة «شاهد على اغتيال الثورة». وفي شهادته عن دور التعليم الفرنسي في تقرير مصير جزائر ما بعد

(1) راجع مذكرات سي لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثورة، https://www.kutubypdf.com/shahid-thawra/

الاستقلال يقول سي لخضر: «كلف العدو معاهده ومدارسه بتخريج عدة دفعات أعدت خصيصًا لتضطلع بمهمة تسيير الإدارة والاقتصاد في الجزائر المستقلة... هذه المشاريع العدوانية لم نواجهها نحن بدورنا بمشاريع وخطط مضادة لأننا كنا دون مستوى المواجهة من جهة، وكنا في موقع الذي غلبته الاحداث على أمره لكثرتها وتشابكها.. من جهة أخرى».[1]

حقيقة أن المجاهدين كانوا دون مستوى المواجهة مما استوقف مالك بن نبي عندما تخلت جمعية العلماء عن قيادة الشعب الجزائري ليقفز إليها بعض الوصوليين. وفي هذا يقول مالك: «الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي، سلموها لمن يضعها تحت أقدامه لتكون سلمًا يصعد عليه للمناصب السياسية.»[2]

اشتكى مالك من غياب صرامة الإرادة وحدة المزاج عند العلماء لمنع الانحراف في مسيرة الشعب الجزائري. لقد توفرت صرامة الإرادة وحدة المزاج عند حماس سنة 2006، عندما ارادت السلطة الفلسطينية العبث بخيار الشعب الفلسطيني.

أزاحت حماس السلطة وانتصرت لخيار الشعب الفلسطيني بحدة المزاج وصرامة الإرادة التي كان استخدام السلاح التعبير النهائي عنها ـ الحرب استمرار للسياسة بوسائل مغايرة ـ وهذا ما لم تكن جمعية العلماء قادرة على تحقيقه في الجزائر الفرنسية. ولقد أسيء فهم مالك وموقفه لتفاوت مستويات الإدراك داخل الحركة الإصلاحية نفسها، ومالك من ابنائها.

(1) المرجع السابق، ص 11.

(2) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، دمشق، دار الفكر، 1970، ص 368.

رأى بن نبي ضرورة خوض حرب التحرير على جبهة الأفكار، ولكن نظرًا لأن الوحيد الذي كان يفهمه هو ماسينيون ظلت نصائحه ومجهوداته حبرًا على ورق، حتى أن الرائد لخضر بورقعة عندما كتب مذكراته سنة 1990 شكك في حقيقة استقلال الجزائر بالقول: «نحن الآن في مرحلة كل ما فيها من وطني.. وسيادي.. مشكوك فيه ومباح للمنحرفين والمندسين على الشعب والثورة»[1]! ولماسينيون وأمثاله من المفكرين وأساتذة الجامعة الفرنسيين نصيب الأسد في هذا الإنجاز الذي انحرف بالثورة الجزائرية عن الجادة.

وتقديرًا من فرنسا لدور ماسينيون، وإسهاماته في تنويم المسلمين، أطلقت اسمه على مدرستين: واحدة في الرباط والأخرى في أبو ظبي. لقد ضاعت كل تضحيات الشهداء لأن السياسيين كانوا، لقصورهم الفكري، يخسرون على موائد المفاوضات كل ما حققه المجاهدون ببذل الأرواح في ميدان القتال. الاستثناء الوحيد في تاريخنا المعاصر هو منجز حماس في غزة وحزب الله في لبنان.

استطاع الحزبان إدارة المقاومة باقتدار، في عالمي الأفكار والسلاح معًا، ولذا تراهما محلًا لهجوم لا يتوقف من طرف حملة أخلاق العبيد الذين يرون في المقاومة معرة والجهاد جريمة. العبيد يؤمنون بالفرضية الفرنسية أكثر من إيمانهم بأي شيء آخر، وهم حراس مصالح فرنسا في البلاد التي ظنت شعوبها أنها استقلت وهي تعيش تحت نير احتلال داخلي يدار من الخارج.

(1) المرجع السابق، ص 12.

أخلاق الضغينة!

أحد المبعوثين[1] الليبيين للدراسة في إيطاليا (أواخر ستينيات القرن الماضي) حدثني عن سكنه عند أسرة شيوعية إيطالية يشارك أحد أفرادها في تأليف موسوعة إيطالية. في باب الإسلام كتب المؤلف الشيوعي كلاما رائعًا عن الإسلام، ومن ضمنه حرص المسلمين على الوضوء عدة مرات في اليوم في بيئة صحراوية يندر فيها وجود الماء، مما يدل على استعدادهم للتضحية بشيء بالغ الندرة في سبيل النظافة.

الفضول دفع محدثي إلى سؤال المؤلف الشيوعي عن سر هذا الإطراء للإسلام وهو الذي لا يؤمن بالدين، فأخبره الشيوعي أن الكنيسة تعلم أطفال الايطاليين أن الكاثوليكية هي أحسن دين. وفرضية الكنيسة هذه لا يمكن دحضها إلا بإظهار أن هناك دين أفضل منها!

لم يكن الإسلام في السياق السالف بيانه سوى أداة من أدوات نسف ما استقر في وعي الإيطاليين بخصوص الكنيسة. فالمؤلف الشيوعي لم يعظم الإسلام للإيمان به، وإنما بغضًا للمسيحية والكنيسة التي تمثلها، في زمن لم يعد النظام القانوني يسمح بإظهار البغض علانية!

واستخدام الإسلام كأداة تنفيذ لمشاريع بغض وكراهية غير معلنين لا

(1) د/ علي السوري أبوحميرة، الأستاذ بكلية الهندسة، جامعة طرابلس.

يتوقف على الشيوعيين، فموقف المؤلف الشيوعي-الإيطالي يمكن رؤيته مقلوبا في الموقف الليبرالي-الأمريكي في أفغانستان، حيث تم دعم المسلمين الافغان لدحر الشيوعية وإنهاك الاتحاد السوفيتي.

في حينها عظمت وسائل الإعلام الأمريكية/الغربية موقف الافغان عندما كانوا يجاهدون ضد الاتحاد السوفيتي. ومن بعد انقلب المجاهدون، في ذات وسائل الإعلام، إلى إرهابيين عندما تحول جهادهم ضد الولايات المتحدة. الجهاد لا يتغير، وما يتغير هو المصلحة التي تجعل المنافقين يرون الجهاد على حقيقته مرة وعلى خلافها أخرى!

لكل ما سلف على المسلم ألا يغتر بمدح غير المسلمين للإسلام أو دعمهم للإسلاميين هنا أو هناك، لأن ذلك قد يكون بداية المنزلق الذي يقود الغافل إلى الهاوية. تعظيم الإسلام، إن كان صادقا، يكون بالدخول فيه والانضمام إلى أهله[1]، أما غير ذلك فمجرد مجاملة أو تغرير.

لقد كان الموقف الأوربي السلبي من الإسلام المحور الذي دارت عليه دراسة إدوارد سعيد للاستشراق، لأن «الاستشراق يحمل في طياته طابع الإشكالية في الموقف الأوربي من الإسلام»، ولذا يختم سعيد بالقول «وحول حدة الحساسية على هذا الجانب من الاستشراق يدور اهتمامي في هذه الدراسة.»

Orientalism carries within it the stamp of a problematic European attitude towards Islam, and it is this acutely sensitive aspect of Orientalism around which my interest in this study turns.[2]

(1) على نحو ما فعل محمد أسد، اليهودي الذي دخل الإسلام وخاطر بحياته لإيصال رسالة من أحمد الشريف في مكة إلى عمر المختار في الجبل الأخضر.

(2) . E. Said, Orientalism, op. cit. p. 74

نقد المقاربة الماركسية

تقوم المقاربة الماركسية في البلاد العربية على مقدمتين ونتيجة. المقدمة الأولى: الاعتقاد بتشابه إن لم يكن تطابق التجربتين المسيحية شمال المتوسط والإسلامية جنوبه. المقدمة الثانية: أوربا لم تتقدم حتى تركت الدين، فعلينا نحن ترك الدين حتى نتقدم!

والنتيجة المنطقية لهذه المقدمات هو أن علينا أن نتجاهل ما بين المسيحية والإسلام من فروق، ثم نترك الإسلام مثلما تركت أوربا المسيحية. وهذه النتيجة يحذوها أمل، غير معلن غالبًا، بأن تملأ الماركسية الفراغ الفكري الناشئ عن صمت الإسلام الممتد لستمائة سنة (بين ابن خلدون ومحمد عبده)[1]. وقد جرت محاولات لا حصر لها خلال القرن العشرين لتحقيق هذا الهدف.

أول هذه المحاولات جرت على يد فرح أنطون الذي حاول، مطلع القرن، إثبات أن ابن رشد فيلسوف مادي. كان أنطون يقتفي أثر ارنست رينان وكتابه ابن رشد والرشدية[2]، وكان الهدف فيما يبدو التمهيد لإدخال المذهب المادي

(1) عبده وليس الأفغاني لأن «رسالة التوحيد» أول عمل فكري بعد بن خلدون (وجهة نظر مالك بن نبي).

(2) ترجمة عادل زعيتر، بيروت، 2013، دار التنوير للطباعة والنشر.

إلى بلاد المسلمين، وعلى حساب الإسلام. والذي تصدى لمحاولة فرح أنطون هذه هو الشيخ محمد عبده الذي ناظر أنطون في الصحافة القاهرية.[1]

يقول سلامة موسى: «تحطم فرح أنطون بما وقع فيه من نقاشات تاريخية مع محمد عبده... وانهزم فرح ورحل إلى أمريكا..»![2] ولم ينهزم أنطون ويرحل إلا بعد أن سخر مما انكشف له من قصور الإسلام السلفي، عندما ترك صاحب المنار للشيخ محمد عبده مهمة مناظرة أنطون. لم يترك هذا الأخير الفرصة تفوته فكتب قائلاً عن رشيد رضا: «إن الأستاذ قد أحسن إلى نفسه بأن كفاها مشقة الخوض في موضوع فلسفي صعب لم يتعود الخوض فيه... لأنه يقتضي درسًا لم يدرسه»![3]

وبموت محمد عبده بعد آلافغاني اقفرت الساحة الإسلامية[4] من مفكرين كانوا قادرين على محاورة غربيين من نوع ارنست رينان وغابرييل هانوتو.[5] وبعد إقفار الساحة من ذاك النوع من المفكرين تولت السلطات المختلفة خنق الإسلام في بعض الدول ومصادرته في البعض الآخر.

كان قتل كل من عبد القادر عودة وسيد قطب على التوالي خنقًا للإسلام الحي، وهو ما أفرغ الساحة لفكر إسلامي ميت يجذب إلى الخلف، وتيار ماركسي يجذب إلى الغرب. وسأقوم -استئنافًا لمناظرات القرن الماضي- بنقد

(1) كان عبده يكتب في «المنار» وكان أنطون يكتب في «الجامعة».

(2) سلامة موسى، هؤلاء علموني، القاهرة، 2012، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص 72.

(3) ولم ينتبه المسلمون لهذا القصور، وعوضًا عن تلافيه جرى استغلاله أبشع استغلال، من أطراف عدة، ولأهداف غير نبيلة.

(4) وكان من نتائج إقفار الساحة عودة أنطون من أمريكا، ليشارك في ثورة 19 إلى جانب سعد زغلول.

(5) ناظر الأفغاني ارنست رينان، ورد عبده على غابرييل هانوتو، وكان الأخير وزيرًا لخارجية فرنسا في بداية القرن العشرين.

التيار الماركسي، لأنه مازال يقود التيار العلماني ويغذيه، ولاسيما بعدما انقلب كثير من الماركسيين إلى ليبراليين.[1] وما لدي لأقوله على سبيل النقد هو الآتي:

أولاً. أوربا تأخرت لأنها اتبعت الباطل (المسيحية)، ونحن تأخرنا لأننا تركنا الحق (الإسلام). واقتراح أن نترك نحن الإسلام اقتداءً بأوربا التي تركت المسيحية مساواة بين الحق والباطل. ولا يفطن لبطلان هذه المساواة الكثير من الناس، لأنها تتم في سياق الحديث عن «الدين»، وهو سياق قائم على تجاهل الفروق بين المسيحية والإسلام. وهذه الفرضية مقبولة في أوربا لأنها أرض الباطل، ولكن لا يقبلها مسلم يعلم الفروق بين المسيحية والإسلام.

انطلاقًا مما تقدم أنصح المسلم ألا يتحدث عن الدين، لشمول المصطلح عبادة البقر في الهند وعبادة الشيطان في الغرب. على المسلم أن يتحدث عن الإسلام، وليس الدين، وعن الفكر الإسلامي، وليس الفكر الديني، لرفع اللبس الناتج عن المساواة بين الأديان بما فيها عبادة البقر وعبادة الشيطان.

ثانيًا. أن يقيِّم عزمي بشارة أو جورج طرابيشي الإسلام سلبًا أمر طبيعي، لأنهم لم يؤمنوا به يومًا واحدًا، وأن يرفضوه رفضهم للمسيحية مجرد مظهر من مظاهر المساواة بين الحق والباطل عندهم. ولا غرابة في هذه المساواة عندما تصدر عن غير المسلم، أما قبولها من المسلم فهو معبر عن مشكلة -نظرية بالإساس- وجوهرها إلغاء الفرق بين الحق والباطل.

وقد استغل غير المسلمين (ارنست رينان، وفرح أنطون، وميشيل عفلق، وعزمي بشارة) ما سلف من قصور لدى المسلم أيما استغلال لملء الفراغ

(1) وعلى رأس هؤلاء د/ عزمي بشارة.

الفكري (الناشئ عن صمت الإسلام) ببدائل أيديولوجية غربية، فملأ الباطل الفراغ الذي تركه أهل الحق.

ثالثًا. إذا وضعنا تخلفنا تحت المجهر الإسلامي فسنكتشف أننا تخلفنا لأننا اتبعنا سنن أهل الكتاب، تبعًا لنبوءة «لتتبعن سنن من كان قبلكم... قالوا اليهود والنصارى يا رسول الله؟ قال ﷺ: فمن الناس؟» والأصل أن أهل الكتاب مسلمين ولكن لما قال اليهود عزير ابن الله وقال النصارى المسيح ابن الله خرجوا من الإسلام لأنهم بهذا: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ [التوبة: 30]!

والذين كفروا من قبل هم الذين جعلوا الآلهة آباء وأبناء من نوع أوزيريس وابنه حورس من الفراعنة، ويوليوس قيصر وابنه أوكتافيوس من الرومان. مضاهاة أقوال وأفعال غير المسلمين معبر عن سلوك من يبتغي غير الإسلام دينًا. وهوما يُستغرب من المسلم ولا يستغرب من غيره.

رابعًا. لا يفرق الجادون من مفكري أوربا بين الدين والايديولوجيا، ولذا نجد كارل غوستاف يونغ يقول: «الدكتاتوريات الاشتراكية أديان..»! ونجد سيمون في تقول «الماركسية دين..»، بينما يقول غارودي إن الماركسية منهج نقدي قاده للإسلام!

كيف نوفق بين هذا التضارب؟

الإجابة عند محمد عابد الجابري[1]، الذي يقول إن الماركسيين العرب لا يعتمدون الماركسية منهجًا للتطبيق بل يدافعون عنها منهجًا مطبقًا، أي كما طبقه «السلف الماركسي». حسين مروة أرسله أهله إلى العراق ليتأهل مُلة شيعي،

(1) نحن والتراث، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص 15.

فاطلع على «البيان الشيوعي» فاعتنق الشيوعية ونبذ التشيع، ليقض عشر سنوات في نهاية القرن العشرين يبحث عما بحث عنه فرح أنطون في أوله (النزعات المادية في التاريخ الإسلامي)، وكانت كلها مساعي لإدخال المذهب المادي أو الماركسية إلى بلاد المسلمين، وبأي ثمن.

وخالد محيي الدين قرأ كتاب روجيه غارودي «الاقتصاد محرك التاريخ» فاعتنق الماركسية وعاش ماركسيًا بقية حياته. وفي تحوله إلى الإسلام من طريق الماركسية يقول غارودي: الماركسية منهج نقدي لدراسة متناقضات مجتمع بعينه في لحظة تاريخية معينة قصد الوصول إلى حل يتجاوز التناقضات. ويضيف قائلاً: لم أجد حلاً يتجاوز تناقضات أوربا في نهاية القرن العشرين سوى الإسلام فاعتنقته. ومن أجمل ما ورد عن غارودي قوله: أنا غيرت «جماعتي» ولم أغير هدفي (مجتمع أفضل). لم يُعد خالد محيي الدين التفكير مثلما فعل غارودي، لأنه لم يعتنق الماركسية منهجًا للتطبيق، بل اعتنقها منهجًا مطبقًا. وهذا هو حال معظم معتنقي منهج السلف، والماركسيين العرب منهم، غير أنهم على اليسار.

2011-1911

كان الليبيون سنة 1911 يركبون الخيل والإبل، وفي سنة 2011 أصبحوا يركبون السيارات والطائرات، لكنهم ما زالوا يفكرون بطريقة عصر البعير، ولذا لم يصلوا عشرينيات الألفية الثالثة حتى وجدوا أنفسهم حيث كانوا في عشرينيات القرن الماضي: (في حرب أهلية).

وأسوأ ما في الأمر أن برقة كانت في بداية القرن العشرين أكثر تقدمًا من برقة في بداية الألفية الثالثة[1] تتقاسم اليوم الحرب الأهلية مع طرابلس، وهو ما يعني أن برقة كانت قبل مائة سنة أكثر تقدمًا من برقة وطرابلس اليوم!

برقة اليوم في مستوى تخلف طرابلس الفكري والاجتماعي بداية القرن الماضي، ولذا عمت الحرب الأهلية ليبيا، وهو ما يعني أن طرابلس ظلت -على مستوى الأفكار- حيث كانت قبل مائة سنة، وبرقة تخلفت مائتي سنة لتشارك طرابلس انحطاطها وحربها الأهلية! وأنا أتحدث عن طرابلس-المنطقة وليس طرابلس-المدينة.

والمأساوي في الأمر أن هذا هو حال الأمة المسلمة كلها، غير أن كل بعير لا يرى سوى اعوجاج رقاب غيره من الإبل. وإليك على مستوى الأفكار، تفاصيل المأساة التي عمرها الآن مائة سنة.

(1) بفضل الحركة السنوسية التي نظمت برقة بشكل منع وقوع الحرب الأهلية فيها.

أولاً. 1911.

عندما نزل الإيطاليون غزاةً بطرابلس كتب لويس ماسينيون (1882-1963) إلى ماري الكرملي في بغداد رسالة هذا نصها: « آمل ألا يكون للحرب الإيطالية-التركية رد فعل عنيف للغاية عليكم. إن النهج الذي اتبعته إيطاليا كان على ذات القدر من الغدر والرعونة، إن مصلحة أوربا والمسيحية وحدهما هما اللذان يجيزان أن نتمنى النجاح لهذا الهجوم الغادر... إيطاليا الآن متورطة كثيرًا، ولا يمكنها التراجع وكل شيء سينفجر في تونس وفي القاهرة إن هي جلت عن طرابلس، ثم كل شيء هو بمشيئة الله.»[1]

يؤمن ماسينيون بالله عقيدةً وبالغدر وسيلةً!

وفي سبيل ماذا؟

في سبيل أوربا والمسيحية!

تأمل قليلاً وانظر في المرآة، فقد تجد نفسك على ملة ماسينيون، ولا هم لك إلا أن تبقى طرابلس فاصلة بين تونس والقاهرة.

ثانيًا. 2011.

بينما يطير بنيامين نتنياهو من تل أبيب إلى أنجامينا مرة، ومن تل أبيب إلى مسقط مرة أخرى، يطالبني بعض المثقفين الليبيين بالاكتفاء بالشأن الليبي، بينما يتحدث البعض الآخر عن حماية الحدود الليبية، وهي غير موجودة أصلاً!

اهتمامي بالشأن التونسي أو الشأن المغاربي فرع من اهتمامي بالشأن الليبي، وإن لم أفعل ذلك أكون خائنًا، ليس لليبيا، وإنما لله ورسوله والمؤمنين!

(1) على بدر، ماسينيون في بغداد، بيروت، 2010، ص 262.

الحدود المفروضة بإرادة المستعمر لا وجود لها في شعوري. أنا مسلم على مستوى الشعور، واللاشعور، والخطاب، ولن تكون الحدود المرسومة على الخارطة زنزانة لعقلي أو تفكيري ما حييت.

ومع ذلك ليسمح لي الذين سكنت الحدود مشاعرهم، وحددت رؤيتهم على النحو الذي رسمه المستعمر أن أسألهم: هل منعت الحدود الجيش الصهيوني من قصف بغداد؟ أم هل منعته من قصف حمام الشط؟ وهل منعت الحدود دولة بني إسرائيل من قتل أحمد ياسين في غزة، ومحمد الزواري في صفاقس، ويحي المشد في باريس؟

وهل منعت الحدود حماس من قصف تل أبيب؟

التكافؤ بين غزة ودولة بني إسرائيل في الإرادة وليس في السلاح! ولذا لا بقاء لإسرائيل مع وجود ما يسمى ظلمًا «الإسلام السياسي»، ولا بقاء لإسرائيل في وجود الإسلام وما عبارة «السياسي» إلا للتمويه. والذين يحاربون الإسلام، سياسيًا أو غير سياسي، يسهمون في المجهود الحربي الإسرائيلي وهم لا يشعرون!

ضحايا الحرب النفسية!

إذا كنت ممن يتسمم إذا سمع عبارة «الإخوان المسلمين»، فأنت من ضحايا الحرب النفسية! وإذا اعتقدت أني أدافع عن الجماعة فلا بأس، لأن هذا النوع من الأعراض الجانبية يظهر على معظم المصابين بالإسلام-فوبيا!

ويمكن فهم الإسلام-فوبيا عند غير المسلمين، أما الإخوانُ-فوبيا عند المسلمين فهي مما يجب شرحه، لأنه لا يحدث مصادفة، بل يجري تحضيره في مختبرات السموم النفسية. ويمكن أن تكون نقطة البدء في الحديث عن الاستراتيجية الموجهة للحرب النفسية ما جاء بصحيفة نيويورك تايمز على لسان موشى يعلون، رئيس الأركان الإسرائيلي، من أنه:

لا بد من دفع الفلسطينيين ليحسوا في أعمق نقطة من نقاط شعورهم أنهم شعب مهزوم.

The Palestinians must be made to understand in the deepest recesses of their consciousness that they are a defeated people.[1]

إذا كنت ممن يستخدم عقله فأنت لا تحتاج لأكثر من وضع كلمة المسلمين بدل كلمة الفلسطينيين في العبارة السابقة لتطلع على ما يخص المسلمين في سياق الحرب النفسية، لأن الصراع على فلسطين لم يكن في يوم

(1) New York Times 29 Jan 2009

من الأيام مع زعيم عربي أو جيش عربي بعينه. الزعيم العربي وجيشه يمكن هزيمتهما في معركة السلاح، أما هزيمة المسلمين جملةً فلا يمكن تحقيقها إلا في ميدان الحرب النفسية. وسأتحدث وفق هذا التقديم عن أدوات الحرب النفسية أولاً، ثم إدارتها ثانيًا.

أولاً. أدوات الحرب النفسية.

تقوم الحرب النفسية على الكذب والدس والتدليس على الغافلين الذين يتحولون بتصديق الأكاذيب إلى مغفلين. ويتم الدس وتسويق الكذب عبر أجهزة التضليل التي تسمى أجهزة إعلام، وأدوات أخرى تحمل أسماء شريفة وأهدافًا خسيسة، مثل مكتب الكذب الذي أنشأته وزارة الدفاع الأمريكية بمناسبة غزو العراق، سنة 2003، وسمته «مكتب الخطط الخاصة».

في ليبيا كانت كذبة «الإخوان يبيعون النفط بدون عدادات» من أسباب انتشار السم في نفس الإنسان الليبي، ولم تُكتشف الكذبة إلا بعد أن وصل السم النخاع. ومع الأيام نسي الناس الكذبة لكن السم بقي في النخاع! وكي لا يتعافى الإنسان الليبي مطلقًا تناوبت منابر الجمعة -بتوجيه خارجي- على إذكاء الحقد الأسود بعبارة «الإخوان خربوا البلاد»، وكما لو كانت ليبيا مثل سنغافورة حتى جاء الإخوان من كوكب آخر فجعلوها على ما هي عليه بعد الربيع العربي.

بفعل السم نسي الناس أن القذافي حول ليبيا إلى زريبة تأكل خبزًا رخيصًا (العشرة بربع دينار) لأنه مصنوع من علف الحيوانات! والذي خرب جنة «العشرة بربع» هم الإخوان، ولذا على الليبيين إبادتهم لإعادة الزريبة إلى سابق ازدهارها، حيث لا بنية تحتية ولا تعليم ولا رعاية صحية، ولكن «العشرة بربع» كل ما يلزم الزريبة هو العلف!

ثانيًا. إدارة الحرب النفسية.

في ادراج 04/ 08/ 2021 أضفت لصفحتي لقاءً صحفيًا يصف فيه فائق الشيخ علي (ليبرالي من أصول شيعية) كيف أضاف عبد الناصر للطبعات المتأخرة من كتاب سيد قطب «في ظلال القرآن» أن الإمام علي بن أبي طالب صلى بالناس سكرانًا وقرأ «يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون»، بهدف تسميم الشيعة ضد سيد قطب. كان أئمة الشيعة يقرؤن كتابات سيد قطب بشغف، وكان لا بد من التدخل حتى لا يلتقي الشيعة والسنة على تفسير/ فهم جديد للقرآن من وضع سيد قطب. صحيح أن عبد الناصر كان هو الظاهر في الصورة، وصحيح أنه المسئول أمام الله والتاريخ عن كل ما جرى في عهده، لكن عبد الناصر كان الشجرة التي تخفي الغابة. ودليلنا لاكتشاف الغابة سيكون مالك بن نبي الذي عاش في القاهرة بين عامي 1956-1963.

كان وصول مالك بن نبي إلى القاهرة مفاجأة سارة لأهل الفكر والسياسة في مصر. وفي هذا السياق وجه عبد الناصر مالكًا للعمل مع د عبد القادر حاتم رئيس الهيئة العامة للمعلومات. ولكن ما إن وصل مالك إلى الهيئة حتى عاد مذعورًا وهو يقول: « شممت رائحة الاستعمار في الهيئة..»!

ما الذي صادفه مالك في هيئة المعلومات حتى يصاب بالذعر؟

وجد مالك أحد الضباط النازيين الذين عملوا مع غوبلز أثناء الحرب العالمية الثانية موظفًا في الهيئة العامة للمعلومات مع د. حاتم!

وكيف وصل ضابط الدعاية النازية إلى مصر؟

مع نهاية الحرب العالمية الثانية قبض الحلفاء على كل الضباط الألمان، وبالخصوص قال أحد الأمريكان تجاوزنا لذة الانتقام إلى الاستفادة.

وللاستفادة من ضباط هتلر وخبرائه وزعتهم الاستخبارات الأمريكية على الأنظمة الدكتاتورية الصديقة للولايات المتحدة، في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية. كان نصيب مصر من الخبراء الألمان بعض خبراء الصواريخ (ظافر وقاهر) وبعض خبراء الدس والكذب ومنهم ذاك الضابط النازي الذي صادفه بن نبي في الهيئة العامة للمعلومات.

ولم يكن الضباط الألمان وحدهم في معية «الضباط الأحرار» في مصر، بل كان هناك ضباط الـ «سي آي أى» كذلك، وأشهرهم مايلز كوبلاند صاحب كتاب «لعبة الأمم». الصحفي والمؤرخ الإنجليزي كيث كايل، صاحب كتاب «السويس»، يؤكد أن الضباط الألمان كانوا هدية من المخابرات الأمريكية، ويقول إن مايلز كوبلاند -الذي كان معه فريقان؛ واحد لفبركة بروباغاندا مضادة للولايات المتحدة، والثاني لتصور الانقلابات الممكنة ضد ناصر وكيفية التعامل معها- كان مسئولًا عن بعض الملفات في وزارة الداخلية المصرية. وكانت وزارة الداخلية من المهام التي تقلدها عبد الناصر.

وقد تكون «مسرحية المنشية» إحدى منجزات مايلز كوبلاند وفريقه. المسرحية ضربت عصفورين بحجر؛ أنقذت شعبية ناصر والضباط من الانهيار، وقضت على الاخوان المسلمين. القضاء على الإخوان المسلمين أعطى إسرائيل فسحة زمنية تحولت فيها إلى دولة عظمى تذل العرب في بضع ساعات. كان بالإمكان حسابيًا أن تقوم حركة المقاومة الإسلامية سنة 1947، ولكنها تأخرت حتى 1987، بفعل تصفية الإخوان سنة 54.

قد يعتقد الغافل أن الحقد الذي يغلي في صدور الشيعة والسنة مجرد مصادفة، وأن الحقد الذي يغلي في صدور الأتراك والأكراد مجرد جهل، أو أن الحقد الذي يغلي في صدور العرب والبربر مجرد سوء حظ. والحقيقة ليست

شيئًا من ذلك. ما نشاهده اليوم هو اشتغال الأمة المسلمة بتمزيق نفسها بنفسها، بينما يراقب صاحب المصلحة المشهد في حبور، ولا يخفي استمتاعه بمشاهدة عدوه الذي أعماه الحقد يقوم بعملية تدمير ذاتي بفضل حرب لا يراها أحد ولا يشعر بها ضحاياها. إنها الحرب النفسية!

الخطة فشلت!

إقناع الأمة المسلمة بالتخلي عن الجهاد والاكتفاء بأخلاق وسلوك العبيد هي الخطة التي فشلت، ففي ظرف ستة أشهر تصدت حماس بفعالية للصهاينة في فلسطين، وأتمت طالبان طرد الأمريكان من أفغانستان بعد عشرين سنة من الاحتلال. وما حصل يدعو كل الأطراف ـ في الداخل والخارج ـ إلى مراجعة حساباتها بخصوص خياراتها الاستراتيجية.

هناك الآن خياران متوازيان لضمان استقرار المنطقة، وترتيب كيفية وصول الإسلاميين إلى السلطة أو المشاركة فيها بصورة تضمن الاستقرار أو تذهب به. والخياران هما: 1) الديمقراطية، و2) الجهاد.

أولاً- الرهان على الديمقراطية.

وهذا هو رهان الأتراك والتونسيين، فإذا سقطت الديمقراطية في تونس أو في تركيا، فإن جماهير المسلمين قد تلجأ إلى خيار الجهاد هو الحل. وحيث جرت محاولة لقلب نظام الحكم في تركيا، ومحاولات لذبح الديمقراطية في تونس كما ذبحت في مصر، فقد أصبح من مصلحة الولايات المتحدة وأوروبا الحفاظ على الديمقراطية في تونس تفاديًا للخيار الثاني (الجهاد). وتونس ليست بحجم الصين، ولكن اشتعالها قد يكون الشرارة التي تشعل الشمال آلافريقي كله.

في بداية القرن الماضي وعندما احتلت إيطاليا ليبيا (سنة 1911) كتب لويس ماسنيون لصديقه إلياس ماري الكرملي في بغداد يقول إن تصرف إيطاليا يمثل الغدر والرعونة في ذات الوقت، لكن يبرره عاملان؛ أولهما مصلحة أوربا والمسيحية، وثانيهما أن الاوضاع في تونس والقاهرة ستنفجر إن انسحبت إيطاليا من ليبيا. ارتباط مصير الشمال الإفريقي معروف لدى العدو قبل مائة سنة مما سمي «الربيع العربي»!

ولا ينبغي أن ننسى أن فرنسا قد سبقت أمريكا بالرحيل عن بعض أفريقيا التي كانت تكلفها مليوني يورو يوميًا، فإذا اشتعلت تونس قد تشتعل وراءها أفريقيا بقضها وقضيضها!

ثانيًا- الجهاد هو الحل؟

الاعتراف بطالبان «الإرهابية» وسحق النهضة «الديمقراطية» قد يقنع المسلمين بأن الجهاد هو الحل وليس الديمقراطية!

لكن كيف ومتى ترك المسلمون الجهاد رسميًا؟

مع نهايات الحرب العالمية الأولى دخلت فكرة «الحق في تقرير المصير» دائرة المعرفة العربية فكان لها مفعولان سلبيان: الأول إدخال فكرة الحقوق بديلاً عن الواجبات إلى دائرة اللاوعي العربي، فسقط بذلك الجهاد كواجب على المسلمين. والثاني اعتبار تحقيق استقلال الدول العربية من مهام الولايات المتحدة التي وضع رئيسها ويلسون «الحق في تقرير المصير» ضمن نقاطه الأربعة عشر سنة 1917.

وفيما بعد اعتبر العرب أن بناء دولة للفلسطينيين من مهام الولايات المتحدة، ليتخلوا بذلك عن الكفاح المسلح ومعتمدين أخلاق العبيد سبيلاً

لتحرير مبنى خيمة لياسر عرفات. وبعد أربعين سنة من أخلاق وسلوك العبيد اتضح للفلسطينيين أن حماس والجهاد هما الحل. والخشية كل الخشية من أن تنتشر هذه القناعة لدى المسلمين ولاسيما إذا سقطت الديمقراطية وانكشف زيف اللعبة للغافلين والمغفلين.

لقد كان قصف حماس للعمق الإسرائيلي وتأهب حزب الله في لبنان للمواجهة مما جعل الولايات المتحدة تحرك قواتها من أفغانستان والخليج إلى الأردن لتكون جاهزة لإطفاء الكيان الكرتوني إذا وصله الحريق.

خصائص الظاهرة التركيـة

تبدو البلبلة الفكرية التي يعيشها المسلم في أوضح معالمها عندما يتعلق الأمر بتركيا ومواقف الحكومة التركية مما يجري في بلاد المسلمين. وفيما يلي من فقرات جملة من الحقائق التي من شأن الكشف عنها مساعدة المسلم على فهم خصائص الظاهرة التركية!

الحقيقة الأولى: تركيا دولة علمانية.

قديمًا كانت العلمانية تعرف على أنها الفصل بين الدين والسياسة! وهذا التعريف لم يصادف قبولاً لدى المسلمين الحقيقيين، وهو ما اقتضى تغييره، فأصبح تعريف العلمانية هو أن «الدولة تقف على مسافة واحدة من الجميع»! وهذا التعريف يؤدي إلى ذات النتيجة «الفصل بين الدين والسياسة»، ولكن مزيته أنه لا يصدم شعور عامة المسلمين، بل يحول الغافلين منهم إلى مغفلين!

كيف ذلك؟

الغافل يعتقد أن وقوف الدولة على مسافة واحدة من الجميع معناه الوقوف على مسافة واحدة بين مشجعي نوادي كرة القدم، أو الأحزاب السياسية في الانتخابات، أو بين التجار والسلطات الضريبة عند جباية

الضرائب ... إلخ. لكن المقصود ليس هذا، ولا هذا هو الحاصل نتيجةً لوقوف الدولة على مسافة واحدة من الجميع.

الدولة تقف على مسافة واحدة بين الجميع معناه أن «الدولة» تقف على مسافة واحدة بين بيوت العبادة وبيوت الدعارة، أو على مسافة واحدة بين كتاتيب تعليم القرآن ونوادي القمار... وهكذا! وبالرغم من عدم وجود شخص اسمه الدولة، إلا أني سأقبل التسمية جدلاً، ولأقول إن «بين الجميع أو من الجميع» لا تعني سوى الوقوف على مسافة واحدة بين الحق والباطل! فهل يجوز أن يكون هذا الموقف هو موقف المسلم اليوم؟!

في الدولة العلمانية يكتفي الموظف (=الدولة) بفحص ملف المتقدم لطلب فتح بيت عبادة والمتقدم بطلب فتح بيت دعارة بنفس الحياد، ويقتصر دوره على فحص ما إذا كانت مفردات الملف مستوفية للشروط التي وضعتها الدولة التي تقف على مسافة واحدة من الجميع، وتكتفي بتنظيم الانشطة بقوانين ولوائح دون تفرقة بين العبادة والدعارة.

في الدولة العلمانية الفصل ليس بين السياسة والأخلاق فقط وإنما بين القانون والأخلاق كذلك! الذي فصل بين السياسة والأخلاق نظريًا هو مكيافيللي، وهذه معلومات عامة تقريبًا. أما الذي فصل بين القانون والاخلاق ولا يحوز شهرة مكيافيللي فهو الفقيه النمساوي هانز كيلسن صاحب كتاب «النظرية الخالصة للقانون». ومعنى «نظرية خالصة» عنده أن القانون الوضعي بريء، في نظره، من «القانون الطبيعي» و«الأخلاق». ولذا يعد ذهاب الفرد إلى بيت عبادة أو إلى بيت دعارة قضية من القضايا الشخصية التي لا تهم القانون الوضعي.[1]

(1) هاجر هانس كيلسن إلى الولايات المتحدة سنة 1940، تاركًا وراءه أوربا التي لم تتسامح معه ومع اطروحاته.

بيوت الدعارة ونوادي القمار وحانات الخمور تحظى في تركيا بذات الحماية القانونية التي تحظى بها المدارس والكتاتيب وبيوت العبادة. هذا هو معنى «الدولة تقف على مسافة واحدة من الجميع»! ولكن هل تُركت الحكومة التركية لحالها لتواصل جهودها التنموية في الحقلين الاجتماعي والاقتصادي؟

الإجابة: لا، والسبب هو أن الحكومة في تركيا مسلمة، ولهذا السبب عليها أن تفشل، وإن لم تفشل فلا بد من إفشالها، حتى تثبت الفرضية الفرنسية.

الحقيقة الثانية: حكومة تركيا مسلمة.

تظهر على تركيا معالم الجاهلية (بيوت الدعارة ونوادي القمار والتعامل الربوي... إلخ)، ولكنها جاهلية ديمقراطية، وليست جاهلية طغيانية-طاغوتية مثل الجاهلية الأولى أو جاهلية حكم العسكر، ولذا استطاع الأتراك اختيار حكومة مسلمة عبر صندوق الاقتراع.

الحكومة التركية حكومة مسلمة في أوضاع جاهلية. وأكاد أجزم أن نجاح الحكومة التركية المسلمة هو أحد نتائج استقرائها السليم، ليس للواقع التركي وحسب بل للواقع العالمي في مجمله. فالنظام العالمي اليوم ينظر إلى أردوغان ذات النظرة التي نظرها فرعون إلى موسى قبل خمسة آلاف سنة- أردوغان مفسد على طريقة موسى، والنظام العالمي على دين فرعون (طاغوتي)!

ما أفسده أردوغان هو ما سميته الفرضية الفرنسية القائمة على أن «أفضل خدمة تقدم للمسلم هي تحريره من دينه...»! هذه الفرضية التي كان الاتراك أول من اعتنقها (ولاسيما أيام أتاتورك) جاء اليوم الذي أصبح فيه الاتراك أكبر تهديد لها (في عهد أردوغان)!

والأتراك ليسوا تهديدًا للفرضية الفرنسية بقدر ما هم تهديد للنظام العالمي الراغب في الإبقاء على الإسلام عبادةً وإلغائه شريعةً، حتى يتساوى المسلم وغير المسلم في أكل الربا الذي أصبح تجارة، والزنا الذي أصبح حرية، والسخرية من محمد وما انزل على محمد الذي أصبح رأيًا أو فنًا وإبداعًا!

الغفلة عن تعقيدات هذه الحقائق يجعل المسلمين ينقسمون إلى فريقين يجمع بينهما الخطأ في تقدير الموقف التركي. الفريق الأول يعتقد أن أردوغان هو الصورة المعاصرة للسلطان العثماني. ولا يرجو أن يكون ذلك الحلم حقيقة كما ارجوه أنا، لكن أردوغان ليس ذاك السلطان في الواقع. الفريق الثاني يعتقد أن أردوغان يمثل مشروعًا جديدًا للاحتلال التركي القديم، وهذا الفريق يجعل تاريخ المنطقة بمجمله احتلال وإعادة احتلال، والحقيقة على خلاف ذلك. وبذلك يكون ما اعتقده الفريقان خطأ، وعلى التفصيل التالي.

أولاً. الاتراك مسلمون وغير مسلمين انتخبوا أردوغان وحزبه لخدمة تركيا، فالشعب التركي هو من انتخب أردوغان، وهو من يراقبه، وهو من يستطيع خلعه، فالحكومة الإسلامية في تركيا تعتمد على رضى الشعب التركي، الذي يعول على أدائها الاقتصادي أكثر من تعويله على هويتها الإسلامية.

صحيح أن أردوغان والمسلمين في تركيا يتعاطفون مع القضايا الإسلامية وعلى رأسها قضية القدس، وقد دفع الأتراك -وغيرهم من المتعاطفين- ثمنًا باهضًا عندما حاولوا كسر الحصار على غزة، ولكن عندما تتعارض مصالح تركيا مع مصالح دولة أخرى -إسلامية أو غير إسلامية- فإن الحكومة المسلمة في تركيا لا خيار لها إلا المصلحة التركية لأنها تحوز أغلبية برلمانية على هذا الأساس وبقاؤها في السلطة معتمد على احترام هذه القاعدة.

ثانيًا. في الاعتقاد أن الأتراك قوى احتلال إلغاء لمجمل التاريخي الإسلامي،

والحضارة الإسلامية، لأن مقتضاه جعل الإسلام احتلالاً أمويًا وعباسيًا وعربيًا وعثمانيًا ...إلخ. وقد عمل الاستشراق على هذه الفرضية لتبرير الاستعمار. وفي سبيل ذلك صور المنطقة على أنها فراغ مفتوح للاستعمار طوال تاريخها. ولتسويق هذه الفرضية غلفها بمقولة «ثلاثة آلاف سنة حضارة»، أي حضارة غازية تخلفها حضارة غازية.

وقد تبنت القوميات غير العربية هذه الفرضية فالقوميون الأتراك والأكراد والفرس والأمازيغ يعتبرون الإسلام والحضارة الإسلامية احتلال عربي. هذه الفرضية، التي تسوقها فرنسا بقوة وتمولها بسخاء، هي الوجه الآخر لاعتبار العثمانيين احتلالًا تركيًا. الغافل يتحول إلى مغفل بتصديق هذا النوع من التدليس: غير العرب يعتبرون الإسلام احتلالاً/استعمارًا عربيًا والعرب يعتبرون العثمانيين احتلالاً/استعمارًا عثمانيًا أو تركيًا. هذه هي الغفلة التي تحول المسلم إلى مغفل.

في ضوء ما سلف من تعقيدات لا يمكن للعرب والعجم تجاهل الظاهرة التركية، ولكن تقليدها ليس تذكر ة نجاح لغيرها خارج تركيا، فقد قلد بعض العرب تجربة «تركيا الفتاة»، قبل قرن من الزمان، فلم تعد عليهم بأي نفع. والبعض يعتقد اليوم أن الفلاح والنجاح في تقليد تجربة الحكومة الإسلامية في تركيا العلمانية، وتقليد التجربة التركية غير مضمون النتائج.

الحقيقة الثالثة: صراع الإسلام والجاهلية الثانية.

كيف للدولة أن تأذن بالزنا والربا وشرب الخمر إلا أن تكون إلهًا مع الله؟ هذا هو وضع الدولة في الجاهلية الثانية: صنم فكري يأذن بما لم يأذن به الله[1]! وهذا يوصلنا للحقيقة الثالثة في الحقائق التركية وهي التناقض الحاد

(1) يصدر تراخيص لبيوت الدعارة، ونوادي القمار، ومصارف الربا، ويجبي ضرائب عن عوائد الفسوق والعصيان.

بين تصور النخبة المسلمة للعالم والعلاقات السائدة فيه وموقف الجاهلية الثانية من الإسلام والنخبة المسلمة في تركيا.

التناقض بين طرفي الصراع لا يخفف من حدته شيء سوى أن الجاهلية التركية جاهلية ديمقراطية، تختلف عن بقية الجاهليات الطغيانية-الطاغوتية التي لا تقبل بأقل من سحق «الإسلام السياسي»، وترك الإسلام التعبدي، ليكون نسخة إسلامية من المسيحية التي إن أمرت بمعروف فلن تنهى عن منكر. هذه هي الحقيقة؛ الصراع في جوهره بين النخبة المسلمة والجاهلية الثانية في تركيا والعالم.

جاء في الحديث الشريف «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ... أولها الحكم وآخرها الصلاة». المسافة الزمنية بين انتقاض العروة الأولى (الحكم) وانتقاض العروة الأخيرة (الصلاة) ألف وثلاثمائة سنة. انتقضت العروة الأولى بتوريث معاوية الحكم لابنه يزيد، فكان معاوية بذلك آخر الخلفاء وأول الملوك، وكان يزيد أول من ورث الملك العضوض. وانتقضت العروة الأخيرة بتولي مصطفى كمال اتاتورك مقاليد الأمور في تركيا وإلغائه الآذان وقراءة القرآن بالعربية، ثم نبذ العمل بأحكام الشريعة والاعتماد على التشريع الوضعي، المستنسخ على الأنموذج الأوربي.

ومن ثمَّ انتقضت آخر عرى الإسلام وعادت الجاهلية، ليزول سلطان الإسلام رسميًا، وتأذن الدولة-الإله بما لم يأذن به الله (الزنا والربا والخمر والقمار). وبذا بات الإسلام غريبًا منبوذًا في عاصمة الخلافة التي جاء اتاتورك ليدق آخر مسمار في نعشها بعد أن طعنت طعنة مميتة في صفين، قبل ثلاثة عشر قرنًا.

ومثلما ظهر الإسلام في الجاهلية الأولى يظهر اليوم في الجاهلية الثانية،

وفي نفس الظروف (الاستضعاف). وتتلمس النخبة المسلمة في الجاهلية الثانية آثار النخبة المسلمة في الجاهلية الأولى بترك الجاهلية تتعفن في جهلها حتى يحين أجلها، لأن الاصطدام بالجاهلية من أول يوم مهلكة للدعوة وأصحابها. ولذا لا بد من دراسة المهمل من السيرة، وهو المرحلة الانتقالية من الجاهلية إلى الإسلام، التي دامت ما بين الجهر بالدعوة في عامها الثالث ونزول سورة براءة في السنة التاسعة للهجرة، وهذه هي المرحلة الانتقالية من الجاهلية إلى الإسلام، أو من «الدعوة» إلى «الدولة» في عصر «الإسلام الأول».

ومثلما سمح نظام العصبيات العربية -والقرشية تحديدًا- للرسول والصحابة بالبقاء في مكة، سمحت الديمقراطية للنخبة الإسلامية الناشئة في تركيا بالبقاء في الجمهورية التركية. العصبية غير الديمقراطية إلا أنهما كانا النظامين اللذين قادا إلى نتيجة واحدة في الجاهليتين: عدم إبادة النخبة المسلمة!

الفصل بين الدين والدنيا

الفصل بين الدين والدنيا معروف عند المسلمين وعند غير المسلمين، غير أن المسلمين عالجوا هذا الفصل بفاعلية لا توجد عند غيرهم للسبب الآتي: الفصل بين الدين والدنيا عند المسلمين يتم في فضاء ليس فيه إله إلا الله؛ ويتم عند غير المسلمين في فضاء متعدد الآلهة.[1] ومن هنا كان الاختلاف، والبون الشاسع، بين المسلمين وغير المسلمين على مستويي النظر والممارسة.

أولاً. الفصل بين الدين والدنيا عند المسلمين.

الإسلام منهج تفكير أولاً ومنهج تشريع ثانيًا؛ ومن هنا يكون البدء بالتشريع قبل التفكير إضاعة للوقت والجهد، لأن محاولة التشريع إسلاميًا (دون التفكير إسلاميًا) ستضيع في بلبلة أحد تجلياتها التعامل مع الشريعة بمنطق القانون الوضعي. ويزيد الأمور تعقيدًا محاولة الاسترشاد أو الاستشهاد بتجارب تمت في عالم تعدد الآلهة، ولا تليق أبدًا بقوم لا يجعلون مع الله إله

(1). ما زلنا نتجاهل أن أم الحضارة الغربية (أوربا) ما زالت فضاءً شاسعًا لتعدد الآلهة، وبعولمة القيم الغربية أصبح النظام العالمي نظامًا متعدد الآلهة! وقد استشهد الدكتور الهادي بوحمرة بأن الدستور الإيرلندي ينص على أن «الثالوث المقدس مصدر السلطات»! وأنا لا أشك في سلامة قصد الدكتور بوحمرة، لكن السؤال الذي لا بد أن يطرح: هل المثال والدستور الإيرلندي ينفعان للمحاجة في بلاد المسلمين لو أن فكرنا لم يتلوث بنفايات الأفكار الأوربية التي تأسس عليها النظام العالمي؟!

آخر. ولذا وجب إعادة الأمور إلى نصابها بتحديد الفصل بين الدين والدنيا في منهج التفكير الإسلامي (المفقود).

والمقصود بالمنهج الإسلامي في التفكير هو منهج الرسول ﷺ باعتباره الشارع ـأو المشرع بلغة الحاضرـ لشؤون الدين والدنيا.[1] وانطلاقًا من منهج الشارع في التفكير سألقي بعض الضوء على نظام الشريعة العام الذي يضبط العبادات (وهي الدين) والمعاملات (وهي الدنيا).

1. منهج الشارع في التفكير.

مشهور عن النبي ﷺ حديث «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»، وإذا كانت بضدها تُعرف الأشياء فمعنى الحديث من باب المخالفة يمكن أن يكون «أنا أعلم بشؤون دينكم»، وعندها سيكون الحديث في صورة: أنا أعلم بشؤون دينكم وأنتم أعلم بشؤون دنياكم. وتصوري هذا لا غاية له إلا تثبيت التصور الإسلامي للفصل بين الدين والدنيا، وتحديد من هو الأعلم بهذا أو ذاك. وبذا يكون من الضروري التمييز بين تصرفات النبي ﷺ الدينية والدنيوية، حتى يتبين الرشد من الغي في باب الدين/العبادات والدنيا/المعاملات.[2]

أ) النبي المرسل. وفي هذا الميدان يتصرف الرسول ﷺ باعتباره المبلغ عن ربه، المبين لرسالته وهي القرآن، الذي تليه -على مستوى التشريع- السنة التي تخصص العام وتفّصل المجمل. ومن مشمولات التبليغ آلافتاء؛ ويقصد به

(1) لا ينبغي أن ننسى قوله ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي». وبذا يكون الخلفاء الراشدون المثال الذي يحتذى في التفكير والاجتهاد على منهاج النبوة.

(2). اعتمدت في التقسيم على كتاب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور «مقاصد الشريعة الإسلامية»، الذي اعتمد فيه تقسيمات القرافي لأعمال النبي وتصرفاته كما جاءت في كتابه «الفروق..». لغة الشيخ الطاهر بن عاشور في غاية الصعوبة، ولذا لم استشهد بها بشكل مباشر، واستعضت عن ذلك بصياغة ميسرة من عندي دون الخروج عن النص معنىً وروحًا.

الإجابة عن كل سؤال في شؤون الدين من عبادات أو معاملات. وفي مثل هذه الحالات كلها يكون إفتاء الرسول ﷺ تشريعًا للمسلمين.

ب) النبي القاضي. وهو الذي يفصل في الخصومات بين المسلمين، والخصومات بينهم وبين غيرهم من سكان المدينة (أهل الكتاب والمشركين). وهنا يقوم النبي بما يقوم به القاضي من سماع الشهادة وحلف اليمين، وعرض الصلح، وإمضاء ما اتفق عليه الخصوم، وإبطال ما كان مخالفًا للشريعة (النظام العام) من الاتفاقيات والممارسات. ومن القواعد الإجرائية التي قررها الرسول ﷺ في هذا الباب «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»!

ج) النبي الإمام. ويسمى الآن الحاكم (أو الحكومة)، وبهذا الوصف تكون تصرفاته سياسية، وتشمل كل ما يتعلق بأمور الحرب والسلم وجباية الأموال وإنفاقها. وتصرفاته ﷺ في هذا الباب اجتهادية، وفي حدود مالم ينزل فيه وحي؛ ولذا كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن بعض تصرفاته، وما إذا كانت بناءً على وحي من الله أم مجرد رأي رآه بخصوص الموقف محل السؤال؟

الوحي لا نقاش فيه، أما الرأي والحرب ففيهما نقاش ومشورة، مثلما حصل عند نزول المسلمين آبار بدر استعدادً للمعركة وتغيير الموقع تبعًا لإشارة أحد الصحابة. ولم يقاتل النبي ﷺ في بدر إلا بعد موافقة الأنصار، لأن البيعة وهي العقد الذي تأسست عليه المدينة قد نصت على أن يكون الدفاع عن الدعوة وصاحبها في المدينة وليس خارجها، فاقتضى الأمر موافقة الأنصار، وليس المهاجرين، لأن البيعة كانت مع الأنصار وليس مع المهاجرين. وقد حصل مثل ذلك بخصوص تفاوض النبي مع غطفان على أن ينسحبوا من الأحزاب التي تحاصر المدينة في مقابل ثلث ثمار المدينة لتلك السنة، وهو

ما رفضه الأنصار ﷺ، وبذلك انتهت المفاوضات إلى لا شيء، سوى ما تعلمناه من أنها كانت اجتهاد بشري سقط بشورى أهل الحل والعقد في المدينة (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ﷺ).

4. نظام الشريعة العام.

الحديث عن نظام الشريعة العام يتضمن أ) تقسيمات الشريعة من جانب و، ب) ثوابت الشريعة من الجانب الآخر.

أ) تقسيمات الشريعة. تُقسم الشريعة إلى عبادات ومعاملات. والسر في هذا التقسيم أن «الأصل في العبادات التحريم» و«الأصل في المعاملات الإباحة». القاعدتان من كليات الشريعة؛ بمعنى أن كلاً منهما حاكمة في مجالها (عبادات أو معاملات)، ولذا يقف المسلم في العبادات عند ما شُرع له، لأن الأصل فيها التحريم، بينما لا يتوقف في المعاملات إلا عند ما حُرّم عليه لأن الأصل فيها الإباحة.

ب) ثوابت الشريعة. هذه الثوابت ضمها حديث واحد يقول فيه الرسول ﷺ بلغة آمرة: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدودا فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها».

هذا الحديث يجعل الثوابت ثلاثة رابعها منطقة الاجتهاد، أو المسكوت عنه في النص، فثوابت الشريعة هي: 1) فرائض لا تُضيع، و2) حدود لا يعتدى عليها، و3) حرمات لا تُنتهك. والمنطقة الرابعة هي منطقة المسكوت عنه؛ أو بكلمات أخرى هي منطقة المعاملات، والسياسة منها، وهي منطقة الاجتهاد. وبذا تكون السياسة من المعاملات والأصل فيها الإباحة، لكن الإباحة ليست مطلقة؛ فالسياسة التي تضيّع فريضة أو تنتهك حرمة أو تتعدى حدًا تسمى

فسوقًا وعصيانًا وليس اجتهادًا، لأن الاجتهاد مقيد بثوابت الشريعة ولا يكون إلا في حدودها.

ونص الحديث من جوامع التشريع ولا بد من التوقف فيه عند عبارة إن الله -وليس أي سلطة أخرى- هو الذي فرض الفرائض وحد الحدود وحرم الحرمات. ومن جوامع التشريع كذلك أن محمدًا ﷺ عبد الله ورسوله في ذات الوقت، فهو المبلغ للشريعة وأول الخاضعين لأحكامها، فالله لا إله غيره، وشريعته تسري على كل عباده بما في ذلك الرسل.

وما كان لهذا المنجز أن يكون لو أن الجزيرة العربية بقيت فضاءً لتعدد الآلهة، لأن تعدد الآلهة هو أساس الجاهلية الأولى، وهو أساس الجاهلية الثانية (الحداثة)، غير أن أصنام الجاهلية الأولى أحجار وأصنام الجاهلية الثانية أفكار. وهذا هو ما سيكون محل التفصيل الآن مع الانتقال من الفصل بين الدين والدنيا في عالم الواحد الأحد (الإسلام) إلى الفصل بينهما في عالم تعدد الآلهة (الحداثة)!

ثانيًا. الفصل بين الدين والدنيا عند غير المسلمين.

الاعتقاد بأن الدولة الأوربية «دولة مدنية» اعتقاد خاطئ، لأن الدولة إله في الفكر الأوربي (وعند هوبس وهيجل تحديدًا). ما زالت أوربا فضاءً لتعدد الآلهة مثلما كانت أيام الإغريق والرومان. كل ما تغير وتطور في أوربا هو نوع الأصنام التي تُنحت الآن في عالم الفكر بدلاً عن عالم الحجر. ومن هنا كانت الدولة مجرد «صنم جديد» عند نيتشه، مجرد صنم نظري يضاف إلى عالم تعدد الآلهة (أوربا). والمشكلة من وجهة نظري ليس في تعدد الآلهة شمال المتوسط، وإنما في تبعية جنوب المتوسط لشماله في عالم الأفكار، بما في ذلك فكرة الدولة-الإله!

1. أوربا فضاء متعدد الآلهة.

بين الحضارة الإغريقية والنهضة الأوربية تاريخ طويل (ألفي سنة) سأوجزه تبيانًا لصنمية الدولة الأوربية. الألفا سنة محل الإيجاز تبدأ بتأليه المسيح وتنتهي بتأليه الدولة، مرورًا بآلهة أخرى انتجها اللاهوت السياسي في أوربا.

أ) المسيح الإله. المسيح بن مريم عليه السلام بشر عند المسلمين، وإله عند المسيحيين. ولا يقف الأمر عند هذا الحد فالمسيح له في الميثولوجيا المسيحية جسدان؛ الأول هو جسده الإنساني، والثاني هو جسده الروحاني.[1] جسد المسيح الروحاني هو الكنيسة باعتبارها الهيكل الذي يقيم فيه الروح القدس. وفي هذا الباب جاء في رسالة بولس إلى كورنثوس: «أما تعلمون أنكم هيكل الله، وروح الله يسكن فيكم، ومن يفسد هيكل الله يفسده الله، لأن هيكل الله، الذي هو أنتم، مقدس»!

والاجراء التأسيسي لهذا الهيكل اسمه «التعميد» الذي يقوم على غمر المعمّد في الماء وإخراجه منه باسم الأب والابن والروح القدس؛ ففي رسالته للرومان يقول بولس: «هل تجهلون أننا نحن الذين تم تعميدنا في عيسى المسيح أننا في موته قد تعمّدنا؟ لقد ضمنا التعميد إلى موته حتى نقوم مثل المسيح بمجد الرب، وبالمثل نسير نحن كذلك في حياة جديدة»! «لقد تم تعميدنا جميعاً لنكون جسدًا واحدًا.. لقد ضمنا جميعًا روحاً واحدًا»!

هذا الجسد الواحد (الروحاني) هو الكنيسة، وعلى رأس الكنيسة البابا، بصفته خليفة بطرس، الذي قال له المسيح-الإله: «سأعطيك مفاتيح مملكة السماء؛ فمهما تعقد في الأرض فهو معقود في السماء، ومهما تحل في الأرض

(1). في اللاتينية (Corps mysticum).

فهو محلول في السماء». وفي هذا السياق تساءل أحد الباباوات: «أيعجز من يملك مفاتيح مملكة السماء عن أن يسوي مشاكل الأرض؟».

الكنيسة هي جسد المسيح-الإله الذي يتوحد فيه المسيحيون، وهي الهيكل الذي يقيم فيه الروح القدس، وبذا تكون الكنيسة الصنم القديم الذي جاءت الدولة لتحل محله بصفتها الصنم الجديد. الانتقال من الكنيسة (الجسد الروحاني) إلى الدولة (الجسد السياسي) يمر عبر «الوطن» باعتباره (في لاهوت السياسية الأوربية) الجسد الثاني للملك[1]، مثلما كانت الكنيسة الجسد الثاني للمسيح.

ب) الملك الإله. وللملك بهذه الصفة جسدان. ويحمل هذه الصفة كتاب عنوانه «الملك له جسدان» ومؤلفه هو أرنست كانتوروفيتش[2] سنة 1957، وفيه يدرس المؤلف اللاهوت السياسي في أوربا العصر الوسيط. في تلك الحقبة كان لقب الملك يتحول من «صاحب السمو» إلى «صاحب الجلالة». وهذا الأمر كثير الشبه بفرعون وهو ينتقل من الربوبية العليا (أنا ربكم الأعلى) إلى وحدانية الألوهية (ما علمت لكم من إله غيري)! فالملك له جسد يمرض ويضعف هو جسده البشري، وله جسد سياسي لا يفنى ولا يعتريه الضعف وهو المملكة أو الوطن، ومن هنا كلما مات الملك سمع أهل مملكته صيحة «مات الملك.. عاش الملك»، للتأكيد على أن موت الملك لا يعني موت المَلَكية التي تنتقل للوريث سليمة من كل عيب ومعافاة من كل مرض. في ذلك العصر شرّعت الكنيسة عبادة جديدة قوامها «الموت في سبيل الوطن» Pro Patria Mori!

(1). The King's Two Bodies: (A Study in Mediaeval Political Theology) Princeton University press, 1957

(2). ارنست كانتورفيتش (E. Kantorowicz) صاحب كتاب «الملك له جسدان» من اليهود الذين فروا من ألمانيا إلى الولايات المتحدة في ثلاثينيات القرن الماضي.

ومثلما كانت الكنيسة «جسد المسيح الروحاني» Le corps mystique du Christe في اللاهوت المسيحي القديم، أصبح «الوطن» هو الآخر «الجسد السياسي» ولكن للملك الإله وليس للمسيح الإله. وبذلك تحول اللاهوت الديني إلى لاهوت سياسي في أوربا العصر الوسيط. ومع النهضة بدأ هوبس التنظير لإله جديد اسمه «الدولة»، ليكون مصدرًا بديلاً للمشروعية التي كانت الكنيسة مصدرها حتى ذلك الحين.

ج) الدولة الإله. مع الحداثة أصبحت الدولة مصدرًا للمشروعية التي كانت الكنيسة مصدرها قبل ذلك. وحيث لا يكون مصدر المشروعية إلا إلهًا أخفى مفكرو أوربا ألوهية الدولة[1]، ولم يعلنوها على الملاء، بل دسوها دسًا في كتاباتهم بحيث لا يطلع عليها إلا باحث مدقق من نوع فريدريش نيتشه (1844 - 1900).[2]

صاحب نظرية الدولة توماس هوبس (1588 - 1678) كتب في مؤلفه «ليفايثان» ماترجمته: «الدولة هي الإله الفاني[3] الذي يوفر لنا السلام والحماية في ظل الإله الباقي»[4]! إله هوبس يتكون بالعقد الاجتماعي وتقتله الحرب الأهلية، أما هيجل (1770 - 1831) فيقول دعك من «العقد الاجتماعي» القائم على الإرادة الاعتباطية للأفراد، وتأمل الدولة مجردة عن كل مظهر! الدولة هي «العقل الذي يحقق ذاته كإرادة... هذا الإله المتحقق بذاته في الواقع..»![5]

(1). بالمناسبة؛ الدولة في اللاتينية اسم علم مذكر L'Etat.

(2) . الحضارة الأوربية-الغربية حضارة سرية/مشفرة حتى اليوم، وإن اعتقدنا خلاف ذلك.

(3) . Mortal god

(4) . Immortal god

(5). هيجل من الذين يجعلون من العقل إلهًا. هذا الإله يأخذ صورة الدولة، فإرادتها من إرادته أو هي إرادته التي تظهر في «التاريخ» الذي منتهي تطوره «الدولة الليبرالية» وهذه الأخيرة هي «نهاية التاريخ» أي نهاية التطور البشري! وهذه الفروع كلها من أصل واحد: (فكرة وحدة الوجود).

بعد هيجل جاء نيتشه وأفرد لنقد فكرة الدولة فصلاً في كتابه «هكذا تحدث زرادشت». وليس مصادفة أن يكون العنوان الذي اختاره الناقد الألماني لهذا الفصل هو «الصنم الجديد»! وتسخيفًا لمن يأخذ رأي هوبس وهيجل قال نيتشه: «سيعطيكم كل شيء.. إذا عبدتموه.. الصنم الجديد»! وفي هذا السياق ليست مصادفة أيضًا أن يقرر نيتشه أن منهجه هو «التفلسف بالمطرقة»، لأن أصنام الفكر الأوربي التي تجد جذورها في «مُثل افلاطون» لا يمكن علاجها بغير المطرقة!

2. الدين والدولة في عالم متنازع الآلهة!

في فرنسا سويَّ هذا النزاع بجعل الدولة إله الدنيا، والكنيسة إله الدين. لكن هذا الحل الفرنسي لا أثر له في بريطانيا حيث الملك/الملكة هو رأس الدولة والكنيسة معًا منذ سنة 1534. والحل في الولايات المتحدة الأمريكية مختلف عن الحلين البريطاني والفرنسي، إذ حرّم الدستور الأمريكي على الكونغرس التدخل في الشأن الديني وانتهى الأمر.

من يعبد الله الذي لا إله غيره غير معني بحلول لنزاعات عالم تعدد الآلهة، لكننا مرضى بالتجربة الفرنسية، ولا نعتقد أن هناك حل لمشاكلنا المزمنة إلا فيها. ويبدو هذا واضحًا في التجربة التونسية، ولاسيما عند أستاذ القانون الدستوري عياض بن عاشور، الذي يصف الحداثة في تونس بالقول: «... تحول التركيب الدستوري من منوال دولة الإسلام إلى منوال إسلام الدولة، وشتان ما بينهما. وهذا المنوال يعني في حقيقته: لا دين فوق الدولة، بينما يعني الأول: لا دولة فوق الدين».[1]

(1). عياض بن عاشور، الضمير والتشريع: العقلية المدنية والحقوق الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1998. ص 96

الدولة فوق الدين من مقتضيات الوهية الدولة، وقد انتقلت إلينا الفكرة الأوربية بهذه الصفة دون أن نعي ذلك، فالدولة في تونس مثلاً تحل ما حرم الله (الربا والزنا والقمار وشرب الخمر)، وتحرم الحلال، بل تحرم الواجب (الصلاة في المساجد، وحجاب المرأة، وإنشاء صناديق لجمع الزكاة وتوزيعها، أو إنشاء أحزاب إسلامية).

هذا هو معنى أن تكون الدولة إلهًا: أن يحدد بورقيبة باسمها المشروع وغير المشروع سيرًا على النهج الفرنسي. الدولة-الإله هي الدولة التي تلغي «لا إله إلا الله» التي معناها القانوني لا مصدر للمشروعية إلا الله. الدولة الأوربية التي يعتقد البعض أنها دولة مدنية هي إله مع الله، هي الإله الثاني، أو «الإله الفاني» حسب توصيف هوبس. وبذا يكون جوهر الحل الغربي (العلمانية) هو الفصل بين آلهة متعددة (البابا والملك، أو الكنيسة والدولة).

ومن يأتي بذاك الحل من الحضارة الغربية لمشكلة لا توجد عندنا أصلاً (تعدد الآلهة)، يخلق مشكلة جديدة لم تكن معروفة من قبل، ويزيد تخلفنا تعقيدًا من حيث يعتقد أنه يساهم في تجاوز التخلف.[1] والتعدد في باب الألوهية ناقض للإسلام الذي لن تقوم له قائمة إلا بعد نفي كل الآلهة و«الدولة» من بينها. الدولة قد تكون بلد من البلدان، وقد تكون إدارة مركزية للشأن العام على اقليم ترابي بعينه، لكنها ليست إله. هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، فلماذا بربكم الإصرار على الحل الأوربي إذا كان أصل الإشكال الأوربي غير موجود عندنا؟!

(1). لقد أدرك الشيخ راشد هذه الحقيقة الممثلة لانقلاب الوضع جنوب المتوسط عندما قال: الدولة في تونس كنيسة؛ مثل الكنيسة التي ثار عليها الناس في أوربا.

عجلة تاريخنا تدور في الفراغ!

طال استعمار الجزائر حتى اقتنع الجزائريون أن من السفاهة انتظار حل يأتي من الخارج فأنشأوا جبهة التحرير الجزائرية، وعندما اقتنع الفلسطينيون أن من السفاهة انتظار الحل الأمريكي أنشأوا حركة المقاومة الإسلامية. الجزائريون حققوا نصف استقلال عندما أخرجوا عساكر فرنسا وتركوا أفكارها تحكمهم. وحركة المقاومة الإسلامية لم تستطع تحرير أكثر من عقل المسلم الفلسطيني الذي استطاع بدوره تحرير غزة.

وللأسف مازال بعض الليبيين اليوم يعول على الحل الذي يئس منه الجزائريون والفلسطينيون بالأمس، لأن دروس التاريخ لا تنفع في الزريبة التي تركها القذافي وراءه! وفي هذا السياق للأستاذ مالك بن نبي عبارة موجزة يقول فيها من السهل تدريب قرد على لبس البدلة وربطة العنق، لكن من المستحيل تعليم إنسان كيف يفكر إذا كان جهله قد أخذ صورة/شهادة علمية!

هذا النوع من الحديث مزعج لكثير من الناس لكنه ليس جديدًا، فقد كتب مثله توفيق الحكيم بعد «عودة الوعي»، إثر هزيمة 67 وموت عبد الناصر. في ذاك الكتاب يقول الحكيم إن عبد الناصر قد «ختم على العقل المصري بسبعة أختام ولم يعد يجرؤ على رأي يخالف رأي الزعيم المعبود»!

لم يمت عبد الناصر حتى سلم الختم للقذافي ليختم به على العقل الليبي

الذي أصبح لا يحتاج أكثر من بدلة أنيقة وربطة عنق ليضع المعضلة الليبية أمام المبعوث الأممي أو الأمريكي ثم يأخذ معه صورة لتخليد ذكرى المهزلة. الليبي لم يدرك بعد أن البعثة الأممية حكومة احتلال، وأن دور السفير الأمريكي في طرابلس لا يختلف عما كان عليه دور «المبعوث السامي» البريطاني في القاهرة، أو «المقيم العام» الفرنسي في تونس، حتى الحرب العالمية الثانية.

رواسب تلك الحقبة عطلت عقل المسلم كما تعطل ذرات الغبار السلاح. وإذا أضفنا إلى نفايات الحضارة الغربية السائدة رواسب الحضارة الإسلامية البائدة نكون قد وصلنا إلى أعمق نقطة في مأساتنا المعاصرة. قديمًا قال الشيخ محمد عبده «مكثت عشر سنوات أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر»، وفي سياق آخر قسم مالك بن نبي الأفكار السلبية إلى «أفكار ميتة» و«أفكار مميتة»، شارحًا أن الأفكار الميتة تتحول إلى مميتة بالانتقال عبر الزمان أو المكان.

الفكرة الميتة التي تحولت إلى فكرة مميتة بالانتقال عبر الزمان هي فكرة «ولي الأمر المتغلب»، فهذه الفكرة الميتة كانت من أشد الأفكار المميتة وقعًا على مصير الليبيين بعد الربيع العربي. والفكرة الميتة التي تحولت إلى مميتة بانتقالها عبر المكان هي فكرة «القومية»، التي بدأت تلفظ آخر أنفاسها في أوربا مع الحرب العالمية الأولى، وعندها انتقلت إلينا فصادفت إسلامًا يعيش آخر أيامه فعجلت بالإجهاز عليه.

وبالرغم من أن فكرة ولي الأمر المتغلب وفكرة القومية من مدرستين مختلفتين، ومتناقضتين على طول الخط، إلا أنهما كانتا أفضل حليفين في مواجهة الإسلام المتوجه إلى الأمام/المستقبل، كما كانتا أفضل حليفين في إطالة عمر الإسلام المتوجه إلى الخلف طبقًا لتعليمات ولي الأمر المتغلب/المتخلف.

لحل المشكل الليبي أو العراقي أو غيرهما لا بد من عمل فكري جاد ومتواصل لثلاثين سنة. وإذا كنت تعتقد أن ثلاثين سنة مدة طويلة فتذكر أن أفغانستان خرابة منذ أربعين سنة وكذلك العراق، أما ليبيا وسوريا فهما خرابتان منذ عشر سنوات، وكذلك اليمن، بينما تنتظر الجزائر والمغرب مصيرًا مشابهًا لأن حرب التحرير التي نصح بها مالك بن نبي، وتبدأ على جبهة الأفكار، لم تنجز بعد. وبدون تحرير العقل سيظل الاستعمار يجدد نفسه ونحن سامدون.

عندما نرى بعثة الأمم المتحدة تقوم بإدارة الشأن الليبي، لا يخطر على بالنا أنها آخر صورة للاستعمار الذي ما انفك يجدد نفسه لملائمة الظروف المتجددة. وعندما نرى المبعوثة الأممية (ستيفاني وليامز) تدبر الشأن الليبي لا يخطر على بالنا أنها المندوبة السامية الأمريكية التي يرجو السياسي الليبي رضاها مثلما كان الخديوي (في مصر) يرجو رضى الانجليز، والباي (في تونس) يرجو رضى الفرنسيين!

والغريب ليس كيف يغفل الإنسان عما سلف، بل الغريب والعجيب هو بعد نظر مالك بن نبي، الذي توقع ما يجري الآن قبل قرابة الستين سنة، إذ كتب في 29/ 07/ 1963 ما نصه: «دولاب التاريخ يدور في الفراغ في سائر هذه البلاد [العربية] منذ سنين عدة وهو [ما] يبدو سمة المرحلة المقبلة»! وقد توصل بن نبي إلى هذه النتيجة باستقراء الظاهر والباطن في دور عبد الناصر، الذي كان في حينها «رجل الدولة العربية الوحيد الذي يكتب بيده التاريخ العربي ظاهرًا وتبقى اليد الخفية التي تكتب التاريخ، إنها يد الاستعمار..» حسب تعبير بن نبي!

عجلة التاريخ التي قد تدور في الفراغ حينًا، قد تدور إلى الوراء أحيانًا أخرى،

وتلك قصة أتركها لمناسبة أخرى، غير أن بإمكانكم قراءة تاريخ الأفكار واستخلاص دروسه بأنفسكم مثلما فعل ابن خلدون قديمًا ومالك بن نبي في زمننا المعاصر. فإذا تحقق ذلك عندها نصبح قادرين على استقلال حقيقي، فالاستقلال لا يكون هدية أبدًا، وإذا جاء في صورة هدية أو مساعدة فهو مجرد تجديد للمشروع الاستعماري لا أكثر. وإذا لم نقرأ التاريخ، أو اعتقدنا أن قراءته عمل غير ذي جدوى، فقد نحتاج إلى ثلاثمائة سنة وليس ثلاثين سنة لتجاوز ما نحن فيه.

صوت الفراغ

الحديث هذه المرة عن «صوت الفراغ» الذي يحدثه دوران عجلة تاريخنا! ويقتضي الأمر فكرة موجزة عن تاريخية الفراغ أولاً، ثم تحليل الصوت الصادر عن دوران عجلة تاريخنا في الفراغ ثانيًا.

أولاً. ظاهرة الفراغ.

الحرب العالمية الأولى أنهت الدولة العثمانية، والحرب العالمية الثانية أنهت الاستعمار التقليدي، ومن ثم ظهرت دويلات في غاية الهشاشة وليس بوسعها الدفاع عن نفسها، ولا سيما في مواجهة قوى من نوع الاتحاد السوفيتي أو الولايات المتحدة. ولذا ظهر ما يسمى مبدأ ايزنهاور (سنة 1957) وهو إعلان عن استعداد الولايات المتحدة الدفاع عن دول الشرق الأوسط التي ظهرت في الفراغ إذا تطلع إليها عليها الاتحاد السوفيتي وهي في الفراغ . (Power vacuum)

ظهور المبدأ سنة 1957 يعني أن المنطقة لم تصبح فراغًا إلا بعد أزمة السويس التي أنهت الوجود البريطاني-الفرنسي هناك سنة 1956. والمعنى أن خروج الاستعمار البريطاني-الفرنسي من المنطقة لم يخلق دولاً مستقلة، كما يظن ساكنة شرق المتوسط، بل خلق فراغًا استراتيجيًا، ولذا بإمكانك أن تضرب

عدد سكان الشرق الأوسط في صفر لأنهم لا يشكلون قوة (Power) قادرة على حماية ارضها ومقدراتها، التي مازالت محلاً للسلب والنهب طبقًا للقانون.

ومن بعد ظهرت في ذاك الفراغ قوتان إقليميتان (إيران وإسرائيل). تحولت إيران إلى قوة إقليمية مستقلة عن إدارة الفراغ (الولايات المتحدة) بعد الثورة الإسلامية (1979)، أما تحول إسرائيل إلى قوة إقليمية فالفضل فيه يعود إلى عبد الناصر وهزيمته المدوية سنة 1967، وهو ما سأعود إليه بعد قليل.

إيران وإسرائيل تتمددان اليوم في الفراغ (العراق وسوريا ولبنان) لكن الاعتراض يتم على تمدد إيران فقط، والغضب يتولد عن القتل الذي تمارسه أو تدعمه إيران فقط. أما التمدد الإسرائيلي والقتل الذي تمارسه إسرائيل فيتم التطبيع معه، وهذا هو منطق الفراغ الذي يتحدثه أغلب ساكنة الفراغ.

ثانيًا. صوت الفراغ.

كان «كالطبل الأجوف، صوته هائل مرعب وباطنه أجوف فارغ»! هذا هو وصف عبد الناصر في كتاب «لعبة الأمم» لمايلز كوبلاند. أما الدكتور علي عتيقة فيروي في مذكراته المعنونة «بين الإرادة والأمل» أنه كان في أمريكا لحظة هزيمة 67، وبالمناسبة اخترع الامريكان «سندوتش» حشوه لسان ولحم دجاج، وسموه «سندوتش ناصر»: اللسان رمز طول اللسان والدجاج رمز الجبن. وأضاف عتيقة أن سخرية الأمريكان من العرب حينها جعلت الحياة لا تطاق في نيويورك. وشاطر الدكتور عتيقة ذات الشعور ادوارد سعيد الذي أورد (في مقدمة كتابه «الاستشراق») إحساسه بكم المهانة والسخرية التي كان عليه وهو العربي أن يتجرعها عقب هزيمة 67.

ذكر كوبلاند أن ناصر كان يشار إليه في وثائق المخابرات والخارجية

الأمريكية بـ «موضة المستقبل». وبالفعل كان عبد الناصر موضة الفراغ في حينها، حتى ظن كل صعلوك عربي أن توجهه إلى الكلية العسكرية سيجعل منه زعيمًا مثل عبد الناصر، الذي ألهم كل الصعاليك بزعامته الموهومة وثقته الزائدة بنفسه. وفي هذا الصدد يقول مايلز كوبلاند: «ثقة ناصر الفائقة بنفسه يشعر بها كل من يقابله، وسبب ذلك أنه... قد ملأ دورًا في مسرحية كان مخرجها يفتش عن ممثل ينجح في تأدية ذاك الدور»... !

ومن المحسوبين على الثقافة والمثقفين الذين اعترفوا بالخديعة والتغرير توفيق الحكيم الذي أغمي عليه عندما دُعي لتأبين عبد الناصر عند موته سنة 1970. ولم تمض إلا برهة حتى استعاد الحكيم وعيه المفقود فكتب «عودة الوعي» سنة 1972. وفي الكتاب يحكي الحكيم قصة ضياع وعيه والمصريين بين سنتي 52 و72.

يقول الحكيم إنه اقترح عند موت عبد الناصر نصب تمثال تخليدًا لذكره فجاءته رسالة يقول صاحبها أنه يرى ذات الرأي، على أن يكون مكان التمثال «ليس في القاهرة بل في تل أبيب لأن إسرائيل لم تكن يومًا تحلم بأن تبلغ بهذه السرعة هذه القوة العسكرية ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضاري، إلا بفضل سياسة عبد الناصر!»

وبفضل سياسة عبد الناصر ومخلفاتها تتمدد إسرائيل اليوم في فراغنا بين الخليج والمحيط، والتطبيع على قدم وساق، لكن اللوم يقع على إيران فقط. إذا رفعت الولايات المتحدة يدها على محمياتها في الخليج فلن تقف إيران قبل البحر، لأن أمامها الفراغ الذي نشأ بين الحربين وبعد الحرب العالمية الثانية. وأسوء ما في هذا الفراغ هو فراغ العقول الذي تركز على صراع وهمي اسمه شيعة وسنة، ولا ترى الصراع الحقيقي بين إيران وإسرائيل.

لقد سمعت بأذني ورأيت بعيني بنيامين نتنياهو يقول كلما حدث فراغ [في العراق] ملأته إيران. إيران تتمدد في الفراغ العربي شبرًا شبرًا، وباعًا بعد ذراع، وهو ما يثير حفيظة إسرائيل التي تعتقد أنها أولى بالهيمنة على الفراغ.

ونظرًا إلى أن التاريخ يعيد نفسه، لا بد من تذكيركم بما كتبه مكتشف التشيع الصفوي، علي شريعتي، سنة 1977، عندما قال: «الحرب بين المسلمين ليست بين التشيع والتسنن، ولا من أجل العقيدة بل هي معركة بين مصالح دول ضحيتها العوام من السنة والشيعة»! بعد ثلاث سنوات اندلعت الحرب العراقية الإيرانية (1980) وكان ضحيتها مليون من عوام إيران ومليون من عوام العراق!

بعض العوام، ممن يحمل درجة دكتوراة، مازال يعتقد أن الحرب بين الشيعة والسنة، وأن الروافض اشد خطرًا من إسرائيل. هذا الفهم والموقف العدواني المبني عليه لا يخدم إلا إسرائيل، والذين يتبنونه يسهمون في المجهود الحربي الإسرائيلي وهم لا يشعرون.

مـدينـة المـلاهـي

الشعوب مثل الأفراد تمر بمرحلة الطفولة ثم النضج. ومثلما يحب الأطفال الذهاب إلى مدينة الملاهي تحب الشعوب الذهاب إلى ذات المدينة. ومدينة ملاهي الشعوب (التي لم تؤهلها نخبها لحسم الخيارات المصيرية) هي الانتخابات والاستفتاءات. وقد عرف من كان عليه تقرير مصيرنا في القرن العشرين كيف يأخذنا إلى مدينة الملاهي.

في ثلاثينيات القرن الماضي ذهب الشعبان الجزائري والعراقي إلى مدينة الملاهي في ذات الوقت تقريبًا. ومازالت التجربتان كمًا مهملاً على مستوى الدراسة والنقد، باستثناء ما جاء مختصرًا في مذكرات شاهد القرن (مالك بن نبي) بخصوص التجربة الجزائرية.

يقول بن نبي إن الضمير الجزائري بدأ يصحو في عشرينيات القرن الماضي بفعل العلماء الذين ضمتهم في النهاية «جمعية العلماء». كان من الممكن -في تصور بن نبي- أن تقود الجمعية الشعب الجزائري نحو استقلال حقيقي، لكنها لم تفعل، لغفلتها عن «الصراع الفكري»، ويقصد به بن نبي استخدام الأفكار في الصراع لأنها فعالة مثل السلاح أو أكثر! وأنا لن أعيد للقارئ قراءة ما كتبه بن نبي، وإنما سأقرأ ذات الأحداث وأقارنها بغيرها لنرى أنه بينما كانت

فرنسا تنصب مدينة ملاهٍ للجزائريين في الجزائر كانت بريطانيا تنصب أخرى للعراقيين في العراق.

في ثلاثينيات القرن الماضي ظهرت جمعية العلماء بشعارها «لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»، لكن فرنسا كانت أكثر خبرة بعلم نفس الشعوب، وبذا استطاعت تغيير نفسية الشعب الجزائري بأسرع مما كانت تحققه الجمعية. كانت جمعية العلماء تتحدث لغة الواجبات فأدخل التعليم الفرنسي لغة الحقوق في الصراع، ولما كانت المطالبة بالحقوق أيسر من القيام بالواجبات لم يكتشف الجزائريون الفخ، وانطلقوا يطلبون حقوقهم مهملين واجباتهم.

نظمت فرنسا انتخابات جزائرية لينتخب الجزائريون ممثليهم، ولما كانت الانتخابات لعبة الصادق والكاذب على السواء، ويدخلها رجل الدولة والمهرج دون قيد أو شرط، فقد انتخب الجزائريون لقيادتهم شخصًا غير مؤهل للقيادة من خارج الجمعية، وكانت مزيته الوحيدة أنه يتحدث الفرنسية (طبيب).

دخل الجزائريون مدينة الملاهي فانتخبوا من يتحدث مع فرنسا باسمهم من غير الجمعية التي أحيت مواتهم، وبذاك الانتخاب فصل الرأس (جمعية العلماء) عن الجسد (الشعب الجزائري). وقد انتقد مالك بن نبي الجمعية لعدم جمعها بين صرامة الإرادة وحدة المزاج عندما كانت القيادة ـ لم تكن من النوع الذي ظهر في غزة سنة 2006.

كانت الانتخابات الجزائرية جولة سريعة في مدينة الملاهي، فقدت جمعية العلماء على إثرها موقعها في مقدمة المجتمع الجزائري، بل أصبحت متهمة -زورًا وبهتانًا- بقتل مفتي الجزائر، ليتبرأ منها على رؤوس الأشهاد الزعيم الذي

قدمته وزكته لقيادة النواب الجزائريين. وبعد تلك الجولة في مدينة الملاهي كان على الجزائر انتظار ثلاثين سنة أخرى للتفكير في عمل جدي من جديد.

وبينما كان الجزائريون يتفسحون في مدينة الانتخابات كان العراقيون يتفسحون في مدينة الاستفتاءات. لقد أراد الانجليز تنصيب فيصل بن الشريف حسين ملكًا على العراق بعد أن طردته فرنسا من سوريا التي نُصّب ملكًا عليها بعد الحرب العالمية الأولى. فرنسا لم تعتد بوعود بريطانيا للشريف حسين وابنائه، واستولت على سوريا بالقوة تنفيذًا لاتفاق سايكس-بيكو.

ومن ثم كان على بريطانيا تجاوز ما تورطت فيه من وعد للشريف حسين وابنائه. ولتتجاوز تلك المعضلة نصبت فيصل ملكًا على العراق وعبد الله ملكًا على الأردن، فخرج أبناء الشريف حسين بمملكتين بدل واحدة.

ولتنصيب فيصل ملكًا على العراق كان على بريطانيا تجاوز عقبتين؛ إرادة الشعب العراقي، وأبو طالب النقيب الذي أنس في نفسه الكفاءة ليكون ملكًا على العراق. تخلصت بريطانيا من أبي طالب أولاً، فاستدعاه المندوب السامي (كوكس) لشرب الشاي معه عصرًا، وبعد الفراغ من الشاي كان الجنود في انتظاره لحظة خروجه من بيت المندوب ليأخذوه منفيًا إلى حيث نفي أحمد عرابي قبله (جزيرة سيلان).

بعد الخلاص من أبي طالب نظم استفتاء على تنصيب فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، وكانت توصية ونستون تشرشل أنه ليس من الضروري تنظيم الاستفتاء وفق المعايير الأوربية. والمعنى «زوروا الاستفتاء»! تم الاستفتاء ونُصب فيصل ملكًا على العراق بعد أن عزف له نشيد الإنجليز «ليحمي الله الملك».

بعد ثلاثين سنة أعاد التاريخ نفسه في ليبيا فزورت الانتخابات ونفي بشير السعداوي لِهنأ إدريس الأول بملك المملكة الليبية لبعض الوقت. أحد الليبيين فركَ عينيه حتى فقد بصره إثر خسارة السعداوي للانتخابات. لم يتصور المسكين أنه في مدينة الملاهي، وهو ذات المشهد الذي شخصه صلاح السعدني في «ليالي الحلمية» عندما مثل دور مالك الأرض الذي دخل القاهرة ثم دخل الانتخابات أمام البرجوازي فخسر الانتخابات وهو لا يدري لماذا خسرها. لن أنسى مشهد «العمدة» وهو يتوعد غريمه البرجوازي (سليم البدري) الفائز في الانتخابات تزويرًا. كان المشهد قمة الابداع في تصويره للغضب العارم الذي يظهر على الغافل عن حقائق الصراع عندما يخسر في مدينة الملاهي!

لقد عصفت بذهني كل تلك الاحداث وكل تلك المشاهد، لتسبب نوعًا من الحسرة على شعوب تدفع أغلى الأثمان للعب بمصيرها في مدينة الملاهي. واللوم لا يقع على الشعب كله؛ فبعضه يقع على النخبة التي لم تنبه الشعب إلى أن اللعب يجري بمصيره.

كتبت هذه الخواطر في اللحظات التي يستعجل فيها الشعب الليبي الذهاب إلى مدينة الملاهي مرة أخرى ليدفع ثمنًا أسوأ من ذاك الذي دفعه ومازال يدفعه إثر لعبه لعبة «لا للتمديد»!

حكاية مدرستين

مدرستان (فلسطينيتان) تتنازعان الفضاء العربي-الإسلامي حاليًا. المدرسة الأولى للشيخ أحمد ياسين والمدرسة الثانية لإدوارد سعيد. أحمد ياسين يمثل مدرسة الإصلاح، وإدوارد سعيد يمثل مدرسة التحديث. مدرسة الإصلاح تروم إصلاح الإسلام والإصلاح به. ومدرسة التحديث تعتمد على الأفكار والقيم الغربية: (أفكار وقيم الحضارة الغالبة). وتفصيل الحديث على النحو الآتي؛

1. مدرسة الشيخ أحمد ياسين.

عندما انكشف أمر حماس واعتقل الشيخ أحمد ياسين سئل في التحقيق عن الغرض من جمع السلاح فأجاب: الجهاد! هذه الإجابة صادرة عن إنسان لم يتخرج في مدرسة أخلاق العبيد، بل في مدرسة أخلاق الأحرار!

الجهاد! هذا المصطلح اختفى من قاموس المصطلحات السياسية لسببين؛ 1) الإرهاب الفكري الذي يمارس على أبناء المسلمين، 2) علو نقيق ضفادع «التطبيع هو الحل»!

وبالرغم من أن درجة علو نقيق المطبعين ما انفك يتصاعد منذ زيارة السادات للقدس (1977) وصولاً إلى أوسلو (1994)، إلا أن الشيخ الذي فكر في الجهاد سنة 67 وظل يستعد له عشرين سنة لم يأبه يومًا لذاك النقيق،

وإلى أن استشهد سنة 2004. ربما كان الشيخ أول من أدرك أن ائتمان المجتمع الدولي على القضية الفلسطينية إضاعة لها، ولذا فكر في الجهاد وهو المعفى نصًا منه (ليس على الأعرج حرج) لكن علو الهمة وعزة الإسلام جعلت منه القائد المؤسس للقوة الأخلاقية التي وضعت حدًا للطاغوت.

لو أن الشيخ كان شيوعيًا لنصبت له التماثيل في الميادين العامة. ولو أنه تحلى بأخلاق العبيد -الذين يكتفون باستجداء ضمير الإنسانية- لنال جائزة نوبل، مثل مارتن لوثر كنج ونيلسون مانديلا. هذان العلمَان سلكا سلوك العبيد فحصلا على جائزة نوبل للسلام: السلام الذي يسعى له المستضعفون من طريق إدارة الخد الأيسر كلما لُطم الخد الأيمن!

وطريق «من لطمك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر» صادر عن ذات المدرسة (الكنيسة) التي صدر عنها «لا تنهض لمقاومة الشر»، وهو ذات الطريق الذي نصح به ادوارد سعيد، ويتمسك به تلاميذه من بعده، بالرغم من أن لطم الفلسطينيين في تصاعد منذ سبعين سنة- دون أن يستيقظ ضمير الإنسانية!

المدرسة التي تخرج فيها الشيخ أحمد ياسين في آخر القرن العشرين هي ذات المدرسة التي تخرج فيها عمر المختار في بدايته: مدرسة الإصلاح التي تحولت في مواجهة المستعمر إلى حركة جهاد. والمجاهد لا يسعى للسلام بأي ثمن (= الاستسلام أو التطبيع) وإنما يسعى للنصر أو الشهادة!

وقد نال عمر المختار وأحمد ياسين الشهادة تاركين النصر للأحفاد، وأنا من الممتنين لهم بذلك. لكن الامتنان لا يكفي للتخلص من الالتزام الأخلاقي الذي يتركه الشهداء في ذمة الأحياء، وهو الإبقاء على مدرسة الإصلاح في مواجهة محاولات الإلغاء، ولا سيما عندما يكون الثمن غاليًا.

والقضية هنا ليست مجرد دفاع عن المدرسة الإصلاحية وتلاميذها المعاصرين (حماس) لأن المقاومة رصيدها من تضحياتها، وكل ما يقوم به الذين يهاجمونها هو المساهمة في المجهود الحربي الإسرائيلي دون قصد. واعتقد أن الوقت لم يتأخر كثيرًا ليأخذ هؤلاء علمًا بما سلف، وأنا أذكرهم بذلك لأن الذكرى تنفع المؤمنين.

2. مدرسة إدوارد سعيد.

عندما توكل قيادة الرأي العام للضفادع فلن تسمع غير النقيق! هذه الصفة («النقيق») استخدمها الشيخ محمد الغزالي لوصف ظاهرة معينة في السياق الإسلامي، وسأستخدمها أنا اليوم في السياق العلماني، لملاءمتها لوصف بعض الأصوات التي تصب جام غضبها على حماس في غزة، لأن حماس تقود الكفاح الفلسطيني بطريقة لا تنسجم واخلاق العبيد.

وما علاقة إدوارد سعيد بهذا النقيق؟

إدوارد سعيد هو أشهر المعترضين على «الكفاح المسلح» في فلسطين. اعتقد سعيد وتلاميذه من بعده، أن على الفلسطينيين أن يسلكوا سلوك العبيد (مارتن لوثر كنج ونلسون مانديلا) ليظفروا بما ظفر به العبيد في الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا!

وهذا ليس تطاولاً على القامات المذكورة، وإنما حفر في طبقات المعرفة البشرية لإدراك الأصول الأيديولوجية والنفسية لأخلاق العبيد الرائجة عند ورثة إدوارد سعيد. وبدون هذا الحفر لن يكون بإمكاننا إظهار التباين بين أخلاق العبيد التي يسوّق لها تلاميذ إدوارد سعيد وأخلاق الأحرار التي يدفع ثمنها الفلسطينيون بقيادة تلاميذ الشيخ أحمد ياسين.

إدوارد سعيد، ودكتور كنج، ونيلسون مانديلا مسيحيون، وأخلاق العبيد يهودية-مسيحية! والكنيسة هي التي كونت ودعمت الدكتور كنج لإجهاض مشروع التحرير الإسلامي الذي قاده مالكم اكس. وخروج الإسلام من معركة تحرير السود في الولايات المتحدة من النجاحات غير المعلنة للمنظمة العالمية للصد عن سبيل الله (الكنيسة)!

لكن الكارثة لا تقف عند ذاك الحد فروح الكنيسة انتقلت إلى الدائرة الإسلامية، وأصبحت مصدرًا للنقيق الذي نسمعه من أبناء المسلمين بخصوص المقاومة الفلسطينية. اعتبار المقاومة المسلحة خطيئة جزء من أخلاق العبيد التي نمتها الكنيسة انطلاقًا من مبدأها الشهير: «لا تنهض لمقاومة الشر»! وفقًا لهذا المبدأ على المظلومين عدم تجاوز «الذلة» و«المسكنة» في مواجهة الظالمين.

وعندما تسرب هذا المنطق للنفسية المسلمة أصبح مصدرًا للنقيق ضد حركة المقاومة الإسلامية، فحمل السلاح ليس من شأن العبيد! العبيد سلاحهم «الذلة» و«المسكنة»، وشيء من المكر الخبيث الذي يسمى «سياسة»! لابد من العودة إلى نيتشه مرة أخرى فهو الذي يقرر أن أخلاق العبيد هي أخلاق الضغينة المتولدة عن تجرع الغصص، فالذين لا حول لهم ولا قوة (العبيد) يتجرعون الغصص، فتتحول الغصص مع الزمن إلى ضغائن تغلي في الصدور. أخلاق العبيد وأخلاق الضغينة شيء واحد إذن، فهي على الجانب النفسي أخلاق المستضعفين التي تحولت إلى نهج تتبناه وتبشر به الكنيسة.

وهذا النهج، نهج العبيد، هو الموقف الذي رآه إدوارد سعيد مناسبًا للمقاومة الفلسطينية حتى تحقق دولة واحدة مثل تلك التي حققها نلسون

مانديلا في جنوب أفريقيا، وربما خفي عليه أن المقاومة ستصبح عساسًا يقمع الفلسطينيين إلى جانب المحتل إن هي رضيت بسلوك كنج في أمريكا ومانديلا في جنوب أفريقيا. فأول إنجازات السود في جنوب أفريقيا هو قمع السود من عمال المناجم الذين اكتشفوا أن أوضاعهم في ظل حكم السود لا تختلف عن أيام هيمنة الرجل الأبيض.

ولم يمت دكتور كنج حتى أعلن أن «الحلم» قد تحول إلى كابوس، فالأسود الذي تسلح بأخلاق العبيد ليتحرر من اضطهاد الرجل الأبيض في الولايات المتحدة، اكتشف أن ثمن هذه الحرية هو استدعاؤه للقتال في فيتنام تنفيذًا لسياسة الرجل الأبيض. إن ترقية العبيد إلى مستوى الرجل الأبيض (كولن بأول، وكونداليزا رايس، وباراك أوباما) لم يُحدث أي تحسن في حياة المستضعفين في العالم، والفلسطينيين من بينهم.

هذه الحقائق لن تتوقف عندها الضفادع، فالضفادع شأنها النقيق، ولا لوم عليها في ذلك، فالنقيق جزء من طبيعتها. وفي هذا السياق سأختم بقصة يوردها مالك بن نبي في مذكراته عن شخص ظهر خطيبًا عندما أصابت الجزائر حمى الخطابات على مشارف الاستقلال. يقول مالك إن ذلك الخطيب كان يقف أمام جمهوره ويستهل خطبته بعبارة «يا جيل الضفادع»!... يا جيل الضفادع؛ نقيقكم لن يوقف الجهاد!

تلبيس إبليس!

بذات العنوان كتب منصور بوشناف على صفحته مقالة قرأتها ولم يستوقفني فيها إلا عبارة واحدة وهي: «الإسلام السياسي الأكثر فعالية في هذا التلبيس..». وبإمكان القارئ الرجوع إلى مقالة بوشناف فهي شيقة على العموم، لكنها في باب التلبيس تحمل سوء تأويل، حتى لا نتحدث عن سوء نية!

وسوء التأويل عند منصور -باعتباره من اليساريين- يختلف عن سوء الفهم الموجود لدى النخبة العربية (إسلامية وعلمانية) بخصوص مفهوم الدولة المدنية، الذي مازال من أسباب اللبس والبلبلة الفكرية والسياسية.

في ضوء ما تقدم سأتوقف عند مفهوم الدولة المدنية وسوء فهمه عند «النخبة الليبية» (أولاً)، ثم أنتقل بعد ذلك إلى الإسلام، و«الإسلام السياسي» تحديدًا، لنرى إن كانت لديه أية فعالية على الإطلاق (ثانيًا)!

أولاً. مفهوم الدولة المدنية.

1. الدولة المدنية في تعريف الإسلاميين: هي الدولة التي لا يحكمها العسكر!

2. الدولة المدنية في تعريف العلمانيين: هي الدولة التي لا يحكمها الإسلاميون!

وهذا التضارب على مستوى المفاهيم مرجعه إلى ترجمة المصطلحات الأوربية واستخدامها دون ضابط، فتقسيم العالم إلى مدني وديني غريب على المنهج الإسلامي، وناشئ عن تقسيم حكومات أوربا إلى حكومة دينية وهي «الكنيسة» التي كثيرًا ما يشار إليها بالسلطة الروحية، وحكومة مدنية يشار إليها عمومًا بالدولة، كما يشار إليها بالسلطة الزمنية تمييزًا لها عن السلطة الروحية (الكنيسة).

«الحكومة المدنية» وليس «الدولة المدنية» هو المصطلح المستخدم عند جون لوك مثلاً. أما قلب مصطلح «الحكومة المدنية» إلى «الدولة المدنية» فهو من الإبداعات غير المنضبطة جنوب المتوسط. وهذا النوع من الإبداع -أو البدع إن أردت اصطلاحًا أكثر دقة- بدأ مع بداية الصراع الأيديولوجي الحديث بين الإسلام والمسيحية، الذي دشنه رينان-آلافغاني في باريس سنة 1883، واستأنفه محمد عبده-فرح أنطون في مصر مع بداية القرن العشرين! وكان الشيخ محمد عبده أول من عبر عن مدنية السلطة في الإسلام، وهو يقصد مدنية الحكومة.

وبوفاة محمد عبده أصبح الإسلام دون مفكرين وكتاب بإمكانهم مجابهة مد الفكر الأوربي. وكان قتل عبد الناصر لعبد القادر عودة وسيد قطب على التوالي إجهاضًا مبكرًا لمحاولة النهضة الإسلامية التي دشنها الإخوان المسلمون. وبذلك افتقر الإسلام إلى منظرين حقيقيين وأفكار جديدة، باستثناء مالك بن نبي الذي كان مفكرًا فذًا لكنه محاصر.

ثانيًا. فعالية الإسلام السياسي؟

كان مالك بن نبي من أكثر المفكرين الذين اشتكوا من انعدام الفعالية لدى المجتمع المسلم عمومًا وليس الإسلاميين فقط. خابت آمال بن نبي

في الوهابية -التي أحرقها البترول حسب قوله- لكن آماله انتعشت عندما اكتشف حسن البنا والإخوان المسلمين في مصر.

رأى بن نبي شيئًا من الفعالية تظهر في الصف الإسلامي، وكان التنظيم هو مظهر هذه الفعالية الصاعدة. لكنها كانت فعالية محدودة جدًا بسبب تعرض الإسلام للتشتيت، وعدم نجاحه في الصراع الفكري نتيجةً للفقر الناشئ عن قتل وتشريد مفكريه. هذا القتل والتشريد خلق فراغًا في مناهج التعليم ووسائل الإعلام. وفي هذا الفراغ تمدد الفكر الماركسي دون أن يعلن عن نفسه.

وفي سياق تمدد الفكر الماركسي هناك ملاحظة تثار دون إثارة علتها وتتمثل فيما يظهر على المنتمين للإخوان المسلمين -مثلاً- من أنهم في معظمهم أطباء ومهندسون، فأين ذهب خريجو العلوم الإنسانية، ولماذا لم يلتحق إلا القليل منهم بالجماعة؟

كلمة «الإنسانية» في عبارة «العلوم الإنسانية» مجرد غطاء للماركسية والعلمانية، وبذا سلم جماعة العلوم التطبيقية (المهندسون والأطباء) من التلوث الفكري الذي أصاب الدارسين في كليات الآداب والقانون والاقتصاد. ظل جماعة العلوم التطبيقية أقرب إلى الفطرة من أقرانهم الذين تشربوا الماركسية والعلمانية المختبئة في العلوم الإنسانية. وما سأقوم به الآن هو تقصي تاريخ تمدد الماركسية في فراغنا الفكري، وتخصص أصحابها في تخريب الإسلام من داخله، وما نتج عن ذلك من بلبلة يدفع الإسلام ثمنها من ابنائه.

1. التمدد الماركسي.

بموت آلافغاني وعبده بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أقفرت بلاد المسلمين من المفكرين آلافذاذ، ولم يعد هناك من

بوسعه مجادلة العلمانيين أو الرد عليهم. ويهمني من كل العلمانيين العرب الماركسيون، الذين تدربوا على يد النصارى (ارنست رينان، فرح أنطون، ميشيل عفلق.. إلخ) وورثوا نهجهم في تخريب الإسلام من داخله!

دراسة ارنست رينان وفرح أنطون لابن رشد، كان هدفها إثبات ان فلسفة ابن رشد مادية، أي أن ابن رشد كان ماركسيًا قبل الأوان، وكان تقديم ابن رشد على أنه مادي تمهيدًا لبذر الماركسية في بلاد المسلمين! وقد أقبل أبناء المسلمين (مثل العظم، وتزيني، ومروة) على الماركسية واتخذوها مذهبًا لتحديث العرب (وهؤلاء هم مدرسة التحديث التي تقابل مدرسة الإصلاح).

ولم يقتصر التطور الذي حصل بعد ارنست رينان وفرح أنطون على انتقال الماركسية من النصارى إلى أبناء المسلمين، بل أصبح أبناء المسلمين مخلصين لنهج النصارى في تخريب الإسلام من داخله باستخدام تاريخه. إمام مخربي الإسلام باستخدام تاريخه كان حسين مروة الذي سلخ -بتكليف من الحزب الشيوعي اللبناني- عشر سنوات من عمره في التنقيب على «النزعات المادية في التاريخ الإسلامي»، فكان كتابه الذي يحمل ذاك العنوان قراءة ماركسية لتاريخنا الإسلامي.

والآن يأتي منصور بوشناف ليواصل ذات الطريق باستخدام كتاب ابن الجوزي «تلبيس ابليس» ليسير بالقارئ نحو نتيجة مفادها أن تلبيس الإسلاميين صورة طبق الأصل من تلبيس ابليس! ويصب مجهود بوشناف في تيار شيطنة الإسلاميين، الذي له صدى في الشارع الليبي، واللغة الشوارعية في ليبيا التي تصم الإخوان المسلمين بعبارة «إخوان الشياطين!»

2. البلبلة الفكرية.

من المحزن أن يصرح أحد جهابذة السياسة في ليبيا أن الإخوان المسلمين

مشكلتهم أنهم منظمون. هذا الجهبذ لا يرى في التنظيم فعالية بل مشكلة. وجوهر هذه المشكلة بالنسبة إليه هو إمكانية وصول الإسلاميين للحكم قبله لأنهم منظمون، ولذا يجب أن يبقى الإسلاميون دون تنظيم، حتى تكون للجهبذ فرصة في الحكم مساوية لفرص بقية الهمج، غير المنظمين، من أمثاله.

غير أن مشكلة الإسلام السياسي ليست في قوة أو ضعف تنظيمه، بل في فقره الفكري، وهذه المشكلة وصفها منصور بدقة عندما قال: «إن الإسلام السياسي ولافتقاره للمصطلح الثوري في إرثه يلجأ لليسار ويستولي على إرثه المصطلحي»! وهذا صحيح حتى أني كثيرًا ما أصاب بالقرف لسماعي بعض الإخوان المسلمين يتنازل عن إمكانية التميز التي يتيحها له الإسلام، ويتحدث لغة حزب البعث والبعثيين: (الوطن والوطنية والمواطنة).

لكن يختلف الحال عندما يتعلق الأمر بمصطلح الدولة المدنية، الذي يستخدمه العلمانيون غطاءً لرفض ليس حكم الإسلاميين وإنما لرفض حكم الإسلام (الشريعة). وهذا التكتيك من أسباب تعطيل الاستفتاء على الدستور الذي يرفضه الماركسيون لأنه نص على الشريعة مصدرًا للتشريع![1] ومن هنا كان استخدام الإسلاميين لمصطلح الدولة المدنية لرفض حكم العسكر مجهضًا لمحاولة العلمانيين استخدام ذات المصطلح غطاءً لرفض الشريعة.

في هذا الخضم التبس الأمر على منصور فظن أن الإسلاميين قد سطوا على مصطلحات اليسار عندما استخدموا مصطلح «الدولة المدنية»، والحال

(1) بالإضافة إلى الماركسيين رفض الاستفتاء على الدستور وعمل على عرقلته كل من: 1) الفيدراليون الذين يريدون نظامًا فيدراليًا، و2) رفضه مزدوجي الجنسية لأنه يحرمهم من الترشح للرئاسة، و3) رفضه أنصار النظام السابق لتعلقهم بنظامهم السابق (نظام الفاتح ابدًا)، و4) رفضه العسكر لأنه يمنع ترشح العسكري قبل الاستقالة. وهناك بطبيعة الحال الامازيغ الذين قاطعوا هيئة صياغة الدستور من أول يوم.

أن الشيخ محمد عبده هو أول من استخدم عبارة الحكومة المدنية في العصر الحديث، وفي كتابه عن حال الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مبينًا أن الحكومة الإسلامية ليست حكومة مدنية وحسب، وإنما من أهدافها اقتلاع السلطة الدينية من جذورها وتحرير الناس من سطوتها.

مرة أخرى؛ الكنيسة سلطة دينية لأنها تقرر أمور العقيدة، وتضع أحكام الشريعة لاتباعها، وهذا هو معنى قوله تعالى في حق أهل الكتاب: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]! أما الإسلام فليس فيه كنيسة، وأول دولة في تاريخ المسلمين هي التي تأسست بهجرة الرسول من مكة إلى يثرب. وبتلك الهجرة تحولت يثرب/الواحة إلى «مدينة الرسول» ثم «المدينة» اختصارًا. والمدينة في لغة تلك الأيام تعني الدولة في لغة يومنا هذا!

ومعنى «المدنية» في مدينة الرسول ﷺ أنه ليس فيها من إله إلا الله. أما أوربا فمازالت فضاءً لتعدد الآلهة والدولة فيها إله آخر ضمن الآلهة المتعددة. فالاعتقاد أن الدولة الأوربية دولة مدنية اعتقاد خاطئ لأن الدولة في أوربا إله لمن يعبد هواه!

وفي سياق تعدد الآلهة في أوربا يأتي الضلال والتلبيس الذي أصبح فكرًا عالميًا يقوده المغضوب عليهم، يتبعهم الضالون، وأبناء العرب من وراء الضالين! ولذا ترانا في مؤخرة الإنسانية في كل مجالات الحياة.

وأنا أدعو اليساريين والإسلاميين في ليبيا إلى الدخول في حوار مفتوح يكون هدفه ليس تحديد من يمارس التلبيس وإنما توضيح رؤاهم لمجتمع أرهقه التضليل ويعيش بلبلة فكرية لا حدود لها! إذا قام الإسلاميون والماركسيون بتنوير المجتمع -كل من جهته- يصبح المجتمع قادرًا على التفرقة بين تلبيس إبليس وتلبيس غيره من شياطين الإنس!

مدارس الأخلاق الليبية

الخُلق صفة في النفس مثلما أن الخِلقةُ صفةٌ في الجسم؛ فالإنسان يكون كريمًا أو بخيلاً خُلقًا، وطويلًا أو قصيرًا خِلقةً! وعندما سئلت عائشة ﵂ عن خلق النبي ﷺ قالت: كان خلقه القرآن، فالقرآن كان منطبعًا في نفسه ﷺ يقرأه كما يتنفس، ويطبقه بتلقائية منقطعة النظير. وعندما وصف ﷺ جوهر رسالته قال «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»!

ولكن نظرًا للتلوث الثقافي الذي أصابنا أصبحنا نحمل مصطلح الأخلاق على مكارم الأخلاق وننسى أن في مقابل حُسن الخلق هناك سوء الخلق. وبهذه المناسبة سأضع أخلاق الليبيين تحت المجهر لأبين معالم الطفرة التي نقلت ليبيا وشعبها من مكارم الأخلاق (أخلاق الأصالة) إلى أسوأ الأخلاق (أخلاق الطفرة)!

أولاً. أخلاق الأصالة.

ولدت ليبيا سنة 1951، وكان على رأسها ملك جاء في مفتتح خطابه بمناسبة إعلان الاستقلال يوم 24 ديسمبر الآتي: « بسم الله الرحمن الرحيم.. إلى شعبنا الليبي الكريم، يسرنا أن نعلن إلى الأمة الليبية الكريمة.. [أنه].. قد تحقق بعون الله استقلال بلادنا العزيزة»!

لو قال في ذاك اليوم: «أيها الشعب الليبي الفقير» أو «أيها الشعب الليبي المريض» لما كذبه أحد، لأن تلك كانت حقيقة الواقع، لكنه اختار عبارة «شعبنا الكريم» لكرم أصله ونقاء معدنه، فهو من الأسرة الكريمة التي أسست حركة إصلاحية (السنوسية) كانت قادرة على مقاومة أعتى الغزاة، ثم التحالف مع الإنجليز في الحرب الثانية وتكوين جيش والتفاوض لنيل الاستقلال بأي ثمن.

بعد ذلك كانت من مشاغل الملك رحمه الله رفع الشعب الليبي إلى مستوى الكرامة، وساعده في ذلك اكتشاف النفط بكميات تجارية وإن تأخر تدفق عوائده على البلاد لبعض الوقت، لكنه بدأ في إنشاء بنية تحتية ومشاريع إسكانية.

ولما كان الناس على دين ملوكهم كان الشعب الليبي كريمًا بالفعل رغم فقره، فقد تعاضد الليبيون لنصرة الجزائر، وكان إسهام الفقراء التبرع بجلود الأضاحي بينما استقبل بعض ميسوري الحال الأيتام من أبناء الشهداء ليتربوا مع ابنائهم. كان الدافع هو أخوّة الإسلام والنخوة التي تحرك الكريم دون طلب أو توسل!

أحد المغتربين العرب كتب تذكرًا لأيامه الطيبة في ليبيا أنه كان ثالث ثلاثة يستأجرون بيتًا يملكه خباز في طرابلس، وكان الإيجار عشرين جنيهًا شهريًا. وفي يوم من الأيام مر هذا المغترب على الخباز ليقترح عليه أن يكون الايجار واحد وعشرين جنيهًا، حتى يدفع كل واحد من المستأجرين سبع جنيهات بدون كسور، فقال له الخباز أنت تريد أن تكون أكرم ممن؟! الإيجار ينزل إلى ثمانية عشرة جنيهًا، وكل واحد منكم يدفع ست جنيهات فقط، وبعدما نشرب الشاي!

ومن الصفحات البيضاء في سجل الليبيين في الخارج إيواؤهم مالك بن نبي في القاهرة وتوفير الهدوء اللازم له. كان مالك شديد الحساسية، فأقل صوت يحرمه النوم، ومما حفظت له في هذا الباب قوله «الضوضاء عذاب للذين يشتغلون بعقولهم»! لم يجد مالك بن نبي سكن الهدوء فيه مطلق سوى مسكن بعض الليبيين. أحد الدارسين في القاهرة قال: كان الليبيون يسيرون على رؤوس أصابعهم حتى لا يحدثوا صوتًا يوقظ مالك بن نبي. وما تعرض عربي للضيم في أوربا إلا ووجد الليبيين في صفه دون سابق معرفة!

شعب كريم قُضي عليه وعلى مستقبله ومستقبل ابنائه وأحفاده بطفرة وقعت في يوم أغبر من أيام 1969!

ثانيًا. أخلاق الطفرة.

حدثت الطفرة في الأول من سبتمبر سنة 1969، وكان الاتفاق بين ضباطها على تسليم الحكم لحكومة مدنية بعد اسقاط النظام الملكي. وما إن سقط النظام الملكي حتى ظهر الغدر، وكان ذلك بداية السقوط الأخلاقي الذي توالت طفراته حتى 2011. عدم الوفاء بالعهد ترتبت عليه أول محاولة انقلابية في ديسمبر 69، وعندما حوكم من في المحاولة وكانت الأحكام لينة تم الزج بالشعب في مظاهرات تطالب بالإعدام.

وأعيدت المحاكمة وصدرت أحكام بالإعدام، ولم تكن هذه السقطة الأخلاقية الثانية وحسب، وإنما كانت سقطة مزدوجة كذلك: فعلى مستوى أول لا يجوز في قوانين الأمم المتحضرة محاكمة إنسان على ذات الفعل مرتين. على الجانب الآخر كان الزج بالشعب في المطالبة بسفك دماء ابنائه سقطة أخلاقية من العيار الثقيل، لكن هذا هو قانون الطفرة، تغير سريع وإن كان مما تأباه الفطرة السليمة.

وفي إحدى المرات -وكنت في المرحلة الإعدادية تقريبًا- شاهدت قائد الطفرة على التلفاز في خطاب أمام طلبة الجامعة، وإذا به ينفعل و«يلعن دين أمريكا» وبذات اللفظ! لم أستوعب المشهد ولم أجد له تفسيرًا أو تبريرًا مطلقًا، لكن الأيام أثبتت أن ذلك كان غيضًا من فيض. وقد رأيت العجب العجاب عندما دخلت الجامعة في خريف 1976. في ربيع ذاك العام ظهرت عبارة «لم يعد السكوت ممكنًا» في الجامعة، فما كان من قيادة الطفرة إلا تحطيم خيرة أبناء البلد (من اليمين واليسار معًا). كانت الطفرة تتنفس حقدًا وقسوةً في ذات الوقت، وكان ذلك ظاهرًا للعيان في التعامل مع الطلبة العزل.

بدأ الليبيون في الفرار إلى الخارج، وإذا بالذين يناديهم الملك شعبي الليبي الكريم يتحولون وفقًا لقانون الطفرة إلى «كلاب ضالة». كان وصف الليبيين بالكلاب الضالة فرعًا من قانون «جوع كلبك يتبعك»، الذي تبناه قائد الطفرة للتعامل مع شعب كان بالأمس كريمًا وعزيزًا فجاءت الطفرة لتحوله ذليلاً مهانًا. ومن تشبث بآدميته توعده القائد بالتصفية الجسدية حيث كان في الداخل أم في الخارج. وارسلت فرق الموت للتنفيذ.

وبعد أربعين سنة من الطفرة تلوا الطفرة، جاء وصف الليبيين بالجرذان مع الربيع العربي، ويقال إن موسوليني هو أول من أطلق وصف الجرذان على الليبيين. وكان خليفته في ليبيا مخلصًا أمينًا لأخلاق الفاشية وممارساتها الشنيعة تجاه الليبيين بما في ذلك المشانق في الميادين العامة.

مرة أخرى؛ ولما كان الناس دائمًا على دين ملوكهم تغير خطاب عوام الليبيين وتصرفاتهم من أخلاق الشهامة والكرم إلى أخلاق الوضاعة والبذاءة تبعًا لسلوكيات قائد الطفرة الذي جعل من الانحطاط أيديولوجيا الطفرة حتى أنه كتب رواية بعنوان «تحيا دولة الحقراء»!

ولما سقط قائد الطفرة انهار سد الخوف، وعبر الليبيون عن سوء أخلاق الطفرة. كان أول الضحايا الأمين المساعد للأمين العام للأمم المتحدة (د طارق متري)، الذي اضطر لإغلاق صفحته على الفيس بوك لوضع حد لسيل الشتائم التي كالها له خفاف العقول من الليبيين. وكانت السفيرة الأمريكية الضحية الثانية لسوء أخلاق الليبيين الذين اجبروها على قفل صفحتها على الفيس بوك هي الأخرى! كان طارق متري متفهمًا فقال (في كتابه سنتان في ليبيا) ماذا تتوقع من شعب كتمت أنفاسه لأربعين سنة ثم وجد نفسه حرًا فأصبح يمارس الحرية بقلة أدب. لقد استطاع عدد غير قليل من الليبيين الاحتفاظ بأخلاق الأصالة رغم كل الظروف، لكن 17 فبراير كانت حفل تخرج لجماهير غفيرة من مدرسة أخلاق الطفرة وقلة الأدب!

لقد شكل خريجو مدرسة الطفرة أكبر إساءة لما تحقق انطلاقًا من 17 فبراير (إسقاط النظام)، وهم دخلاء عليها، والمفسدون فيها، ليدفع الشعب ثمن اعتقاده الساذج أن سقوط نظام وقيام آخر أمر هين. كان لسان حال الليبيين والدماء تسيل «ليذهب النظام وبعدين ساهل». في السياسة وبناء الدول لا يوجد شيء اسمه «ساهل»! وهذا هو ما اكتشفناه بعد أن دفعنا ثمنًا باهضًا، والثمن الذي أتحدث عنه هنا هو تحديدًا الثمن الأخلاقي، ولا شيء غيره.

الغنوشي

بين عمر المختار وعبد الكريم الخطابي!

1. الشيخ راشد وعمر المختار.

قبل مائة سنة كان الشيخ عمر المختار يقاتل من أجل البقاء، واليوم يناضل الشيخ راشد الغنوشي من أجل البقاء. لم يكن عمر المختار يقاتل من أجل بقاء عمر المختار أو الحركة السنوسية، ولا يناضل الشيخ راشد اليوم من أجل بقاء الغنوشي أو النهضة.

واجه المختار الموت بالأمس ويواجه الغنوشي الموت اليوم من أجل بقاء الإسلام. فالحرب على الإسلام عمرها ألف سنة وجهاد السنوسية والنهضة بعض من آخر حلقاتها، ولكن قصير النظر لا يرى ذلك!

بقي أن نقول: إن الذين قبضوا على عمر المختار والذين نفذوا فيه حكم المحكمة الإيطالية ليبيون. والذين يحاولون اليوم القضاء على الغنوشي تونسيون. الذين قبضوا على المختار والذين أعدموه كانوا يساهمون في المجهود الحربي الإيطالي وهم يعلمون، أما الذين يحاولون القضاء على الغنوشي فهم يساهمون في المجهود الحربي لأعداء تونس، وأعداء الأمة، وهم لا يعلمون.

من جهة أخرى؛ الذين يعتقدون أن الغنوشي يستطيع تطبيق الشريعة في تونس ولكنه لم يفعل غافلون! والذين يعتقدون أن الغنوشي بإمكانه القضاء على الفساد في تونس ولكنه لم يفعل مساكين! وأغلب أبناء الأمة من المساكين الغافلين الذين يمكن أن يجرفهم خبر زائف وتضللهم إشاعة مغرضة!

عمر المختار بالأمس وراشد الغنوشي اليوم يمثلان صمود النخبة في وجه نظام عالمي يروم إلغاء الإسلام، ولا يقبل بأقل من ذلك، ويعينه على ذلك بعض المغفلين من أبناء المسلمين، وبعض المنافقين.

2. الشيخ راشد وعبد الكريم الخطابي.

ليس القصد مقارنة راشد الغنوشي بعبد الكريم الخطابي، بل القصد إثبات أن الذين جندتهم فرنسا لقتال الغنوشي لا يختلفون عن الذين جندتهم لقتال عبد الكريم الخطابي.

أولاً. الأمير عبد الكريم الخطابي.

قبل مائة سنة قاد الخطابي ثورة في الريف ضد الاحتلالين الفرنسي والإسباني، وأنشأ جمهورية عمرت لخمس سنوات. ولم تتمكن فرنسا وإسبانيا من هزيمته مجتمعتين إلا بعد أن جندت فرنسا التونسيين والجزائريين لقتاله. وفي هذا الوضع المأساوي أصدر عبد الكريم بيانًا في 1925 يقول فيه:

«يا أيها المسلمون التونسيون والجزائريون، إن الأمر الذي يشق علينا تحمّله هو أن نرى أبناءكم يأتون قهرًا لمحاربتنا، كما أنه يشق علينا أن ترانا ملتزمين لأجل الدفاع عن استقلالنا أن نتقابل في ساحة القتال... إن أربعة أخماس الجيوش التي هي على حدودنا شاهرة السلاح في وجوهنا هم من ابنائكم أيها الإخوان، أفمن الواجب عليهم أن ينقّضوا على أعدائنا المشتركين، المضطهدين لنا ولكم.»

قضت فرنسا على جمهورية الريف بجيش ثمانون في المئة من جنوده من تونس والجزائر، ونفي عبد الكريم عشرين سنة، ولما عاد لتنظيم الجهاد انطلاقًا من القاهرة وشرع في بناء جيش لتحرير كامل المغرب العربي باعه بورقيبة ومحمد الخامس باستقلال زائف لتونس والمغرب تاركين الجزائريين لفرنسا، فذبحت منهم مليونًا ثمنًا لاستقلال لم يكن له معنى حقيقي!

ثانيًا. الشيخ راشد الغنوشي.

مثلما أن الجهاد حلقات يتتابع فيها عمر المختار وعبد الكريم الخطابي وراشد الغنوشي، فإن الخيانة حلقات تتابع هي الأخرى، والخونة مازالوا من أبناء جلدتنا ومازالوا يعتقدون أنهم يحسنون صنعًا. ولا أبالغ إذا قلت إن خونة الأمس كانوا يستلمون مرتبات آخر الشهر وخونة اليوم يعملون مجانًا!

مازال حزب فرنسا في تونس قويًا، وهو يدار مباشرةً من السفارة الفرنسية فيها، لكن الخونة لا يضخمون إلا التدخل القطري-التركي، ولا حديث عن التدخل الفرنسي لأن تونس مازالت مستعمرة فرنسية وإن ظن السفهاء غير ذلك.

حزب فرنسا في تونس يقاتل الغنوشي لمصلحة الاستعمار مثلما قاتل الليبيون عمر المختار لمصلحة الاستعمار. أن يكون الاستعمار إيطاليًا أو فرنسيًا أو إنجليزيًا لا يشكل فارقًا، ما يشكل الفارق هو الخونة الذين يقاتلون معه لأنهم يشقون الأمة صفين، وهو ما سهل للاستعمار مهامه بالأمس ويسهلها له اليوم، ولكن المنافقين لا يفقهون!

قبل مائة سنة قال عبد الكريم «نهزمهم في ميدان الجهاد ويهزموننا في ميدان السياسة». فرنسا تعتبر أن المغرب العربي حديقتها الخلفية وتريد أن تضم ليبيا إلى هذه الحديقة. والذين تحالفوا معها من الليبيين خونة لا يختلفون عن الذين قاتلوا مع الإيطاليين في ليبيا ضد إخوانهم المسلمين والذين قاتلوا مع فرنسا ضد إخوانهم المسلمين في تونس والجزائر والمغرب!

حثالة الصحافة

لو أن تشرشل وستالين كانا أثناء الحرب العالمية الثانية يفكران بالطريقة التي يفكر بها بعض الصحفيين العرب اليوم لكان النصر حليف هتلر!

كان الإنجليز في لندن، والروس في ستالينغراد، يقاتلون تحت ضغط حصار خانق، مثلما يفعل الفلسطينيون اليوم في غزة. ومثلما استحق موقف تشرشل وستالين الاحترام والتقدير، تستحق المقاومة الفلسطينية اليوم الإكبار من كل شريف والتأييد من كل حر، غير أن صحافة التطبيع تقلل من قيمة المقاومة والمقاومين، لأن المقاومة موقف نقيض لكل ما تحمله هذه الصحافة من فكر وتحلم به من مشاريع.

ويتركز الهجوم على قيادة المقاومة (حركة حماس) دون اعتبار لأنها خيار الشعب الفلسطيني في انتخابات حرة وشفافة. وانتخاب حماس هو الانتصار الوحيد الذي بقي في معسكر الشعب الفلسطيني، أما بقية انتصارات العرب فقد عرف بنو إسرائيل كيف يفرغونها من محتواها، على مائدة المفاوضات، في أوسلو بعد كامب ديفيد!

ما هي الرؤية التي تنطلق منها صحافة التطبيع بخصوص غزة والقضية الفلسطينية عمومًا؟

تعتقد هذه الصحافة أنه: «كان في الإمكان، خصوصا بعد صيف العام 2005، لدى اتخاذ اريل شارون قرارا احاديّ الجانب يقضي بالانسحاب الكامل من قطاع غزّة وتفكيك المستوطنات فيه، تحويل غزّة الى انموذج لما يمكن ان تكون عليه دولة فلسطينية مستقلّة قابلة للحياة»!

هذه الرؤية تهمل حقيقة أن انسحاب شارون لم يكن أحادي الجانب؛ وأنه كان مجبرًا عليه كنتيجة للإخفاق الذي مني به في مواجهة المقاومة، وفي غزة تحديدًا، وبقيادة حماس لنكون في منتهى الدقة. اما الدولة الفلسطينية القابلة للحياة عند أصحاب هذه الرؤية، فهي مجرد حلم غير قابل للتحقيق، إلا إذا قصد منه أن تكون غزة معتقل كبير تديره سلطة فلسطينية، أو أن تفقد غزة هويتها الإسلامية وتصبح وكرًا من أوكار الدعارة ومقرًا لنوادي القمار مثل بعض امارات الخليج، ليتحول الفلسطيني عندها من مقاوم إلى مقاول لدى بني إسرائيل، أو نادل يحمل صفرة وينتظر «البقشيش» من سائح لا يفرق بين الطهارة والنجاسة!

ولما كان الحديث عن حماس لابد أن يجر إلى الحديث عن الإخوان المسلمين -هذا إن لم يبدأ به- فإن صحافة التطبيع تعتقد أن المعضلة هي «الشبق الى السلطة الذي يتحكّم بالإخوان المسلمين وكلّ تصرفاتهم!»

اختيار مصطلح «الشبق» لوصف تطلع الإخوان المسلمين إلى السلطة -على فرض أن ذلك هو همهم الوحيد- خطاب أقل ما يقال فيه أنه غير مهذب، ولكن إذا لم تستخدم صحافة التطبيع مثل هذه المصطلحات فكيف سنعرف أننا في مواجهة حثالة الصحافة؟!

أزمـة الهويـة والهويـة المضـادة

سأتناول في هذه الورقة أزمة الهوية التي ولدت منها الهوية الليبية والهويات النظيرة (تونسية، تشادية، جزائرية... إلخ)، والتي لا أراها هويات أصيلة وإنما هويات مضادة. وسينصب النقاش هذه المرة على ظهور أزمة الهوية، أما الهويات البديلة أو المضادة فستكون محل النقاش في المرات القادمة.

1. ظهور الأزمة.

في منتصف القرن الماضي افتتح مركز ثقافي إسلامي بفرنسا، وكان من المنتسبين إليه د. محمد حميد الله (من أصول هندية) ومالك بن نبي (من الجزائر الفرنسية). وكما هي العادة، كان الانتساب يبدأ بملء استمارة تدون فيها تفاصيل المنتسب:(الاسم، تاريخ الميلاد، الجنسية...إلخ). أمام فقرة الجنسية كتب محمد حميد الله «مسلم»، أما مالك بن نبي فقد كتب «مستَعمَر ! (Colonisé)

«مسلم» و«مستعمَر» لا توجدان على قائمة الجنسيات المعتمدة في عالم اليوم؛ هذه هي أزمة الهوية كما تمثلت في تجربة علمين من أعلام المسلمين في القرن العشرين!

وكانت الحرب العالمية الأولى شاهدًا على انفجار الأزمة في ضمير الأمة، وفي

ميادين القتال في ذات الوقت. لنتذكر فقط أنه خلال الحرب العالمية الأولى قاتل أحمد الشريف مع السلطان العثماني ضد الانجليز على الحدود الغربية لمصر، وقاتل الشريف حسين ضد ذات السلطان مع الانجليز في جزيرة العرب. نظرياً؛ كان الشريف حسين وأحمد الشريف أعداء في الحرب العالمية الأولى، وكان من الممكن أن يتقاتلا لو أنهما التقيا على واحدة من الجبهات التي دارت عليها رحى الحرب. الاختلاف بين موقفي الرجلين (أحمد الشريف والشريف حسين) نابع من الاختلاف بين هويتين: إسلامية وقومية.

وهكذا شهدت الحرب العالمية الأولى تزامن مشهدين: عالم يلفظ آخر أنفاسه (وهو عالم الهوية الإسلامية الجامعة) ومشهد عالم يولد (وهو عالم الهوية القومية والدولة الوطنية المفرقة)، وهو ما سأتناوله من خلال الموقفين المتباينين لأحمد الشريف والشريف حسين.

أ) موقف أحمد الشريف. مثلت مشاركة المسلمين على الجبهتين في الحرب العالمية الأولى تمزقاً على المستوى النفسي الذي وحدته الفكرة الإسلامية حتى ذلك الحين. خير شاهد على ذاك التمزق الأليم هو موقف أحمد الشريف الذي سأله محمد أسد عن سبب الخطوة الانتحارية المتمثلة في الهجوم على الإنجليز على حدود مصر الغربية بمجاهدي السنوسية الذين كانوا يواجهون الإيطاليين في برقة؛ فكان رد أحمد الشريف:» يخيل إلى أحياناً أنني أخطأت عندما باليت بنداء إستانبول... ألم يكن ذلك، ربما، بداية النهاية، لا بالنسبة إلى عمر[المختار] فحسب، ولكن بالنسبة إلى السنوسيين جميعًا...؟ ولكن كيف كان يتسنى لي أن أفعل خلاف ذلك عندما سألني خليفة المسلمين المعونة؟ هل كنت محقًا أو كنت مجنونًا؟ ولكن، من غير الله يستطيع أن يقول عن الإنسان إنه محق أو مجنون إذا لبى نداء ضميره؟»

كان أحمد الشريف يلبى نداء إستانبول في الظاهر؛ لكنه في الواقع كان يلبي نداء ضميره!

ما هي بنية هذا الضمير؟ ما هي مكوناته؟

وحدة الأمة من وحدانية الله! ولا يمكن التفريط في وحدة الأمة إلا إذا جعلنا مع الله آلهة أخرى تبرر التخلي عن الدين وخذلان المسلمين! هذه هي مكونات الضمير الذي حمله أحمد الشريف بين جنبيه!

لم يكن السنوسيون يقاتلون لأجل برقة ولا من أجل طرابلس؛ ومن لديه قدرة على مراجعة أدبيات عمر المختار فليفعل، وسيجد أن عمر المختار وصحبه كانوا لا يضيعون فرصة للقول: «نقاتل لأجل ديننا ووطننا». يأتي الوطن ثانياً في الترتيب، وبعد الدين الذي بحفظه يحفظ المسلم نفسه وماله وعقله. بهذا الإيمان قاتل السنوسيون الفرنسيين في تشاد قبل قتال الايطاليين في برقة، ثم قاتلوا الإنجليز في مصر والإيطاليين خلفهم في برقة، دون تردد أو وجل. وعندما قاتلوا هنا أو هناك لم يكن قتالهم من أجل النفط والغاز في البر، ولا من أجل الاسماك في البحر. لقد قاتلوا دفاعًا عن الإسلام ودار الإسلام. ولم يكن هناك مجال للمزايدات أو المناقصات؛ لقد دفعوا أغلى الإثمان (الأرواح والأعراض والأموال) في لا شيء دنيويًا. لم يكونوا مرتزقة، ولم يقاتلوا إلا رجاء الله واليوم الآخر، ولم يستشهدوا إلا في سبيل الله، الذي عن وحدانيته تتفرع وحدة الأمة المسلمة!

وكما توقع أحمد الشريف لفظت السنوسية آخر أنفاسها باستشهاد عمر المختار، وتحولت إلى مجرد ذكرى طيبة، وصفحة مشرقة في تاريخنا المعاصر. وبعدها بقليل تحولت الأمة إلى شعوب متناحرة في ظل الهوية المضادة:(القومية والدولة الوطنية) التي كان رائدها الشريف حسين وبنيه.

ب) موقف الشريف حسين. في أتون الحرب العالمية الأولى أعلن الشريف حسين الثورة التي عُرفت باسم «الثورة العربية الكبرى» سنة 1916، وكان هدفه من وراء الثورة إنشاء دولة عربية ضداً على «الخلافة العثمانية» التي دخلت الحرب إلى جنب ألمانيا وحلفائها. كان فيلسوف الثورة العربية، ومدبرها الاستراتيجي، هو العقيد لورنس المشهور بـ «لورنس العرب». ومن يقرأ مذكرات لورنس المعنونة «أعمدة الحكمة السبعة»، يرى أن لورنس لم يكن مجرد جاسوس إنجليزي، كما يقال، وإنما كان عقلاً فذا ومثقفًا، من طراز عال، وضع إمكانياته في خدمة بلاده في لحظة من أخطر لحظات تاريخها. ويظهر العمق الثقافي للورنس في قوله عن العرب الذين قادهم أنهم كانوا «يشقون طريقهم بين أصنام القبيلة وأصنام الكهف أما أصنام المسرح وأصنام السوق فلم تكن في مدى نظرهم».

هذا التصور الجديد للأصنام وتقسيمها (إلى أربعة أصناف) يعود إلى فرانسيس بيكون وكتابه «الارغانون الجديد» الذي ظهر في القرن السابع عشر، وكان هدفه التأسيس لمنهج علمي جديد، يتجاوز جملة الأوهام التي تقوم مقام الأصنام في الأنموذج البدائي.

وفقاً لهذا التصور الجديد (الذي لم يخطر للعرب على بال) يمكن تصنيف «الثورة» و«الدولة» في خانة أصنام المسرح (السياسي). في هذا السياق كانت وحدة الأمة أكبر القرابين المقدمة على مذبح «الثورة العربية الكبرى» التي أرادت تأسيس دولة عربية على رأسها ملك عربي، أو ملوك عرب من السلالة الشريفة! وبعد الحرب العالمية الثانية كانت «الدولة الوطنية»، الصنم الذي نُصب ليكون أساس الهوية البديلة، أو الهوية المضادة للهوية الأصلية (الإسلامية) التي دافع عنها المجاهدون بدماء حياتهم. لقد أضاعت الأمة مائة سنة في التخبط والتردد بين «الثورة» و«الدولة»، اللتين كانتا مجرد سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءَ....

التشكل الكاذب

لا أدري إن خطر ببال القارئ يومًا أن الدولة العربية والدولة العبرية قد ولدتا من رحم الحقبة الاستعمارية: (الأردن وإسرائيل تكونتا في رحم الإمبراطورية البريطانية، بينما ولدت سوريا ولبنان من رحم الإمبراطورية الفرنسية! أما ليبيا فقد تكونت -اسمًا ومسمى- في رحم الفاشية الإيطالية).

مولد الدولتين (العربية والعبرية) يعبر عما يسميه شبنجلر «التشكل الكاذب»، وهو مفهوم نقله من دراسات طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى دراسة نشوء الحضارات. الحضارة التي تتكون على هامش حضارة أخرى تمثل عند شبنجلر تشكلًا كاذبًا لفقدها عنصر الأصالة وطابعها الظرفي.

وسأنتقل بمفهوم «التشكل الكاذب» من دراسة نشوء الحضارات إلى دراسة نشوء الدول، وأخص منها الدولة العربية التي ولدت، بين الحربين وبعد الحرب العالمية الثانية، لتمثل تشكلاً كاذبًا على هامش الحضارة الغربية وبفعلها. وعن هذا التشكل الكاذب تولدت هوية مضادة للهوية الأصلية (الإسلام). من هنا كانت لنا مصلحة في مراجعة تاريخية الدول العربية قديمًا وحديثًا.

أ- تاريخية التشكل الكاذب.

في الزمن الغابر كانت دولة الغساسنة تمثل تشكلًا كاذبًا -حسب مفهوم شبنجلر- لأنها دولة عربية على هامش الإمبراطورية الرومانية/البيزنطية. وكانت دولة المناذرة في تلك الحقبة تشكلًا من ذات النوع، لوجودها على هامش الإمبراطورية الفارسية.

الدول العربية المعاصرة نسخ مكررة من دولتي المناذرة والغساسنة لأنها نشأت على هامش الحضارة الأوربية وبفعلها. التاريخ يعيد نفسه! هذه المسوخ المعاصرة أعطت سكانها هويات متفرقة (ليبية ولبنانية وكويتية وبحرينية وصومالية.. إلخ)، وهي ليست هويات قُطرية وحسب، بل هويات مفرّقة ومختلقة قصدًا لتكون ضدًا على الهوية الجامعة (الإسلام).

وتتمثل مشكلتنا/مأساتنا الرئيسة في عدم إدراكنا لصدور هويتنا الحالية عن تشكل كاذب: (دولة؛ التبعية خاصيتها المميزة)! وهذه الحقيقة، التي لا نراها لطول عهدها مقارنة بقصر ذاكرتنا، هي ما سيكون محل البيان في هذا العرض الموجز.

في سنة 1899 سلخت بريطانيا السودان من مصر مثلما سلخت مصر من السلطنة العثمانية قبله. وقد تم السلخ في خطوتين في كلتا المرتين. مصر تم سلخها من السلطنة العثمانية باتفاقية لندن سنة 1840، التي أكدت على استقلال مصر في ظل السيادة العثمانية، ثم اكتمل السلخ مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة 1914 عندما تم إعلان مصر محمية بريطانية.

وفي الأثناء كان سلخ السودان يجري على قدم وساق، إذ بدأ السلخ باتفاقية كرومر-بطرس التي وضعت السودان تحت حكم بريطاني-مصري مشترك سنة 1899. واكتمل السلخ بقرار سوداني بالاستقلال سنة 1956.

وهكذا ولدت هوية مصرية سلخًا من الهوية الإسلامية، وبذات الإجراء (السلخ على خطوات) ولدت هوية سودانية إلى جانب الهوية المصرية.

ولم تتوقف المأساة عند ذاك الحد فقد سُلخ جنوب السودان من شماله بتمويل ليبي، ولو لم يمت القذافي لتم سلخ دارفور وبقية أقاليم السودان واحدًا بعد الآخر. ليس صدفة أن تفقد الحركات الانفصالية في السودان تأثيرها بموت القذافي. والسؤال الذي على أنصار القذافي الإجابة عنه هو: لمصلحة من كان القذافي ينفق أموال الخزينة الليبية على تقسيم السودان؟

ولم يختلف الحال في دار الغرب الإسلامي، حيث أنشأ عبد الكريم الخطابي مكتبًا لتحرير المغرب العربي (تونس والجزائر والمغرب) بالقاهرة سنة 1947، وشرع في تكوين جيش مغاربي لذاك الغرض، غير أن فرنسا كانت أسرع إلى التفاهم مع بورقيبة ومحمد الخامس على استقلال تونس والمغرب. وهكذا نالت تونس والمغرب استقلالًا كاذبًا، ليدفع الشعب الجزائري مليونًا من الشهداء ثمنًا للحاق بتونس والمغرب، ولتولد هويات مغاربية متنافرة، في صورة تشكل كاذب لثلاث دول على هامش الهيمنة الفرنسية.

وفي الشرق لم يكن الحال أفضل من الغرب فقد انفصلت باكستان عن الهند سنة 1947، ثم انفصلت بنغلاديش عن باكستان سنة 1971. ومن الجدير بالذكر أن اثنين من كبار المسلمين في الهند (أبو الأعلى المودودي وأبو الكلام آزاد) كانا ضد انفصال الباكستان عن الهند لأنه في غير صالح المسلمين. وضاعت الهند على المسلمين بسبب تشكل كاذب اسمه باكستان الغربية وباكستان الشرقية. ثم تحولت باكستان الشرقية إلى بنغلاديش، ومازال إقليم كشمير محل نزاع بين الهند وباكستان. كان بالإمكان أن يكون المسلمون أربعين بالمئة من سكان الهند، والكتلة الأكثر أهمية فيها.

المأساة أن أحدًا لم يتوقف بشكل جدي أمام ظاهرة الهوية المضادة التي تفرعت عن ظاهرة «التشكل الكاذب» في القرن العشرين. وما اكتبه أنا هنا مجرد تنبيه للظاهرة، ظاهرة الهوية المضادة الناشئة عن تشكل كاذب.

ب- نهاية التشكل الكاذب.

الدولة العربية والدولة العبرية شقيقتان بالمولد، ولهما عدو مشترك هو «الإسلام السياسي». هذا الإسلام السياسي هو الذي مسح دولتي المناذرة والغساسنة، ومسح معهما الامبراطوريتين الفارسية والرومانية قديمًا. وهذا الإسلام هو الذي سيمسح التشكل الكاذب في تسلسل يشبه تساقط أحجار الدومينو في عصرنا الحاضر. وأنت تحتاج أن تكون بموسوعية وعمق الشيخ محمد الغزالي لترى هذه الرؤية. يقول الشيخ رحمه الله: «إن زوال إسرائيل قد يسبقه زوال أنظمة عربية عاشت تضحك على شعوبها، ودمار مجتمعات عربية فرضت على نفسها الوهم والوهن..»!

إذا نظرت إلى خارطة المنطقة، والشرق الأوسط تحديدًا، فسترى الدول العربية تشكل ما يشبه بيت العنكبوت حول دولة بني إسرائيل. وخلف بيت العنكبوت هذا يتمترس التشكل الكاذب الصهيوني، الذي يرى في نفسه الإمبراطور المؤهل لإدارة مؤسسات الوهم والوهن في المنطقة. الشعب الوحيد الذي نجا من التشكل الكاذب هم الفلسطينيون، ولذا مازالوا يقاومون، ولم يصبهم الوهن الذي أصاب ساكنة الدول العربية.

لتصفية المقاومة الفلسطينية عقد مؤتمر في أوسلو لخلق تشكل كاذب فلسطيني تحت مسمى حل الدولتين، وكان الغرض من هذا «الحل» التمكين لسلطة فلسطينية تفرض الوهم والوهن على الضفة والقطاع. لقد عرض الصهاينة على مصر تسليمها غزة لأنها نجحت في قمع الأصل الذي عنه تفرعت

حركة المقاومة الإسلامية، لكن ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:26]!

التشكل الكاذب (بيت العنكبوت) وحدة واحدة ويحقق مصلحة جهة واحدة هي دولة بني إسرائيل، فإذا عبّر بيت العنكبوت عن وهنه يومًا ما وسقط، فلن يتأسف عليه أحد إلا صاحب المصلحة، ولا عزاء للمغفلين!

4- تجدد مواسم التشكل الكاذب.

أزمة الهوية من مواليد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى. وقد تجلت مظاهر الأزمة بوضوح في أفكار أعلام كبار من نوع أحمد حميد الله ومالك بن نبي، وهو ما بينته في رقم (1) من هذه السلسلة.

وظهور ما يسمى «الدولة الوطنية» هو المعبر عن ظهور الهوية المضادة بين الحربين (1918-1939) وبعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945). في هذا الموسم ظهر التشكل الكاذب في صورة ما يسمى «الدولة الوطنية»: «مملكة العراق» و«مملكة آل سعود» سنة 1932.

هذه «الدولة الوطنية» تمنح سكانها -وليس مواطنيها- جنسية (عراقية، سعودية، ليبية.. الخ). و«الجنسية» بدعة من أربع بدع مضادة للهوية الإسلامية الجامعة، ومفرقة للأمة الإسلامية الواحدة! الثلاثة الأخرى هي: «الحدود»، و«التأشيرة»، و«البدون»!

وبعد الحرب العالمية الثانية تعددت «الدولة الوطنية» حتى أخذت صورة الظاهرة في المشرق والمغرب. وهذا هو الموسم الأول للتشكل الكاذب. ومازال هناك موسم آخر قيد الانتظار، وهو تشكل/ظهور «دولة كردستان» و«دولة تامزغه»! وهذا الموسم الأخير سيكون الموسم الثاني، إن تحقق!

الهويتان الكردية والأمازغية هويتان مضادتان للهوية الإسلامية، وإذا تحولتا إلى دولتين فإن عدد الدول الإسلامية سيصبح ستين دولة. ومع ذلك مازال هناك من يتحدث عن «السنة والجماعة»! «الدولة الوطنية» هي التشكل الكاذب الذي يدحض وهم «الجماعة»! وسنة محمد ﷺ لا تسمح بأن يكون المسلمون ستين جماعة/دولة.

وإذا استقرت واستمرت الأمور على هذا المنوال فقد نشهد مواسم أخرى وازدهارًا آخر لظاهرة التشكل الكاذب: تشكل «تارقي»، و«تباوي»، و«برقاوي»، و«زغاوي». ولكن ليس في هذه الورقة متسع لأكثر من الموسمين: الأول والثاني.

أ- الموسم الأول.

في الحرب العالمية الأولى أبرمت بريطانيا ثلاثة عهود متناقضة؛ الأول مع الشريف حسين لإنشاء مملكة له وابنائه في بلاد المشرق، والثاني مع فرنسا لاقتسام ذات المشرق، والثالث مع اليهود لإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

ولما كانت «كلمة الغدر ليس فيها ما يكفي من القوة لوصف سلوك الانجليز» حسب وصف هنري ديجول (والد الجنرال) فقد احتاط الفرنسيون واليهود لأنفسهم، واستعد كل منهما لتنفيذ ما اتفق عليه مع الإنجليز ولو بالقوة المسلحة، ولو بالإرهاب. أخذت فرنسا بلاد الشام بالقوة وكذلك فعل اليهود بفلسطين. وكانت قوة المكر تسير جنبًا إلى جنب مع قوة السلاح.

وأما العرب فقد أخذوا على حين غرة لعدم معرفتهم بأصنام السوق وأصنام المسرح، وهي من أقوى الأسلحة في الصراع الفكري. حسب إفادة لورنس «العرب يؤمنون بالأشخاص وليس المؤسسات». اعتمادًا على ذلك عزل الانجليز ماكماهون تاركين المعول على عهوده (الشريف حسين) في

الظلمة. وقد رأى لورنس في عزل ماكمهون الدليل على أن الغدر هو جوهر سياسة الانجليزية، وما فعلوه مع الشريف حسين عمل غير شريف ولكنه ليس استثنائيًا!

أخذ الفرنسيون بلاد الشام بقوة السلاح، وأخذت بريطانيا فلسطين انتدابًا، فعينت عليها مندوبًا ساميًا يهوديًا اسمه هربرت صموئيل، ليمهد الأرض للمستوطنين الذين سيعلنون دولتهم بعد الحرب العالمية الثانية.

الدولة اليهودية والدولة العربية المعاصرة شقيقتان ولدتا من رحم الحقبة الاستعمارية. وهم حلفاء في مواجهة عدو واحد: «الإسلام السياسي»! كيف لا وهما الشقيقتان بالمولد المتحدتان في الصورة (تشكل كاذب)!

ب- الموسم الثاني.

وهذا الموسم مجرد حلم عند الأكراد والبربر/الأمازيغ. وقد يتحول هذا الحلم إلى كابوس مثلما حصل للسودانيين الجنوبيين الذين سأعالج فداحة موقفهم وما جروه على أنفسهم بالانفصال عن الشمال المرة القادمة. أما هذه المرة فسأقف على أحلام القوميين من الأكراد والأمازيغ الذين يتوقون إلى هوية ناقضة للإسلام سيرًا على سنة إخوانهم من القوميين: العرب والترك والفرس.

أولاً. كردستان.

إذا وجدت بقعة في العالم يجوز أن نطلق عليها «ملتقى القوميات» فهي كردستان (= بلاد الأكراد). في هذه البلاد تلتقي القوميات الفارسية والعربية والتركية لتشكل مطحنة للأكراد على مدى قرن كامل. الأكراد الذين من مصلحتهم رفع راية الإسلام (سيرًا على أثر صلاح الدين الأيوبي) رفعوا رايات

بديلة (القومية والماركسية) وقاتلوا إخوانهم في سبيل هوية مضادة للهوية الإسلامية ومفرقة للقوميات الاربعة. وبينما تتناحر القوميات الأربعة أمنت المخابرات والحكومات الاجنبية صب الزيت على النار كلما خبت النار قليلاً. ويحلم الأكراد بتأسيس كردستان الكبرى بالتعاون مع الموساد، وهذا التعاون مكشوف منذ ستينيات القرن الماضي، ولكنه يبرر الآن بأنه أصبح موضة تتبعها معظم شقيقات إسرائيل سرًا وعلنًا! ودولة كردستان التي سيبنيها التحالف مع الموساد لن تختلف عن الدولة التي بناها الانجليز للشريف حسين! وستكون لها ذات الوظيفة: حماية بيت العنكبوت!

ثانيًا. تامزغه.

إذا كانت دولة إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات، وكردستان الكبرى وراء ذلك، فإن تامزغه الكبرى ستمتد من الشاطئ الغربي للنيل إلى الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي. والاتصالات جارية على قدم وساق مع الموساد لتحقيق ذلك. وقد يعجل التطبيع بذلك، ولذا كان القوميون من الأمازيغ واليهود والحكومات العربية حلفاء في مشروع التطبيع الذي عرقلته غزة بانتصارها مؤخرًا، وإلى أجل غير مسمى.

قبل مائة سنة كان الأمازيغ أفضل حالاً، لأنهم رفضوا الظهير البربري الذي أصدرته فرنسا سنة 1930، وكان له هدفان: الأول هو سحب البربر من نطاق تطبيق الشريعة وإخضاعهم لأعرافهم، والثاني سحب القضايا العقارية من اختصاص المحاكم المغربية واخضاعها لمحاكم فرنسية. كان الهدف الأول للظهير هو سحب الهوية الإسلامية للبربر، بينما كان هدفه الثاني مصادرة أراضيهم. أسقط المغاربة الظهير بسلاح واحد: الهوية الإسلامية الجامعة.

في الوقت الحالي تخصص فرنسا ميزانيات ضخمة لخلق لغة أمازيغية

من العدم، وبناء هوية قومية بديلة تفجر دار الغرب الإسلامي من داخله، ليصبح صورة مغاربية لكردستان. والمجهود الحربي على هذه الجبهة لم يتوقف منذ مائة سنة وتجتمع عليه حاليًا فرنسا ودولة بني إسرائيل. وما يحبط هذا المشروع حتى الآن هو الأمازيغ المتشبثون بهويتهم الإسلامية، الهوية التي أسست دولتين كبيرتان قديمًا (المرابطون والموحدون). ومما يزيد الشريف شرفًا أن أسد الريف ومؤسس جمهورية فيه من الأمازيغ. قاد عبد الكريم الخطابي أسود الوغى تحت راية إسلامية ليهزم إسبانيا مثلما فعل جده طارق بن زياد!

هذه الهوية الجامعة، وهذا التاريخ المشرف، يتنازل عنه البعض لدواع قومية، مثلما فعل الشريف حسين عندما تحالف مع الإنجليز. ومن سار سيرة الشريف حسين لن يحقق، في النهاية، إلا ما حققه الشريف حسين: دولة بحجم الأردن وظيفتها حماية بيت العنكبوت!

الدولة المفتعلة!

إثر مشادة بينه وبين بيير الجمّيل (مؤسس حزب الكتائب)، وصف د/ عبد الرحمن بدوي دولة لبنان بأنها «دولة مفتعلة»![1] وبالإمكان إطلاق ذاك الوصف على أغلب الدول العربية فهي دول مفتعلة ولا مستقبل لها، فما تعانيه لبنان اليوم هو ما عانته بين 1975 و1990. وفي هذه السنة الأخيرة أبرم اتفاق الطائف الذي أمد لبنان بروح جديدة لبعض الوقت، وهي الروح التي تكاد تُزهق اليوم.

ما عاشته دولة لبنان من محن وأزمات بين 75 و90 تعيشه اليوم للمرة الثانية، ولكن ليس لوحدها، إذ يشاطرها ذات القدر والمصير كل من العراق وسوريا وليبيا واليمن والسودان، بينما تنتظر الجزائر والمغرب وبقية الدول العربية المفتعلة الأخرى مصيرًا مشابهًا، فالقضية قضية وقت لا أكثر!

وإذا وجد من أبناء الدول العربية من له عقل يفكر به فالواجب عليه التفكير في بديل لهذه الدول التي افُتعلت أصلاً لتكون بوهن بيت العنكبوت. وقد سبق لي وصف الدولة العربية المفتعلة بـ «الدولة-المعتقل»، و«الدولة-السلخانة»، قصد تجاوز مصطلحات من نوع «الدولة الفاشلة» و«الدولة

(1) بدوي سيرة حياتي، ج 1، ص 174.

المارقة»، فاستخدامنا للمصطلحين الأخيرين مجرد انقياد غير مشروط لمدرسة المركزية الغربية ولا يخدم قضيتنا بالمطلق، لأن الدولة العربية المعاصرة مشروع فشل من أول يوم، وفشلها تحصيل حاصل.

وإذا كان لدينا من العقل ما يفي بشروط تفكير منطقي فلابد أن نكون قد أدركنا أن أوربا قد اكتشفت نهاية صلاحية «الدولة الوطنية» مع منتصف القرن العشرين، فعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية هو عالم الإمبراطوريات (الأمريكية والسوفيتية). وللحاق بالركب الإمبراطوري بدأت أوربا مشروع «السوق الأوربية المشتركة »، قصد تحويلها لاحقًا إلى الولايات المتحدة الأوربية، التي اقتضى تحرير اقتصادها من قبضة الدولار نصف قرن من العمل المتواصل حتى إنشاء مصرف مركزي لأوربا المتحدة (اليورو). ولكن المشروع أجهض بالاستفتاء على «الدستور الأوربي» الذي رفضته الشعوب الأوربية، ليموت مشروع «الولايات المتحدة الأوربية» في منتصف الطريق.

الإمبراطوريات الأمريكية والروسية والصينية في مقدمة التنافس العالمي اليوم بينما أوربا والدول العربية متمسكون بذيل الولايات المتحدة خشية الغرق. أوربا تعاني من تناقض اقتصاد معولم وسياسة وطنية/داخلية عرجاء، بينما تحقق الدول العربية الفشل الذي صممت لتحقيقه، ليعود «المندوب السامي» أو «المقيم العام» في صورة «المبعوث الأممي»، وعلى جدول أعماله خيارات عدة من بينها إعادة تقسيم المقسم.

لقد اقترحت في السابق توحيد ليبيا وتونس والجزائر، وأعيد هذا الاقتراح اليوم إذ بغيره سيعاد تقسيم هذه الدول لتصبح ليبيا ثلاثة أو خمسة دول، ولتصبح تونس اثنتين، والجزائر اثنتين أو أكثر! الخيارات محدودة؛ إما إعادة توحيد هذا الفضاء المغاربي وإما إعادة تقسيمه، ليصبح عندنا عدد من

الدول التي تشكل بيت عنكبوت جديد تتم إدارته والتحكم فيه عن بعد، وفي غير مصلحة المساكين من ساكنته!

الذي جعل هذا الفضاء واحدًا في السابق يمكن أن يوحده من جديد، ولكن فقط بعد التخلص من الأفكار الميتة التي ورثناها عن الحضارة الإسلامية البائدة، والأفكار المميتة التي وضعها الاستعمار في طريقنا لنتخبل فيها! وهذا مشروع يحتاج من ثلاثين إلى ثلاثمائة سنة، ولذا قد يبدو غريبًا بالنسبة لمن لا يستطيع تجاوز اللحظة، أو الذي يعتقد أن ليس في الإمكان أبدع من الدولة المفتعلة!

سفسطة النيهوم

مازال بعض الكتاب يصفون الصادق النيهوم بالكاتب الكبير والمفكر! والنيهوم كاتب دون أدنى شك لكن الفكر منه براء، والمنهج لديه معدوم، فهو من طبقة السفسطائيين، لكن الفرق بين السفسطة والفكر ليس من اهتمامات الذين أسعدهم قلم النيهوم الساخر.

سأبدأ بما كتبه النيهوم بخصوص الكتاب العزيز ونصه كالتالي: «لا نزال ننظر إلى كتاب الله بعين أعرابي ميت منذ ألف سنة. ولا نزال نتكلم بلسانه ونردد في كتبنا وإذاعاتنا- ونعلم أطفالنا- كل ما دار في رأس ذلك الإعرابي الجاهل من أساطير، ابتداء من حبس ياجوج وماجوج وراء سور من الحديد، إلى فلق البحر، وحوار الشيطان مع آدم، وخروج يونس من بطن الحوت، وتسخير عفاريت الجن في خدمة سليمان. وهي قصص رواها القرآن عن التوراة وسماها [قصصاً]». [1]

قد لا يخطر على بال القارئ أن النيهوم يأخذ من القرآن نفس الموقف الذي اتخذته قريش عندما سمعت القرآن لأول مرة فردت «قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين». وإذا كان القارئ لا يقدر على

(1) مجلة الناقد، السنة السابعة، العدد 74 ص 22.

استيعاب هذا الربط، فإن فهم ونقد المصادر المعرفية للنهوم لن يكون في متناوله، لأن ما يستخدمه النهوم من أدوات تعود لأيام الإغريق، ولا أعتقد أن النهوم كان يعي ذلك! فسر الإغريق أساطيرهم تفسيرًا رمزيًا، (وكان النهوم يستن بسنتهم وينهج نهجهم عندما كتب «الرمز في القرآن» سنة 1967).

كان اليهود أول من أصيب بلوثة الأساطير الإغريقية وطرائق تفسيرها الرمزية، فطفقوا يفسرون التوراة تفسيرًا رمزيًا (فيما يسمى التلمود). ومن ذلك قول الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري (معاصر للمسيح عليه السلام) أن حواء رمز للأرض وآدم رمز للسماء! وهذا نقل شبه حرفي لأسطورة «أصل الآلهة» عند الفيلسوف الإغريقي هزيود. ثم تعامل مع قصة قابيل وهابيل على أنهما رموز للغرور والفضيلة: ومجمل القصة أن «الغرور» قتل «الفضيلة»...! ومن أعجب التفاسير الباطنية/الرمزية قول بعض الشيعة «مرج البحرين يلتقيان: علي وفاطمة» و«يخرج منهما اللؤلؤة والمرجان: الحسن والحسين»!

لقد لوثت الاساطير الإغريقية تفسير التوراة مثلما لوثت الإسرائيليات، فيما بعد، تفسير القرآن! لقد كانت الثقافة الاغريقية (فلسفتها وأساطيرها) من أكبر ملوثات ملة ابراهيم عليه السلام في حقبها الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام!

لنقرر إذن أن التاريخ يعيد نفسه، فمثلما ارتد اليهود عن دين موسى، وارتد المسيحيون عن دين عيسى، لا غرابة في أن يرتد بعض المسلمين عن دين محمد ﷺ، وقد حصل هذا لبعض القرشيين أنفسهم الذين تنقلوا بين الكفر والإيمان أكثر من مرة أيام الرسول عليه صلاة الله وسلامه!

ولكن في النهاية: القرآن ليس كلمات فارغة يسهل تدليسها لتصبح

أساطير فهو «كتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»، والإسلام ليس جينات تورث ويتناقلها الأبناء عن الاباء والامهات، وإنما نظرة للوجود وشريعة للحياة ومنهج للتفكير، من آمن بها فهو من المسلمين، ومن لم يؤمن بها فلا إكراه في الدين، ولكن من يسوي بين الوحي/القرآن والأسطورة لا يحسب على المسلمين رغم أنفهم.

كان النيهوم مفكرًا عربيًا وجزءًا من التيار السائد في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وقد مثل هذا التيار أحسن تمثيل حزب البعث الذي أطلق مصطلح «التراث» على الدين، وهو ذات المصطلح الذي يستخدمه النيهوم للتعبير عن رؤيته للإسلام.

كان إلغاء الإسلام هو المشروع الاستراتيجي لحزب البعث العربي الاشتراكي، ولكن نظرًا لخطورته لم يعلن عنه البعث بصراحة ووضوح إلا مرة واحدة (فيما أعلم)، وكان ذلك قبل النكسة ببضعة أسابيع (25 /04/ 1967) عندما كتب إبراهيم خلاص في جريدة «جيش الشعب» الصادرة عن ادارة التوجيه المعنوي بالقوات المسلحة السورية ما نصه: «استنجدت أمة العرب بالإله، فتشت عن القيم القديمة في الإسلام والمسيحية.. كل ذلك لم يجد فتيلاً»! ومن ثم يخلص فيلسوف البعث (أو العبث إن اردت الدقة) إلى أن: «الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هو خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن بأن الله والاديان والاقطاع ورأس المال وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متحف التاريخ». هذا النهج البعثي-العبثي يجعل للقرآن والسيرة النبوية وقصة عنتر بن شداد وقصة تأبط شراً ذات القيمة، فكلها تراث، كلها قصص وأساطير، ولا يختلف فيها الإسلام عما قبل الإسلام.

حزب البعث إذن هو المصدر الايديولوجي (وليس اللغوي) لمصطلح «التراث» الذي يستخدمه النهوم لتصنيف القرآن والإسلام ضمن الأساطير. ومن ذلك حديث النهوم عن «نظرية الحق الإلهي في الحكم» التي «تأخذ شكل القفص المغلق الذي بناه التراث العربي حول الإنسان»! لقد أصبح الإسلام قفصًا مغلقًا حول الإنسان العربي؛ هذا هو جوهر فكرة النهوم، لكنها لن تصل إلى الغافل من القراء لأن النهوم يستخدم مصطلح «التراث» وليس الإسلام.

كان النهوم يخاطب فريقين من الناس: الفريق الأول وهم الذين على شاكلته ويفهمون عباراته نصف المشفرة من خلال عبارة «الحق الإلهي» التي يسوي عن طريقها بين المسيحية والإسلام! والفريق الثاني مكون من المسلمين النيام الذين لن ينتبهوا إلى أن نظرية «الحق الإلهي في الحكم» فكرة مسيحية وليست إسلامية على الإطلاق، ولاسيما أن النهوم يهاجم بعض صور التخلف عند المسلمين، وهو ما يُسر له المسلم اعتقادًا منه أن النهوم ناصح أمين.

غير ان النهوم وغيره كثير، لا يفرق بين المسيحية والإسلام، ولا بين الدين والأسطورة، ولا بين الحق والباطل، فكل القديم عنده مخلفات أو «تراث» وصرة ميراث كما كان يسميه! وفي هذا السياق كانت افكار النهوم النقيض المباشر لأفكار إصلاحية حملها مفكرون من نوع مالك بن نبي، الذي نصح المسلمين بالانتقال مما يسمى الدفاع عن الإسلام إلى محاولة اكتشاف ما في الإسلام من وسائل الدفاع. كان النهوم يسير عكس هذه الفكرة تمامًا إذ كان هدفه إزاحة الإسلام من المشهد بتفجيره من الداخل باسم الحرية والتحرر، وهي مصطلحات لا تقل غموضًا عن مصطلح التراث الذي يستخدمه بدل «الإسلام» حتى لا يضطرب نوم النائمين!

كانت أفكار النهوم جزء من موجة الإلحاد التي ضربت المنطقة العربية والعالم، في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وهاجمت الدين بضراوة دون تفرقة بين الإسلام (دين الله الحق) وبقية الأديان التي يختلط فيها الحق والباطل! وتتمثل أوضح صور الإلحاد في المساواة بين كلام الله (القرآن) ونسج/أسطرة الخيال البشري (الأسطورة). هذه هي التهمة (الإلحاد) التي أوجهها للمصادر والمراجع التي صدر عنها فكر النهوم، ومن يستطع دفعها فليفعل، ليس لأن ذلك سينفع من أفضى إلى ما قدم، وإنما لأن ذلك سينفع الأفكار وتاريخها، وضرورة نقدها، وهو ما ينقص ثقافتنا الدائرة (بشكل شبه حصري) بين المدح والذم!

كان النهوم مفلسًا على مستوى المرجعية والمنهج، وهناك عدة شهادات بالخصوص؛ ومنها شهادة أحمد الفيتوري بأن النهوم كان يكتب «في القضايا الدينية الشائكة وقضايا المرأة.. دون مرجعية ما أو منهج»! كان النهوم يزخرف للغافلين الأفكار الوافدة التي تضرب في مصدر عقيدة الأمة (القرآن).

ومما يؤسف له ان يقول عاقل إن النهوم كان «قامة»، بالرغم من سلوكه في عالم الأشخاص (المسلمين) وموقفه (من القرآن) في عالم الأفكار، وعلى النحو الذي سأوجزه بعد قليل، لكن لابد أن أقول أولاً انني لم ات بشيء من عندي، وكل ما سيقرأه القارئ موجود على الشبكة العنكبوتية بشكل أكثر تفصيلاً، وبقلم كتاب تنويريين: أي ليسوا من «الظلاميين» الذين يدافعون عن عقيدتهم أن يصيبها التلوث، ودينهم أو وطنهم الذي يتم تفجيره من الداخل بخطط أغلبها خارجية.

اشتهر النهوم بأنه ناقد للأوضاع الاجتماعية، ويتم الدفاع عنه من ذاك الباب. لكن هذا الناقد لا يطيق النقد إذا توجه لفكره أو منهجه، مثلما حصل

عندما سأله رضوان أبوشويشة (في حوار سنة 1978) عن سر التشابه الكبير والغريب بين رواية هيمنجواي «الشيخ والبحر» وبين رواية النهوم «من مكة إلى هنا»، فما كان من النهوم إلا أن أنكر قراءة هيمنجواي أصلاً، ثم نصح ابوشويشة ان يقرأ كتابه «نقاش»، وكما لو كان من ابداعه الصرف!

وتقول المصادر المهتمة بفكر النهوم إن اقتباساته من هيمنجواي تظهر في إحدى رسائله إلى الفاخري! ثم تقول المصادر التي تكشف الهرطقات (التي يحسبها الغافل ابداعاً) أن كتاب «نقاش» مليء باقتباسات من إريك فروم (الذي يتحدث عن مكان الإنسان في الكون) وهوما يبين مستوى الابداع المسروق! وفي سياق مصادر النهوم المُغفَلة، مرة أخرى، أفاد علي ابوزعكوك أحمد ابراهيم الفقيه أن الصادق كان يستعين بتفسير مولانا محمد على صاحب التفسير المعروف عند طائفة الأحمدية (القديانية)، وأن الصادق عرض عليه التفسير عندما أقام عنده في هلسنكي سنة 1968.

وفي كل ما سلف لا يتكتم النهوم عن سرقاته، وإنما يغضب إذا اشتم رائحة شك عند أحد النقاد، مثلما حصل عندما قال رضوان أبوشويشة: «إن النهوم لا يمتلك مشروعاً فكرياً حقيقياً، وإن مقالاته هي مجرد جام غضب يصبه على رجالات الدين»!

هرطقات النهوم «تفكير» و«تنوير» أما نقده والشك في مصادره فهو معصية، وعدوان يثير الامتعاض...! وبالرغم من أن أحداً لم يشهد لهذا المبدع التنويري باستقبال القبلة، إلا أنه في إحدى المناسبات تحدث عن الصلاة بشكل أذهل أحمد ابراهيم الفقيه، الذي جاءت شهادته بالخصوص كالتالي: «سألت كل من كان لصيقا بصادق النهوم عارفا ببرنامجه اليومي في بنغازي.. إن كانوا قد رأوا صادق يدخل مسجدا وعرفت منهم ان احدا لم يره

يمارس شعيرة الصلاة داخل المسجد أو خارجه»! هذه شهادة من كان لصيقاً بالنيهوم، وهي تغني عن كل شهادة أخرى، بما فيها شهادتي المجروحة لأنها بلغة العصور الوسطى، مثل الصلاة، أو بالأحرى مثل الإسلام عند فرسان الحداثة.

ولم يكن النيهوم بعيداً عن السلطة، ولم تكن السلطة بعيدة عن أحلامه، وهوما فاجأ صديقه إبراهيم الكوني الذي جاءت شهادته بالخصوص كالتالي: «جاء اليوم الذي أدلى لي فيه باعتراف لم أقرأ له حسابًا، اعتراف أدهشني، ربما بسبب فكرتي الرومانسية القديمة عن الإبداع كقدس أقداس. قال لي يومها إن غايته كانت دوماً السلطة، كل ما هنالك أن العسكر ذهبوا إليها من أقصر طريق، وخسرها هو لأنه سعى إليها من أبعد طريق..»!

كان النيهوم من القلائل الذين فاتتهم السلطة لكن لم تفتهم الثروة، فأدرك سعة الإنفاق من ثروات ليبيا المهدورة؛ إذ لم يبخل عليه العسكر، بل كان كريماً معه إلى أبعد الحدود. وبدأ كرم العسكر بتوفير دارة للنيهوم في قرقارش/طرابلس (سنة 1969) يمارس فيها طقوسه ويظهر فيها مصدر إلهامه بكل وضوح! وفي هذا يقول أحمد ابراهيم الفقيه أن النيهوم كان «يتوغل في المتاهات التي ينقلها اليه خياله المدعوم بطاقة العشب المخلوط بالسيجارة، لا يكاد يشاركه احد الكلام، لأنه لا يريد ان يقطع هذا الاسترسال الجميل الفاتن، وهذه الأفكار التي تنساب على لسان قائلها بصوته الجهوري الخلاب، واسلوبه البارع في الالقاء، وطريقته المسرحية في الاداء والحركات التي لا يقدر عليها الا كبار اهل التمثيل، مسيطرا بهذه الأفكار والملكات على اسماع وانظار وعقول وقلوب السامعين [المريدين]»، وهوما وصفه علي فهمي خشيم بـ«الظاهرة النيهومية».

ولكي يظل النهوم أحد مصادر الإلهام للجيل الجديد، وعلى النحو السالف بيانه، تم إبادة كل من يحمل شيئاً من فكر العصور الوسطى (الإسلام) مثل عمرو خليفة النامي ومحمد مصطفى رمضان! وفي هذا السياق لم يظهر على النهوم أي امتعاض تجاه ما قام به النظام في حق الليبيين من إعدامات في الجامعة وعلى شاشات التلفاز، بل ظل على علاقة مالية متينة مع القذافي حتى وافته المنية في سويسرا! وهكذا تم استبدال الفكر الإسلامي المعقول بالفكر الحداثي المسطول (من السطلة)، فماذا حقق هذا الفكر طيلة العقود الأربعة الماضية؟!

تدفقت الثروة على النهوم في سويسرا حتى أصبح أحد أثرياء العالم. وإذا كان رقم واحد يكفي لتدليل على ذلك فقد تم (سنة 1988) تحويل مبلغ ثلاثة عشر مليون دولار (13,000,000 $) للنهوم لشراء مطبعة، لكنه لم يشترها، بل أنفق المبلغ أو جزء منه على سهراته في نادي يسمى نادي المليونيرات، ويقع على الحدود الفرنسية-السويسرية! وكان بعض الذين يقصدون النهوم في جنيف «يجدون فوق الأكل والشراب والإقامة فائضا لا ينفد من هذه الاعشاب السحرية لمن يحب ان يتعاطاها رغم ما تحتاجه من اموال طائلة لشرائها» (تجد التفاصيل في إفادة الفقيه المشار إليها ادناه)! كان الإنفاق على هذه الأعشاب من الخزينة العامة تعبيرًا من النهوم عن حبه الذي لا ينقطع لـ«باعة النبيذ وباعة الحشيش»، وهو الحب الذي عبر عنه أول مرة في اللقاء الذي اجراه معه إبراهيم الكوني سنة 1969.

وإذا كانت الذكرى تنفع المؤمنين فلابد من تذكيركم أنه عندما كان النهوم يرفل في نعيم الثروة (الليبية) في سويسرا كان مصلي الفجر في ليبيا (على قلتهم في ذاك الزمان) يقتادون من المساجد إلى مراكز الشرطة ليضربوا ضرباً مبرحاً.

ومع ذلك، كلما انفجر الإرهاب هنا أوهناك، سارع التنويريون لإدانة التعليم الديني وليس الإرهاب الحكومي.

وقد يفيدكم ايضًا التذكير بأن «تجييش المدن» فكرة من أفكار النيهوم لأنه رأى المعسكرات تتحول إلى مدن فاقترح على القذافي تحويل المدن إلى معسكرت وليس تحويل المعسكرات إلى مدن! هذا هوالابداع: مسطول يفكر ومجنون ينفذ، والتكلفة على الخزينة العامة! هذا النوع من الفكر والإبداع كلفنا كل ما أتى به النفط من مداخيل، ومنها ما حُول للنيهوم في سويسرا بشكل مباشر لإنتاج أشرطة مصورة عن «الشعب المسلح»، ليشاهدها «الشعب المتملح»!

ولكي ينتشر هذا النوع من التنوير أنشأ له النيهوم مجلة اسمها «الناقد» في لندن، على أساس أنها من إصدارات دار الريس، ولكنها ماتت بموت النيهوم فعرف أصحاب الاهتمام انه إن لم يكن شريكاً فيها، كما يشاع، فهو صاحبها والمنفق عليها لنشر هرطقاته التي ختمها بمقالة «المجازر المعصومة..»، التي يساوي فيها بين الوحي والأسطورة!

وإذا كانت المساواة بين الوحي والأسطورة ابداعًا، عندها يصبح الوليد ابن المغيرة أول المبدعين العرب لأن فيه نزلت: «عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين»! هذا هو النيهوم فكراً وسلوكاً لمن أراد الدفاع عن فكره، أو سلوكه، أو كليهما...!

حرب المصطلحات

تلف عتمة معرفية تامة إحدى جبهات الحرب على الإسلام وهي جبهة المصطلحات، حيث تجري الحرب دون أن يكون للمسلمين رد فعل مكافئ للفعل في القوة ومضاد له في الاتجاه! الحرب بالمصطلحات تقع خارج دائرة إدراك المسلمين المحدود جداً، حتى أنه يكاد يكون طفولياً! وفي هذه العتمة التامة يرفض الرئيس أوباما استخدام مصطلح «الإرهاب الإسلامي» حتى لا يضفي على الحرب طابع القداسة -حسب زعمه- بينما يسارع الرئيس الفرنسي بعد مذبحة نيس، ودونالد ترامب بعد انتخابه، إلى استخدام المصطلح دون تردد! أما البابا الذي يتمتع بخبرة صليبية، تراكمت عبر عشرين قرنًا من الصمود في وجه الحق، فقد رفض استخدام المصطلح بعد قتل كاهن في كنيسة فرنسية، ونهى عن ربط الإسلام بالإرهاب لأن من وجهة نظره -التي من شأنها أن تزيد غفلة المسلمين تعقيداً- هناك إرهابيون كاثوليك، فالإرهاب موجود لدى الجميع!

بابا روما يدافع عن الإسلام، ولا ينزه الكاثوليك عن الإرهاب...! هل بعد هذا إنصاف؟! لكن لو قال البابا غير هذا الكلام (الذي يضّيع المسلم جهودًا جبارة في اللف والدوران حتى يأتي بمثله) لاستيقظ النائمون وانتبه الغافلون الذين لا يرون جيوش البابا التبشيرية وهي تعمل في صمت جنوب المتوسط.

ولو انتبه الغافلون لرأوا سكاكين الصليبية وهي تذبح مسلمي جنوب الصحراء كما تُذبح الدواب دون رحمة (الذبح منشور على اليوتيوب).

وذكر بعض الأشخاص هنا مجرد عرض للاستخدامات السياسية لمفردات الحرب التي مازالت في عالم الغيب بالنسبة للغالبية العظمى من المسلمين كما تقدم. لنعد إذن لعالم الأفكار/المصطلحات بعيداً عن الأشخاص، ولنتوقف عند أكثر المصطلحات استخداماً دون نقد هذه الايام، وهو مصطلح «الإسلام السياسي»؛ ومصدر هذا المصطلح مركز أمريكي متخصص في الحرب على الإسلام، جهاراً نهاراً، واسمه مركز «دراسات الإسلام السياسي».

وكلما صدر عن هذا المركز صوت سُمع رجع صداه على كافة حيطان المنطقة! وهل للحيطان العربية وظيفة غير أسماعنا رجع صدى الأصوات/الأفكار الصادرة عن أشد الناس عداوة للذين أمنوا؟! ارجوا أن تعذرني الحيطان حين أمارس بعض النقد في حقها، لأنه لا يصدر عنها إلا رجع صدى أفكار العدو، ونقاشها للإسلام ليس سوى رجع صدى لشتائم كالها الاوربيون للكنيسة من قبل ومنها «الظلامية»، كمثال واحد حتى لا نغرق في إحصائية الشتائم!

ويغفل المشتغلون باستيراد الشتائم لتوجيهها للإسلام، والإسلاميين، أن عدميًا مثل نيتشه ينحاز للإسلام ضداً على المسيحية! فبعد أن يستغرب كيف يمكن لألماني أن يشعر بأنه مسيحي، وبعد أن يدين بسمارك عن الإعلان عن مسيحيته دون حياء، يقرر نيتشه أنه لم يعد هناك خيار بين المسيحية والإسلام: حرب وصداقة مع الإسلام وحرب حتى الفناء مع روما![1]

(1) كما يقتبس من أقوال فريدريك الثاني، في الفقرة 60 من كتابه نقيض المسيح The Anti-Christ، ترجمة علي مصباح، منشورات دار الجمل.

ومن المصطلحات المستخدمة لشتم المسلمين/الإسلاميين هذه الايام مصطلح «الايديولوجيا»، فإذا قيل عن إنسان أو حزب أنه مؤدلج، كان القصد القريب هو إخافه الناس من الأفكار الأصيلة عبر الغموض الذي يكتنف مصطلح «الايديولوجيا»، أما القصد البعيد فهو تحويل الناس إلى دواب دون أفكار، تعتقد أن وظيفتها في هذه الحياة لا تختلف عن وظائف بقية الدواب: (الاستهلاك والتكاثر)! وأنا لا أنكر على أي إنسان حقه في أن يتنكر لآدميته، فهذا الحق هو مجمل «حقوق الإنسان»؛ أما أنا فأود أن أحتفظ بآدميتي التي لا تكتمل إلا بالإسلام، والإسلام هو ما تشير إليه الحيطان عندما تطلق مصطلح «ايديولوجيا»، الذي اشتق منه فعل «أدلجة.. يؤدلج.. فهو مؤدلج»، فمن أعلن الإسلام ودعا إليه فهو مؤدلج؛ وما أفهمه أنا من هذا الوصف أن المؤدلج هو الإنسان (المسلم) الذي لم يعد مجرد دابة!

من الضروري أن يعلم المسلم في خضم حرب الأفكار أن دينه دين «واجبات الإنسان» وحضارته كانت «حضارة واجبات الإنسان» وليس «حقوق الإنسان» التي تضم كل أنواع الشذوذ! وما تبني المسلم لفكرة «حقوق الإنسان» كدين عالمي جديد (وإن غفل الغافلون عن هذه الحقيقة) إلا مظهر من مظاهر الانقلاب الذي طرأ على حياته نتيجة اعتماده الحضارة الغربية مصدراً لأفكاره ومعتقداته! فعندما كان الدين الإسلامي مصدر العقيدة والشريعة معاً قال المؤدلج مصطفى بن زكري:

وظائف الإنسان في دنياه ... أن يعبد الله وأن يخشاه
وأن يكون راضياً بما قضى ... ولم يكن في حكمه معترضا
واعلم بأن العلم نور وهدى ... والجهل لا يأتي بخير أبدا

اختلط على المسلمين الحابل بالنابل حتى أصبح علم أوربا هو العلم

الوحيد، وفي هذا السياق اتُهم السلطان عبد الحميد الثاني، لأنه لم يبع فلسطين لليهود، بمعاداة العلم، فرد في مذكراته قائلاً: «أنا لا أخشى علم أوربا، ما أخشاه هو الجهل به»!

ومن العلوم التي مازلنا نجهلها من علوم أوربا السياسية هو دور الميثولوجيا «علم الأسطورة» في السياسات الغربية بخصوص المسلمين، وعلى رأسها الإرهاب! ولا أعتقد أننا طوال تاريخنا قد تحولنا مرة واحدة إلى مضحكة الدنيا مثلما حدث لنا عندما خضنا مع الخائضين في استخدام مصطلح الحرب على الإرهاب: أمريكا وأوربا وإسرائيل يستخدمون المصطلح لقتل أبناء المسلمين، والمسلمون يستخدمون نفس المصطلح لقتل ابنائهم، فهل شهد تاريخنا الحديث والمعاصر عار مثل هذا، أو حماقة أسوأ من هذه؟!

الكثير من الحمقى أعلنوا انضمامهم للحرب على الإرهاب لينجزوا حربهم الخاصة، فلم يجنوا غير الخذلان، لجهلهم أن الإرهاب جزء من الميثولوجيا الغربية التي تصارع الإسلام على جبهة الأفكار، دون أن يكون المسلمون مؤهلين للحرب على هذه الجبهة! لقد اكتشف مالك بن نبي هذه الحقيقة بذكائه الفطري عندما وجد نفسه، في ثلاثينيات القرن الماضي، وحيداً أعزلَ على الجبهة فكتب للأجيال اللاحقة تقرير (شبه وصية) يقول فيه: «كنت شابًا مجردًا من أي سلاح سوى المواهب الطبيعية في ساحة يجب أن يكون فيها للمرء إعداد تربوي جيد يشكل عماداً قوياً وتتأسس عليه التجربة»!

الحمقى يخوضون باسم الحرب على الإرهاب أشرس حرب على المنظمة الإسلامية التي تعلم وتربي وتنظم! المساكين لم يدركوا بعد أن الحرب على الإسلام، وما استخدام مصطلح «الحرب على الإرهاب» في هذا السياق سوى دخان يحجب حقيقة الحرب على صبيان الفكر الذين يرعبهم لفظ

«الأيديولوجيا»، وأكبر همهم ومبلغ علمهم هو التصدي لـ«لإسلام السياسي»!
ولا أظن أن العدو يحتاجهم لأكثر من ذلك!

اقرأوا نيتشه بشرط بن خلدون!

مقدمة ابن خلدون بمنزلة التقرير الختامي (ديوان المبتدأ والخبر) عن الحضارة الإسلامية التي عاصر صاحب المقدمة أفول نجمها، فكان للفلسفة بطبيعة الحال مكان في تقريره هذا باعتبارها من العلوم الوافدة. وحيث حظيت الفلسفة باستقبال باهر من بعض الفقهاء وصد ظاهر من البعض الآخر، كان لابن خلدون في النهاية الموقف الوسط، إذ اكتفى بوضع شرط جوهري لدراسة الفلسفة وترك الباقي للدارس.

ما هو الشرط الذي وضعه ابن خلدون لدراسة الفلسفة في نهاية القرن الثامن للهجرة؟ وما الفائدة من قراءة نيتشه وهو بداية ما بعد الحداثة؟ سأجيب عن الأسئلة من خلال نظرة على تقرير ابن خلدون بخصوص الفلسفة لأنتهي إلى ما تميز به نيتشه (عن تيار الحداثة) ونهجه في «قلب كل القيم» كبداية لـ«ما بعد الحداثة».

أولاً. تقرير ابن خلدون بخصوص الفلسفة.

خصص ابن خلدون الفصل الحادي والثلاثون في المقدمة لـ «إبطال الفلسفة وفساد منتحلها»، ثم وضع شرطاً لمن يروم دراستها على كل حال، لأن دراستها لا تخلوا من فائدة، وعلى التفصيل الذي سنراه بعد قليل! لكن

قبل ذلك سأبدأ، على سبيل التقديم، بتبيان محنة الفلسفة في الحضارة الإسلامية، وسبب تلك المحنة، وموقف ابن خلدون منها.

أ) محنة الفلسفة. اختلاط الحق بالباطل في الفلسفة جعلها تواجه محاولة استئصالها جملة. وفي هذا السياق اتخذ بعض العلماء مواقف متشددة حيالها، أشهرها موقف ابن الصلاح الشهرزوري الذي قال: «الفلسفة أس السفه والانحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيغ والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة». أما الإمام الذهبي فقد كان أكثر دقة وتركيزاً في هجومه بتحديده نوع الفلسفة التي يهاجمها، وهي الإلهية فقال: «أن الفلسفة الإلهية لا ينظر فيها من يرجى فلاحه، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه. فإن هذا العلم في شق، وما جاءت به الرسل في شق. وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعملاً إلا التحريق والإعدام من الوجود، إذ الدين ما زال كاملاً حتى تُرجمت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون، فلو حرقت وأعدمت لكان فتحاً مبيناً».

«الفلسفة الإلهية»، (وتسمى أحياناً «العلم الإلهي» كما تسمى «الإلهيات») هي ما يسمى «اللاهوت» عند الكنيسة، وأصل الكلمة مركب من (إله = Theo) و (علم = Logy). وهي من مشمولات الفلسفة الإغريقية التي دخلت دائرة المعرفة الإسلامية بعدما استقرت بالمسيحية، وكان ابن خلدون شغوفاً بها في بداياته ثم اكتشف أنها ليست شيئاً سوى الظن، والظن لا يغني عن الحق (الوحي) شيئا. وقد جاء نقد ابن خلدون لـ«العلم الإلهي» على النحو التالي، «وقال كبيرهم أفلاطون: إن الإلهيات لا يوصل فيها إلى يقين، وإنما يقال فيها بالأحق و الأولى - يعني الظن- و إذا كنا إنما نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فيكفينا الظن الذي كان أولاً فأي فائدة لهذه العلوم والاشتغال

بها ونحن إنما عنايتنا بتحصيل اليقين فيما وراء الحس من الموجودات، وهذه هي غاية الأفكار الإنسانية عندهم». واضح إذن عند ابن خلدون أن البطلان متعلق بطلب معرفة ما وراء الحس، وهو ما يسمى عند المسلمين بـ«الغيب»، وهذا ما لا يتم الإطلاع عليه إلا من طريق الوحي، وكل محاولة إنسانية من غير طريق الوحي (القرآن) لا تتجاوز الظن والتخمين. وفي هذا السياق كان الذهبي في غاية الدقة عندما قال: «هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق»! الرسل جاءت بالحق (ذلك الكتاب لا ريب فيه) والفلاسفة جاءوا بالشك (أنا أفكر فأنا موجود)!

الرسول على بينة من ربه والفيلسوف شاك في وجود ذاته!

ب) شرط ابن خلدون لدراسة الفلسفة.

رأى ابن خلدون في الفلسفة «ثمرة واحدة وهي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة والحجاج لتحصيل ملكة الجودة والصواب في البراهين». ويعاضد رأي ابن خلدون القديم رأي تكون عن تجربة لأحد مجتهدي الزمن المعاصر وهو الشيخ راشد الغنوشي، الذي يرى أن دراسة الفلسفة تطرح على الإنسان الأسئلة، وتدفعه إلى التعمق في المسائل وعدم قبول السائد!

ولما كان من المحتمل أن تضع الفلسفة صاحبها على طريق الضلال البعيد (على رأي الشهرزوري والذهبي) نصح ابن خلدون دارس الفلسفة «أن يكون متحرزًا جهده من معاطبها، وليكن النظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه، ولا يكبّن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة، فقل أن يسلم من معاطبها». اشترط ابن خلدون على دارس الفلسفة «الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه» إذا أراد السلامة من معاطب الفلسفة، فإذا لم يتم الإيفاء بهذا الشرط وأكب عليها الدارس/المسلم وهو

خلو من علوم الملة فإن من المحتمل أن لا يسلم من الانحراف عن الصراط المستقيم والضياع في متاهات لا آخر لها! ولا تصدق توقعات ابن خلدون صدقها على أبناء المسلمين الذين قرأءوا نيتشه قبل الإيفاء بالشرط الوارد عن ابن خلدون فضلوا ضلالاً بعيداً.

ثانيا. نيتشه: المنهج والنتيجة.

فريدريش نيتشه (1844 – 1900) فيلسوف ألماني جاء بعد كانط و هيجل، وكان ناقداً لهما وللفلسفة الأوربية التي يمثلانها. وكان منهج نيتشه من الحدة والصرامة ما جعله كاتب التقرير الختامي للحداثة، ومفتتح ما بعد الحداثة. وسأتناول فيما يلي منهج نيتشه والنتيجة التي خرج بها، وهي نتيجة عظيمة الفائدة للمسلمين، وإن لم يفطن المسلمون لذلك حتى الآن.

أ) منهج نيتشه: قلب كل القيم.

لقد ساءني اكتشاف أن نيتشه لم يكن بين أعلام الفلسفة الحديثة في مقرر الفلسفة لطلبة الشهادة الثانوية في ليبيا. ولا أدري ما السبب في ذلك، ولعل مؤلفي الكتاب/المقرر قد نظروا إلى نيتشه بعيون الحضارة الغربية حيث يصنف «عدمي»، لأن نيتشه اتهم المسيحية/الكنيسة بالعدمية فارتدت الصفة عليه فأصابه خصومه كهدف ولم يصيبوا الهدف منه، وهو ما كان يخشاه هو نفسه! حكمَ نيتشه على المسيحية بالإعدام، وأصدر بذلك قانوناً (في 30 سبتمبر 1888). يتكون القانون من سبع بنود وعنوانه «قانون ضد المسيحية» وهو في عبارة نيتشه إعلان «حرب بلا هوادة على الرذيلة: الرذيلة هي المسيحية» حسب ما جاء في مقدمة النص الذي يجري في بعض بنوده كالتالي؛

البند الأول. «رذيلة هو كل نوع من مناقضة الطبيعة. والنوع البشري الأكثر رذيلة هو القس: إنه يعلّم ما يناقض الطبيعة».

البند الثاني. «كل اشتراك في قُدّاس اعتداء على الأخلاق العمومية الحميدة. يجب التعامل بأكثر شدة مع البروتستانت مما يُتعامل مع الكاثوليك، وبشدة أكبر مع البروتستانت الليبراليين من أولئك المتمسكين باحترام صارم للنواميس. يزداد الطابع الإجرامي حدة لدى المسيحي كلما اقترب أكثر من العلم. وبالتالي يكون أكثر المجرمين إجراماً هو الفيلسوف».[1]

لماذا يكون الفيلسوف الأوربي أخطر المجرمين في نظر نيتشه؟ لأن الفيلسوف هو تعريفاً «محب الحكمة»، وكل من كان لديه أقل قدر من الحكمة يدرك أن المسيحية باطل، ولذا يعد فيلسوف الحداثة مجرماً إذ يتستر على المسيحية التي لا علاقة لها بما جاء به المسيح، وهذا هو السلوك الذي يدينه نيتشه بأشد عبارة في ضوء منجزات الحداثة العلمية حيث يقرر: «دناءة أن يكون المرء مسيحيًا في يومنا هذا»! هذه هي محصلة نيتشه الفلسفية، بما أن الفلسفة طلبٌ للحكمة.

لقد أراد نيتشه أن يختتم فلسفته بكتاب يكون عنوانه «إرادة القوة»، لكنه غير رأيه في آخر لحظة، وكتب «نقيض المسيح» و «غسق الأصنام»، وفيهما أودع خلاصة فكره الهادف إلى «قلب كل القيم» اليهودية-المسيحية. وسأعود إلى منهج نيتشه في «قلب كل القيم» ولكن بعد الإشارة إلى أن بعض أبناء المسلمين الذين قرءوا نيتشه، دون فقه في الدين أو عمق في الفلسفة، طفقوا يطبقون ما وضعه نيتشه لهدم المسيحية على الإسلام، فهدموا الإسلام عن جهل، وضيعوا نيتشه كفلسفة ومنهج! لننظر الآن إلى

(1) فريدريش نيتشه، نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، ص 150

منهج نيتشه في «قلب كل القيم» مطبقاً على العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة اليهودية-المسيحية لنرى كيف يليق بالإسلام أن يكون منهاجًا لما بعد الحداثة!

ب) القيم مقلوبة: (الخير والشر).

عاشت أوربا دهوراً طويلة مقتنعة بأن الإسلام هو الشر المتربص بها، فجاء نيتشه ليقرر أن المسيحية هي الشر الذي حرم أوربا خيرات الحضارة الإسلامية، مثلما حرمها من ثمرات الحضارتين الإغريقية والرومانية من قبل. ولما كانت أوربا تعيش على قناعة بأن المسيحية هي الخير، فقد قلب نيتشه قيمتي الخير والشر في أوربا بطريقة ثورية، حيث صنف الحضارة الإسلامية الخير الذي فقدته أوربا بسبب الشر(المسيحية) والمؤسسة الشريرة (الكنيسة) التي اشتغلت بالصد عن سبيل الله طوال تاريخها، لأن «المسيحية تنفي الكنيسة» في نظر نيتشه.

1) الخير الذي فات أوربا. ليس في المسيحية وهي إسلام ما قبل الإسلام، أي سلطة/مؤسسة دينية. الكنيسة هي سلطة الرهبان مثلما كان الكنيس اليهودي سلطة الأحبار، ومن خلال هاتين السلطتين اتخذ اليهود والمسيحيين ﴿ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 31]، يحرمون عليهم الحلال ويحلون لهم المحرمات، وفي هذا السياق جعلوا الإسلام من المحرمات وبالنتيجة حرموا ساكنة أوربا من خيرات الحضارة الإسلامية. في الفقرة 60 من كتابه نقيض المسيح يؤكد نيتشه هذا بالنص: « حرمتنا المسيحية من جني ثمار الحضارات العتيقة، ومن بعد حرمتنا مرة أخرى من جني ثمار الحضارة الإسلامية. لقد تم الازدراء بذلك العالم الثقافي الموريسكي البديع الذي عرفته إسبانيا... والذي هو أقرب إلينا، ويخاطب حواسنا وذوقنا أكثر مما تفعل روما واليونان!

ولم يخفق نيتشه في تبيان «إن الكنيسة تعارض حتى النظافة»[1]. الكنيسة تعارض سنن الفطرة، وهي أعمال النظافة التي حافظ عليها كل الأنبياء وإبراهيم أولهم إذ كان «أول الإجراءات المسيحية التي اتخذت على إثر طرد الموريسكيين [هو] غلق الحمامات العمومية التي كان لقرطبة وحدها 270 منها»[2]!

مؤسسة الصد عن سبيل الله. لماذا تحقد المسيحية على الحضارة الإسلامية؟ «لأنها من منزلة نبيلة، ولأنها مشروطة في نشأتها بغرائز فحولية، ولأنها تقول نعم للحياة، مع زيادة في الرهافة النادرة لبدائع الحياة الموريسكية»[3]، يجيب نيتشه. الحضارة الإسلامية في تقدير نيتشه «حضارة كان من المفترض أن يشعر حتى قرننا التاسع عشر بنفسه فقيرًا جدًا ومتأخرا للغاية مقارنة بها»[4]. لكن ما السر في كل هذا البغض للإسلام الذي يصل حد تحريم النظافة؟ إنه الحقد - يجيب نيتشه- «الحقد على كل ما هو واقع العنصر المحرك، والمحرك الوحيد المتأصل في عمق المسيحية. ماذا ينتج عن ذلك؟ ينتج عن ذلك أن الخطأ متجذر في المجال البسيكولوجي [النفسي] أيضاً، يعني أنه محدد للوجود، أي جوهرا. لنحذف فكرة واحدة من هنا، ولنضع حقيقة واحدة مكانها، وإذا المسيحية بكليتها تتهاوى إلى العدم»[5].

إذا حذفنا فكرة واحدة من المسيحية (إن الله ثالث ثلاثة)، ووضعنا حقيقة واحدة مكانها (لا إله إلا الله) فهل يبقى من المسيحية شيء؟!

(1) نيتشه، نقيض المسيح، مرجع سابق، فقرة 21.
(2) المرجع السابق، ذات الفقرة.
(3) المرجع السابق، فقرة 60.
(4) المرجع السابق نفسه.
(5) المرجع السابق، فقرة 39.

قول النصارى إن الله ثالث ثلاثة هو الخطأ/الجوهر الذي تفرعت عنه كل الأخطاء بما فيها تحريم النظافة، فالمسيحية كـ «ديانة ليست محددة بالأخطاء فحسب، بل على درجة من الابتكار وحتى من العبقرية في ابتداع الأخطاء الأكثر تسميماً للقلب والحياة»[1]. كلما مر الزمن كلما ازدادت أخطاء المسيحية وكلما زادت أخطاؤها زادت سمومها في القلب والحياة، وهنا يصل نيتشه لنتيجة حاسمة: « كل ما يعتبره اللاهوتي حقيقة لا بد أن يكون خطأ: قاعدة يمكن أن تتخذ معياراً للحقيقة»[2]!

قد يخفي طول العهد كل هذه الحقائق العلمية والإسهامات النيتشويه على الغافلين.. لكن الذكرى تنفع المؤمنين. لقد صبت الحضارة اليهودية-المسيحية سمومها في قلوب أبناء المسلمين الذين لم يتفقهوا في الدين ولم يتلوا الكتاب المبين؛ هؤلاء يمموا وجوههم شطر أوربا للتعلم دون أدنى تحصين فتعلموا، من بين ما تعلموه، البغض الصهيوني-الصليبي لإخوانهم في الدين!

ولم ينتبه إلا القليل للمناورات الصليبية، ومن هؤلاء حمودة بن الساعي، الذي أنقذ مالك بن نبي من سموم لويس ماسينيون الذي كاد أن يدفعه إلى الارتداد عن دينه! قليل من الناس يعلم اليوم من يكون حمودة بن الساعي ومن يكون لويس ماسينيون الحقيقي/الصليبي.

كان ابن الساعي أحد ضحايا المكر الذي قاده على الجبهة الجزائرية ماسينيون، الذي سأهتم بسمه المنبعث من حقده الصليبي في مرة قادمة، باعتباره من الأمثلة الشهيرة في باب «الأخلاق النبيلة وأخلاق الضغينة» في تصنيفات نيتشه لأصول الأخلاق المسيحية، وما تفرع عنها من فلسفة لا تنتج سوى الضغينة والحقد، ولذا لا ينبغي الاقتراب منها قبل الإيفاء بشرط ابن خلدون.

(1) نفس المرجع السابق.
(2) المرجع السابق، فقرة 9.

نيتشه وصفة علاجية!

في النصف الأول من القرن العشرين أصابت المنطقة العربية ثلاثة أوبئة: الانفلونزا الإسبانية، والكوليرا، والشيوعية. الإنفلونزا الإسبانية ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، والكوليرا ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، أما الشيوعية فقد أطلت برأسها بين الحربين لكنها لم تأخذ شكل الوباء إلا بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم كانت الأطول عمرًا والأشد فتكًا. ويأتي تصنيف الماركسية ضمن الأوبئة مقدمة لتبيان فعالية فلسفة نيتشه كوصفة علاجية لها، وعلى النحو الذي بينه مالك بن نبي في «مذكرات شاهد القرن»، غير أن تجربة بن نبي ظلت للأسف طي مذكراته تلك حتى كتابة هذه المقالة، لأن مفهوم الإصلاح [في تقدير شاهد القرن] لا يعني شيئا واحدا في عقل تمرن في المنطق الديكارتي [بن نبي] وعقل كوّنه علم الكلام [جمعية العلماء].

أولاً: ظهور الشيوعية العربية بين الحربين.

كان عبد العزيز خالدي في ثلاثينيات القرن الماضي طالباً جزائرياً في المرحلة الثانوية، وهي المرحلة التي يبدأ فيها الطالب تلمس طريقه في عالم الأفكار. «ويبدو أن [والكلام هنا لبن نبي] أحد أساتذته بثانوية عنابة أثر عليه بتوجهات يسارية، ربما كانت تمهيدا لتأسيس الحزب الشيوعي الجزائري..

ولكن المجتمع الجزائري كان في تلك الحقبة يتمتع بحصانة، متيقظًا لواجباته في المجال الايديولوجي، يدافع عن تقاليده»[1]!

وفي سياق هذا الصراع التاريخي (بين ما تبقى من الإسلام وما تعلمن من الصليبية) اتصل بمالك بن نبي صديقه سي مكي محمد ليقول له: «إن خالدي في ذمتنا [و] لا يجوز لنا أن نسلم مثقفاً إلى التيارات الفكرية التي لا تتفق مع فكرتنا ومع شخصيتنا ومع تاريخنا. فتقرر (والكلام مازال لبن نبي) إضافة خالدي إلى قائمة الشبان الذين يجب انقاذهم من التيه الفكري... ومن الغد في لقاء اتفقنا أو تآمرنا عليه قدمت لخالدي من كتب الفيلسوف الألماني، أظنها نسخة من كتاب هكذا تكلم زرادشت. ورجعت هكذا نعجة تائهة، ردها نيتشه للقطيع الأصلاحي الذي يرعاه الشيخ العربي التبسي..»[2].

مثلما اكتشف ألكسندر فلمنغ عقار «البنسلين» في العفن البيولوجي للحضارة الغربية، كان بن نبي قادرًا على اكتشاف مضاد حيوي للماركسية في العفن الايديولوجي لتلك الحضارة! عرف بن نبي كيف يجعل من «عدمية نيتشه» المضاد الحيوي لـ «إلحاد ماركس»، فكان ختام التجربة أن «أصبح [الدكتور خالدي] محصناً بأفكار الفيلسوف الألماني من تلك العقبات التي توضع في طريق شبابنا الجامعي حتى اليوم [1965]، لتحيله إلى طريق تفكير وإحساس تجعله أجنبياً عن الشعب شاذا عن نسق حياته»![3]. وحيث كانت تجربة بن نبي فردية، وفي عزلة تحول دون تعميمها، انتشرت الشيوعية انتشار النار في الهشيم بعد الحرب العالمية الثانية.

(1) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن، ص 346.
(2) نفس المرجع السابق.
(3) نفس المرجع ص 387.

ثانيًا. انتشار الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية.

اثنان من أعلام العرب في القرن العشرين (حسين مروة ومحمد حسنين هيكل) اتبعا غير سبيل المؤمنين بعد قراءة «البيان الشيوعي» لماركس وانجلز، أما خالد محي الدين فكان دليله إلى الشيوعية كتاب روجيه غارودي «الاقتصاد محرك التاريخ».

حسين مروة تحول إلى الماركسية بعد قراءة «البيان الشيوعي» الذي أعاره له أحد مؤسسي الحزب الشيوعي العراقي (حسين الشبيبي). أما الأستاذ هيكل، (روى سيرته الذاتية على قناة الجزيرة) فقصته أكثر فائدة، فهي Case Study أو «حالة أنموذجية» لشرح كيف يتبع أبناء المسلمين غير سبيل المؤمنين. كان هيكل يتتلمذ في صحيفة «الايجيبشن غازيت» على يد محرر انجليزي اسمه سكوت واطسون. اكتشف هذا الأخير أن تلميذه كان عقلاً قابلا للاستعمار: (عقل لم يتشكل بعد، وليس لديه قناعات مستقرة) فأهداه «البيان الشيوعي».

وبخصوص الأثر الذي أحدثه البيان في نفسه يقول هيكل: «.. أذكر أني أخذت المانيفستو وقرأته...! يومها لم أنم بالليل لأنه تهيأ لي أني قد وجدت مفتاحًا لكل مشكلة، وبابًا لكل معضلة، وحلاً لكل قضية مستعصية.. خصوصًا وأني أقرأه وأنا شاب عمري عشرين سنة أو أقل..»! وجد هيكل في العشرين من عمره المفتاح الذي يفتح كل الأبواب، فلم يستطع النوم استعجالاً لضوء النهار ليشرع في حل كل مشكلة وفتح باب كل معضلة.. إلخ!

أما خالد محي الدين (رفيق عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة) فقد اختار الشيوعية - من بين عدة خيارات أخرى متاحة- بعد قراءة كتاب «الاقتصاد محرك التاريخ». ولم يكن وقع كتاب غارودي على عقل محي الدين بعيداً عن وقع

«البيان الشيوعي» على عقل هيكل، حيث يقول محي الدين: «كان عثمان فوزي [ماركسي مصري] يلاحقني بالكتب... أحضر لي كتاباً ذا غلاف أخضر مطبوعاً بالعربية لروجيه جارودي... وبنهم قرأت الكتاب لأكتشف أن إجابات عديدة بدأت تتلاحق ولأربط بين مصر والمصريين، وبين تحرير الوطن وبين تحرير المواطن، وبدأت مشكلات الوطن الاجتماعية تشغل جزءًا هاماً من تفكيري..».

كان ذلك سنة 1947، وهي السنة التي كانت فيها الكوليرا تفتك بأجساد المصريين بينما كانت الشيوعية تفتك بعقول ابنائهم، حتى أن أحد الرفاق قال لخالد محي الدين: «نحن ننمو ونتوسع بمتواليات هندسية، ولن تمضي بضع سنوات حتى نكون قريبين من الاستيلاء على السلطة»! أما الرفيق (عثمان فوزي) الذي قدم لخالد محي الدين كتاب غارودي فقد شفع الكتاب بتحذير من جماعة الإخوان المسلمين قائلاً: «هذه جماعة خطرة وضارة»!

وهكذا نرى راي العين كيف أصبحت الشيوعية «طريقة تفكير» بل «طريقة إحساس» تجعل الشيوعيين من أبناء المسلمين أعداء لإخوانهم في جماعة الإخوان المسلمين! اختلاف العقيدة (الإسلام من جانب والماركسية من آخر) وطريقة التفكير الماركسية التي وصفها بن نبي بـ «العقبة» هي التي جعلت الشيوعيين المصريين يقفون في خندق الكيان الصهيوني من أول يوم، فبينما كان الإخوان يقاتلون في فلسطين اعترف الشيوعيون المصريون بقرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة...! كيف لا ومؤسس الحزب الشيوعي المصري اسمه جوزيف روزنتال. لم يكن روزنتال هذا مهتمًا بالشيوعية قدر اهتمامه بجعل المسلمين يستبدلون الإسلام بعقيدة تجعلهم فكريا وشعوريًا ليسوا غرباء Alienated بين المسلمين فقط وإنما أعداء للمسلمين

الذين تشبثوا بدينهم وكونوا جماعة على قاعدة «الأخوّة» كفكرة أصيلة تم استبدالها لاحقًا بـ«المواطنة» وهي فكرة زائفة زيف القومية و الاشتراكية!

لم تكن الشيوعية فكرة عابرة، بل كانت عقيدة بديلة سممت عقول معتنقيها من أبناء المسلمين فرفعوا شعار «الدين افيون الشعوب»، وجماعة الإخوان «جماعة خطرة وضارة»! ومازالت الجماعة خطرة وضارة ولكن على الكيان الصهيوني، الذي مازال الآلاف من أبناء المسلمين يشاركون في مجهوده الحربي - ضد الإخوان - وهم لا يشعرون!

ما كان يخشاه محمد عبده في القرن التاسع عشر وتحقق في القرن العشرين هو ما تمثل في قوله: «لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية»! وكأنه كان يتحدث - قبل الأوان - عن هيكل الذي حمل للإسلام والإخوان المسلمين بغضاً انجليزياً (لا يرى بالعين المجردة). أما ما لم يتوقعه عبده فهو أن يصبح عندنا بلاشفة عرب (أي وجوه عربية بقلوب سوفيتية). وهذا هو ما جعل الشيخ البشير الإبراهيمي يصدر بياناً (سنة 1964) فرضت إثره الإقامة الجبرية على الشيخ حتى وفاته بعدها بسنة.

يقول الشيخ الإبراهيمي في ذاك البيان: «كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر ويومئذ كنت أستطيع أن أواجه المنيّة مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أنّي سلمت مشعل الجهاد.. إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن ولذلك قررت أن ألتزم الصمت. غير أنّي أشعر أمام خطورة السّاعة وفي هذا اليوم الذي يُصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله أنّه يجب عليّ أن أقطع الصمت. إنّ وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبّط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل، ولكنّ المسؤولين فيما يبدو لا يدركون أن... الأسس

النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تبعث من صميم جذورنا العربية والإسلامية لا من مذاهب أجنبيّة.» وبعد صدور البيان بثلاثين سنة اندلعت الحرب الأهلية في الجزائر، للأسباب التي ذكرها الشيخ، لكن اللوم يقع باستمرار على الإسلام (الإرهاب) والإسلاميين (الإرهابيين).

ولابد من مراجعة بن نبي لمعرفة جذور الأزمة فهو لا يلوم الاستعمار وحده، ولا يلوم المسؤولين، وإنما ينتقد جمعية العلماء لأن «الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب [سنة 1936]، فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي..». سلموها لحملة المذاهب الأجنبية: «سلموها لمن يضعها تحت أقدامه لتكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية»! كان المستوى العقلي لجمعية العلماء غير ملائم للصراع الايديولوجي في القرن العشرين لأن أداتهم (علم الكلام) تنفع للصراع الايديولوجي أيام التابعين. ولمثل هذا السبب كان من المستحيل على الجمعية، والأمة عموماً، الاستفادة من نبوغ بن نبي، لأنه تجاوز عصر التابعين، وأصبح عقلاً مسلماً حداثيا بوسعه اكتشاف ما في الإسلام والحداثة من وسائل فعالة لإدارة حوار/صراع فكري معاصر، بينما مازالت الأمة في مستوى عصر التابعين وتفريعات علم الكلام (على نحو ما جرى في مؤتمر الشيشان)!

ختاماً... لقد تأسفت كثيرا عندما وقع بين يدي قبل بضع سنوات مقرر «الفلسفة الحديثة»، لطلبة الشهادة الثانوية، ولم أجد بين الفلاسفة المدرجين به نيتشه.. على أهميته! لا أستطيع تفسير ذاك القصور، لكن لعل سببه أن كل ما يعرفه واضع المقرر بالخصوص هو أن نيتشه عدمي وفلسفته عدمية...! وأعتقد أن هذا النوع من القصور هو ما يجعل البعض غير قادر على مواجهة فكر السلف الماركسي بغير فقه السلف الصالح!

قراءة قرآنية في عدمية نيتشه

يخطئ من يعتقد أن نيتشه عدمي لسبب آخر غير حكمه بالإعدام على أصنام الفكر المنتصبة في الفضاء الأوربي، وعلى رأسها «الكنيسة» و«الدولة»! وقبل الدخول في صلب الموضوع لابد من مقدمات أربع:

1. في كتابه هذا هو الإنسان يقول نيتشه «تحطيم الأصنام هي حرفتي»؛ وبذا تكون العدمية نهج فلسفي (وليست مفردة من مفردات التنابز بالألقاب كما يستخدمها البعض)، غير أن نيتشه يسمي هذا النهج «قلب كل القيم» وليس العدمية.

2. وفي كتابه «أفول الأصنام، أو كيفية التفلسف بالمطرقة» يقرر نيتشه أن «الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم»، وهي بالفعل كذلك لأنها نظرية وليست حجرية كما كانت أيام الجاهلية الأولى. لذا حدد نيتشه موقفه منها قائلاً: «لن أشيد أصناما جديدة؛ وليعلم القدامى ما الذي يجلبه الانتصاب على قدمين من صلصال».

3. ولما كان مسلم اليوم يعمل بمراجع عتيقة فهو مازال بعقل ما قبل الحداثة، وليس له من الإمكانيات الذاتية ما يمكنه من استخدام أشد الأدوات فعالية (القرآن) في مواجهة أصنام الفكر، لأنه ببساطة لا يراها، ولا أتجاوز الحقيقة

إذا قلت انه أحيانًا يدافع عنها - فلابد والحال هذه من الاستعانة بمطرقة نيتشه لوضع حدًا لانتصاب الأصنام بالعقول الفارغة!

4. عدمية أو منهجية نيتشه، أي قلب كل القيم الأوربية لتظهر على حقيقتها، هي الأداة المناسبة لتحرير العقل من أصنام الفكر.

بدأ نيتشه من حيث يبدأ المسلم الحقيقي (الكفر بالطاغوت)، غير أنه لم يشهد أن الله لا إله غيره وأن محمد عبده ورسوله: نيتشه يقول «لا إله» وتنقطع أنفاسه قبل أن يقول «إلا الله»! لذا وجب النظر إلى معالجته لأصنام أوربا النظرية كنهج للكفر بالطاغوت لا أكثر. والطاغوت هو ما عبد من دون الله، ويشمل ذلك أصنام الفكر التي دفعت نيتشه إلى التفلسف بالمطرقة تجاه جملة الأصنام ومن بينها الكنيسة والدولة.

أولاً: الكنيسة.

يعتقد نيتشه أن أوربا أصابتها مصيبتان: الخمر والمسيحية، وحيث كان اهتمامي بالأفكار وليس الأشياء فلن أتوقف عند رأيه في الخمر، وسأدخل مباشرة إلى رأيه في الكنيسة المسيحية والعقيدة المسيحية، حيث بث آراءه بالخصوص في «نقيض المسيح» و«أفول الأصنام» و«هذا هو الإنسان»!

قراءة هذه المراجع ليس بالأمر الهين، وما ساعدني على فهم مرامي نيتشه فيها هو «الفرقان» وما جاء فيه بخصوص الألوهية، وهي نقطة الضعف المميتة في الحضارة الأوربية. هذه النقطة لا يخطئها نيتشه فيقرر أن: «مفهوم الألوهية المسيحي هو أحد أشد مفاهيم الألوهية فسادًا على وجه الأرض»! وأنا لا أنتظر نيتشه حتى يقرر ذلك لأن القرآن يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]، ويقول مرة أخرى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: 73]!

فساد مفهوم الألوهية يعني فساد كل شيء، لأن الله نور السماوات والأرض، ومن اضطرب عنده مفهوم الألوهية (جعل لله أندادا) سار في الظلمات وهو يعتقد أنها الأنوار. ويظهر الفساد بشكل خاص في دائرة الأخلاق عند الذين يجعلون مع الله إله آخر، وفي هذا السياق يقرر نيتشه إدانته بدون تحفظ لرجال الكنيسة فيقول: «علينا أن نعرف اليوم أن كل لاهوتي وقس وبابا لا يخطئ فحسب مع كل جملة ينطق بها، بل يكذب..»![1]

كل لاهوتي وكل قس وكل بابا يكذب كما يتنفس، لأنه يقول صباح مساء: المسيح هو الله.. المسيح ابن الله! وسينهار البناء الكنسي إذا قال البابا، مرة واحدة، المسيح هو رسول الله لا غير، أو إذا قال أشهد أن محمدا رسول الله! فقول الحق ولو مرة واحدة سيقضي على الكنيسة، لذا بقاء الكنيسة متوقف على استمرارها في الكذب، وإلى أن يحسم الأمر بشكل نهائي يوم القيامة! ولذا كان نيتشه في منتهى الدقة عندما قال: «الكذب بسبب العجز عن عدم الكذب؛ تلك هي العلامة التي أميز بها كل شخص مهيئ لأن يكون لاهوتيًا»!

اللاهوتي عاجز عن عدم الكذب؛ ليس له خيار، ولا يكون لاهوتيًا إلا إذا قال المسيح هو الله أو ابن الله، وثالث ثلاثة...! هذه الأكاذيب هي ما تأسست عليه الكنيسة المسيحية، ولا يكون لاهوتيًا إلا من قبلها وبشر بها، فالمسيحية في هذا السياق هي العجز عن قول الحق، أو هي «العجز عن عدم الكذب» بعبارة نيتشه!

ولما كانت الكنيسة قد أعلنت أنها مالكة الحقيقة فقد عرّف نيتشه الحقيقة على أنها الأكاذيب التي طال عهد الناس بها حتى ظنوا أنها الحقيقة،

(1) العبارات المستشهد بها هنا من كتابه نقيض المسيح، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل.

«ذلك أن الكذب هو الذي ظل يُدعى حقيقة حتى الآن». لذا لا بد من قلب القيم الأوربية رأساً على عقب حتى يظهر الحق، فقلب القيم (أو الكفر بالطاغوت بلغة القرآن) كفيل بإظهار الكنيسة كمؤسسة للافتراء وليس كمؤسسة تملك الحقيقة. ولا أعتقد أن في الدنيا منظمة قد افترت على رسولنا الكريم مثلما فعلت الكنيسة، حتى أن توماس كارلايل باح بالحقيقة المكتومة (سنة 1841) في بعض محاضراته في لندن قائلاً: «الأكاذيب التي نكدسها حول هذا الرجل تجللنا نحن بالعار..»!

لقد كانت المسيحية وباءً انتشر عبر القرون، ومرضًا مزمنا أصاب العالم، لكن ما كان قديما مرضاً تحول عند نيتشه إلى خيانة علمية في ضوء التقدم الذي أحرزته أوربا حتى نهاية القرن التاسع عشر. وتقرير نيتشه بالخصوص قاطع، إذ يقول عن نفسه: «أمضي بحذر قاتم عبر مصحة الأمراض العقلية الكونية لآلاف السنين، سواء سمي ذلك «مسيحية» أو «عقيدة مسيحية» أو «كنيسة مسيحية»،... وما كان بالأمس مريضاً فحسب هو اليوم دنيء - دناءة أن يكون المرء مسيحياً في يومنا هذا»! ويتحفظ نيتشه في الأثناء ليقول: «أحترس أن ألقي على الإنسان مسئولية مرضه العقلي». نيتشه لا يحمّل المسيحي المسئولية عن مرضه المزمن (المسيحية)، فهذا المرض وانتشاره والدفاع عنه مسئولية الكنيسة، فهي «المنظمة العالمية للصد عن سبيل الله»! وفي هذا السياق يقول نيتشه: «الكنيسة المسيحية لم تدع شيئاً يفلت من الفساد.. لقد جعلت من كل قيمة لا قيمة». وهذا صحيح مائة بالمائة؛ لقد أفسدت الكنيسة توحيد الألوهية، وحولتها من «قيمة عليا» إلى «لا قيمة» بمقولة «ثالث ثلاثة»!

كان نيتشه معاديًا للمسيحية عقيدة وكنيسة، ولكنه لم يكن معاديًا

للدين في المطلق، فموقفه من الإسلام إيجابي جدًا، حتى أنه قرر أنه لم يعد هناك خيار بين عربي ويهودي، ولا بين المسيحة والإسلام، ثم تبنى دون تحفظ موقف الإمبراطور فريدريك الثاني «حرب حتى الموت مع روما وصداقة وسلام مع الإسلام» (الفقرتان 59-60 في نقيض المسيح). قد تكون مثل هذه القناعة هي السبب وراء دخول الألمان في الإسلام بالعشرات، لأن نيتشه توقع أن يحدث فكره زلزال مدمر (للأصنام) بعد قرن من ظهوره! بدأ الألمان يجدون طريقهم إلى الإسلام تاركين الأصنام لجنوب المتوسط الذي اعتقد بعض ابنائه - دون تفرقة بين الحق والباطل- أن «التقدم» ليس نبذ الباطل مثلما فعل نيتشه بالنسبة للكنيسة، وإنما نبذ الإسلام محاكاة لنبذ نيتشه للمسيحية!

ثانياً: الدولة.

عندما وضع هوبس نظرية الدولة في القرن السابع عشر لم يخف نيته تطوير عالم الشرك والمشركين بنحت صنم جديد لتحرير الملك من هيمنة الكنيسة على حقل المشروعية! كان الغرض تخليص الملك من الكنيسة بنحت صنم جديد ليكون الإله الثاني/الفاني بجانب الإله الأول/الباقي! وهذا الصنم هو ما وصفه نيتشه (في فصل 12 من كتابه هكذا تحدث زرادشت) بـ«الصنم الجديد»، على اعتبار ان الكنيسة هي «الصنم القديم».

ما وظيفة هذا الصنم الجديد الذي يأخذ اسم الدولة؟

حسب نيتشه؛ هذا الصنم ليس للزينة، لقد تم نحته ليكون محلاً للعبادة: «سيعطيكم كل شيء.. إذا عبدتموه.. الصنم الجديد». هكذا تحدث زرادشت! الكثير ممن يلهجون بذكر الدولة صباح مساء يعتقدون أن الصنم سيحل لهم مشكلة، لكن نيتشه له رأي آخر: «يا من انتصرتم على الإله القديم [الكنيسة]، في المعركة أرهقتم أنفسكم، والآن ترهقون أنفسكم في خدمة

الإله الجديد [الدولة]». وحسب ما يقرره نيتشه «ليس طوال الآذان أو قصار النظر فقط هم من يقعوا جاثمين على ركبهم عندما يزمجر الوحش قائلاً: «على الأرض ليس هناك من هو أعظم مني..»! (هنا يعرّض نيتشه بالفلاسفة الذين يؤلهون الدولة: هوبس وهيغل).

الصنم الجديد (الدولة) فكرة مجردة في العقول الفارغة، التي تؤمن بالدولة بالغيب كما يؤمن المسلم بالله غيباً، وفي هذا يقول الفقيه الدستوري الفرنسي جورج بوردو: «الدولة لم يرها أحد قط، ومع ذلك من بإمكانه أن ينكر وجودها في الواقع». وعندما تمتلئ العقول الفارغة بهذه الفكرة المجردة يحل الباطل العلماني محل الباطل المسيحي، دون أدنى شعور بذلك.. إنها الغفلة!

هذا الكلام لن يقدره إلا من ذاق «ويلات الدولة» جنوب المتوسط بذات الطريقة التي ذاق بها الغرب «ويلات الكنيسة» في العصور الوسطى. في هذا السياق يقول الشيخ راشد الغنوشي عن الدولة البورقيبية في تونس: «الدولة في بلادنا كنيسة، نعم كنيسة حقيقية بالمعنى الذي ثار عليه الغرب».[1]

بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين تحولت تونس موطناً للصنم الجديد وفق آلية وصفها حفيد صاحب التحرير والتنوير على النحو التالي: «تحول التركيب الدستوري من منوال دولة الإسلام إلى منوال إسلام الدولة، وشتان ما بينهما. وهذا المنوال يعني في حقيقته: لا دين فوق الدولة، بينما يعني الأول لا دولة فوق الدين»[2]. قبل الاستعمار كان الدين فوق الدولة، أما بعده وبفعله أصبحت الدولة/الصنم فوق الدين، ولذا لم يخفق بورقيبة في

(1) انظر كتابه مقاربات في العلمانية والمجتمع المدني، ص 119.
(2) عياض بن عاشور، الضمير والتشريع: العقلية المدنية والحقوق الحديثة.

إلغاء صوم رمضان إلا لينجح بن علي في إلغاء ركن آخر (الحج) عندما واتته الفرصة بظهور انفلونزا الطيور، ولو استطاع إلغاء الإسلام جملة واحدة لما تردد...! بورقيبة وبن علي من سدنة الدولة، وباسمها وأمنها حولا تونس إلى معتقل كبير وسلخانة بشرية...!

ربما لمثل هذه الأسباب نصحنا مالك بن نبي بخوض حرب التحرير على جبهة الأفكار، لأن انسحاب القوة الغاشمة من أراضي المسلمين دون انسحاب القوة الناعمة من عقول أبناء المسلمين هو ما جعل استقلالنا يساوي صفر مكعبًا. إذا أردنا تحقيق استقلال له معنى فلابد من كنس أصنام وأوثان الفكر الأوربي من رؤوس أبناء المسلمين، بما في ذلك الذين يكتبون أمام أسمائهم أ/د ...!

وحدة الوجود عند هيجل

ماذا تعني وحدة الوجود عند هيجل؟ الله والعقل والتاريخ شيء واحد؛ هذه هي وحدة الوجود عند هيجل! و«الدولة» هي المظهر الأخير لهذه الوحدة! لشرح ما سلف سأبدأ بإدراج الفقرات التي جاءت بخصوص وحدة الله والعقل والتاريخ في كتاب «فلسفة التاريخ»، ثم الفقرات التي جاءت بخصوص وحدة الله والعقل والدولة في كتاب «فلسفة الحق» - سأدرج الفقرتين باللغتين العربية والانجليزية حتى لا يكون هناك محل لسوء الفهم أو سوء التأويل.

أولاً: وحدة الوجود في «فلسفة التاريخ».

«العقل الكوني الإلهي ليس قضية تجريد صرف، وإنما مبدأ حيوي قادر على تحقيق ذاته. هذا الخير، هذا السبب/العلة، في شكله الملموس، هو الله. الله يحكم العالم؛ العمل الفعلي لحكمه، تنفيذ خطته، هو تاريخ العالم».

The universal divine reason is not a mere abstraction, but vital principal capable of realizing itself. This good, this reason, in its concrete form, is God. God governs the world; the actual working of His government, the carrying out pf His plan, is the history of the world.

ثانيًا: وحدة الوجود في «فلسفة الحق»

«أساس الدولة هو قوة العقل الذي يحقق ذاته كإرادة. عند بحث فكرة الدولة يجب عدم تركيز النظر على دول بعينها أو مؤسسات بعينها. عوضاً عن ذلك علينا النظر إلى الفكرة، إلى الله متحقق في الواقع بذاته».

The basis of the state is the power of reason actualizing itself as will. In considering the idea of the state, we must not have our eyes on particular states or on particular institutions. Instead we must consider the Idea, this actual God, by itself.

في هذه النصوص، هيجل لا يرفع العقل أو التاريخ أو الدولة إلى مقام الألوهية، وإنما يقول الله والعقل والتاريخ شيء واحد - بدون تعدد - هكذا يقول في كتابه «فلسفة التاريخ»! أما في الكتاب الأخر: «فلسفة الحق» فيقول الله والعقل والدولة شيء واحد - وبدون تعدد كذلك! والنتيجة هي: الله والتاريخ والعقل شيء واحد، والدولة هي المظهر الأخير/النهائي لهذا العقل، لهذا الإله، لهذا التاريخ الذي ما انفك يتطور (= يكشف عن ذاته) حتى يستوي في شكل الدولة الليبرالية. فـ«الدولة الليبرالية» هي غاية/نهاية التاريخ عند هيجل، وفوكوياما من بعده.

عندما يتحدث هيجل عن «مكر العقل» أو «مكر التاريخ» فإنه يعارض حديث القرآن عن «مكر الله»، فهل يجوز للمسلم أن يفكر بذات الطريقة الهيجيلية، ويقول التاريخ هو الله وبالتالي مكر التاريخ هو مكر الله، أو يقول العقل الكوني يكشف عن نفسه تدريجياً في التاريخ حتى ينتهي في صورة «الدولة»، فالدولة هي الله؟

بالطبع لا..! هيجل غير مسلم وبإمكانه أن يقول ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب، لكن المسلم لا يسعه أن يقول التاريخ هو الله، أو أن الدولة هي العقل الذي يحقق ذاته كإرادة فهي الله إذًا!

ويؤلمني أن زخرف هيجل، ومن لف لفه، يحتل عقول الكثير من أبناء المسلمين اليوم، مثلما كانت بريطانيا وفرنسا تحتل أرضهم بالأمس، وهو ما يجعل الحديث عن استقلالنا وسيادتنا مجرد ثرثرة لبشر غير منضبط على منهج فكري ولا يملك خطابًا أصيلاً. لقد تطور الاحتلال ليصبح للعقل بدل الأرض، ومن هنا أفهم ما أوصى به مالك بن نبي، وهو «ضرورة خوض حرب التحرير على جبهة الأفكار»، فما فائدة إخراج قوات الاستعمار العسكرية من أرضنا إذا كانت قواته الفكرية (الناعمة) تحتل عقولنا وتبلبل أفكارنا؟!

ولما كان هذا الكلام مما يكتبه مسلم للمسلمين، فلابد أن أبين للقارئ بنية الضلال على مستوى الأصول، لأن هيجل ينطلق من الفكرة المهيمنة على الفكر الأوربي منذ أيام الإغريق، (ومازالت تمثل جوهر الفكر الأوربي الحديث، بالرغم من أن تيار «التفكيك» Deconstruction يحاول هدم الأساس الذي قامت عليه وهو فكرة الـ «لوغس» المحايث للطبيعة الذي يترجم عادة إلى مقولة «العقل يحكم العالم» أو «العقل هو الله»!).

عندما تسربت هذه الفكرة إلى النصرانية خربتها، وقلبت البقية الباقية من أنصار المسيح من موحدين إلى مشركين وكفار يقولون «المسيح هو الله». ومن بعد انتقلت الفكرة إلى الإسلام فانحرفت به/عنه في عقول بعض المسلمين، وقد عُرف هذا الانحراف تحت عناوين شتى أهمها «الحلول» و«الاتحاد» و«الفناء»، وهي كلها تفريعات للفكرة الأصلية: وحدة الوجود!

لابد إذن من رد الأمر إلى المحكم من القرآن؛ فالله على العرش استوى،

والاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. والله في السماء لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: 16-17] ويتنزه ﷻ عن الشبيه والشريك والولد: «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»، سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا. أما الادعاء بأن الله يحل في بشر أو شيء أو يتحد مع هذا أو ذاك، أو هو المسيح، او هو التاريخ، أو هو الدولة، فهذا كله باطل، ومن أقوال غير المسلمين الذين يقيمون عقائدهم ونظرياتهم على «وحدة الوجود»!

ولما كانت هذه «النظريات» قائمة على «لا شيء»، أي قائمة على «الباطل»، سماها نيتشه أصناماً، وقرر أن الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم، ثم خصص في كتابه هكذا تحدث زرادشت فصلاً لـ «الدولة»، وعنونه بـ «الصنم الجديد»! سبق وأن أشرت إلى ما تقدم في كتابات سابقة (لا سيما رقم 1 و2 من سلسلة أصنام الحداثة)، لكن بعض القراء ظنوا أن جمعي لمصطلحي «الأصنام» و«الحداثة»، كعنوان لتلك السلسلة، صادر عن رغبة عندي في فتح باب التنابز بالألقاب مع فرسان الحداثة، وأنا أعذرهم لأن البعض منهم لا يفقه شيئًا إلا إذا اتخذ شكلاً ماديًا، وأصنام الحداثة ليست كذلك!

الأمر إذن أخطر من مجرد رغبة في ثلب فكرة أو حقبة؛ الأمر يتعلق بأن نكون أو لا نكون (مسلمين)! وهذه الخشية مبررة لأن العالم اليوم محكوم بأفكار ونظريات غير المسلمين، فإذا كان صانعو النظام العالمي يقولون عالمنا مملوء/موبوء بالأصنام، وأن الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم، فهل يكون المسلم قد ارتكب خطيئة إذا نبه المسلمين إلى حقيقة وجود أصنام غير مادية/مرئية؟!

وسيرى القارئ العلاقة المباشرة بين تأليه الدولة (عند هيجل وغيره) والممارسات القمعية الممنهجة أثناء الحقبة الاستعمارية وما بعدها - «ما بعد الاستعمار» - لأن مصطلح «الاستقلال» لا يحمل من الاستقلال إلا ما يحمله مصطلح «البصير» كوصف للأعمى. الاستقلال إما أن يكون فكريًا أولاً أو لا يكون؛ ولذا أحاول جهدي كنس أصنام الحداثة من عقل إنسان جنوب المتوسط. والجهد الذي أبذله - صدقوني - ليس به أدنى رغبة في التنابز بالألقاب مع الذين لوثت عقولهم نفايات الحداثة!

أصــول وفــروع

ما الذي يجمع بين هيجل والحلاج؟

إنها فكرة واحدة: «وحدة الوجود»!

ظهرت الفكرة ألف وخمسمائة سنة قبل الحلاج، وظهر هيجل ألف سنة بعد الحلاج ولكن الفكرة هي سبب شطحات هيجل والحلاج على السواء. وإذا كانت شطحة الحلاج الشهيرة (ليس في الجبة إلا الله) معروفة، فإن شطحات هيجل (العقل هو الله.. الدولة هي الله) مازالت مجهولة بالرغم من أنها أكثر أهمية وخطورة! شطحات هيجل هي فروع الفكرة التي سأبدأ بها، لأبين بعد ذلك كيف تجمع «الفكرة» بين هيجل والحلاج على مستوى الشطح!

أولاً. الفروع: (شطحات هيجل)!

1. تأليه العقل!

وفي هذا الباب يقول هيجل: «العقل الكوني الإلهي ليس قضية تجريد صرف، وإنما مبدأ حيوي قادر على تحقيق ذاته. هذا الخير، هذا السبب/العلة، في شكله الملموس، هو الله. الله يحكم العالم؛ العمل الفعلي لحُكمه، تنفيذ خطته، هو تاريخ العالم». (من كتابه فلسفة التاريخ، وفيما يلي النص الانجليزي).

2. تأليه الدولة!

أما تأليه العقل في صورة الدولة فهو عند هيجل كالتالي: «أساس الدولة هو قوة العقل الذي يحقق ذاته كإرادة. عند بحث فكرة الدولة يجب عدم تركيز النظر على دول بعينها أو مؤسسات بعينها. عوضًا عن ذلك علينا النظر إلى الفكرة، إلى الله متحقق في الواقع بذاته». (من كتابه فلسفة الحق، وفيما يلي النص في الانجليزية)!

The basis of the state is the power of reason actualizing itself as will. In considering the idea of the state, we must not have our eyes on particular states or on particular institutions. Instead we must consider the Idea, this actual God, by itself.

3. روح العالم!

يصل هيجل قاع وحدة الوجود عندما يرى نابليون (الإمبراطور) في ألمانيا (سنة 1806). وعن رؤيته لنابليون كتب هيجل لأحد أصدقائه قائلاً:

«لقد رأيت الإمبراطور. روح العالم هذا. يخرج من المدينة ذاهباً للاستطلاع؛ إنه بالفعل شعور رائع أن ترى فرداً مثله يمتطي صهوة جواده، يتركز هنا في نقطة، يتمدد فوق العالم ويهيمن عليه».

J'ai vu l'Empereur —cette âme du monde— sortir de la ville pour aller en reconnaissance; c'est effectivement une sensation merveilleuse de voir un pareil individu qui concentré ici sur un point, assis sur un cheval, s'étend sur le monde et le domine.

مما سلف يمكن استنتاج أن هيجل وهو يؤله العقل والدولة والإمبراطور لا يختلف عن الحلاج الذي قال «ليس في الجبة غير الله»، فالله والعقل

والإنسان في النهاية شيء واحد عند القائلين بوحدة الوجود. هذه الأقوال على اختلافها يجمع بينها الانتساب لذات الفكرة الإغريقية التي اخترقت المسيحية والإسلام قبل أن تخترق الحداثة وفلسفة الحداثة!

سأعود الآن بالفكرة عبر الزمن، جاعلاً من نقد نيتشه جسرًا للتنقل بين جملة الجزر التي يجمع بينها اعتقاد «وحدة الوجود»، ومارًا بطبيعة الحال بابن رشد وموقفه النقدي من الفكرة عندما اخترقت الدائرة الإسلامية في العصور الوسطى!

ثانياً. الأصول.

يقول نيتشه «الألمان يفهموني بشكل مباشر عندما أقول إن اللاهوت هو سبب خراب الفلسفة، وأن الراهب البروتستانتي هو جد الفلسفة الألمانية! كان نيتشه في منتهى الوضوح عندما ربط الأصول بالفروع في الفلسفة وبيّن أن الفلاسفة الألمان قساوسة وأبناء قساوسة؛ ومن ثم كانت الفلسفة شكل من أشكال اللاهوت المستتر. اللاهوت الذي أخذ شكلاً علمانياً بكلمات أخرى! في هذا السياق يستوي البابا الذي يقول المسيح هو الله وهيجل الذي يقول «نابليون هو روح العالم»! كل ما في الأمر أن ما يؤسسه البابا على الباطل من الدين يؤسسه هيجل على الباطل من الفلسفة!

من جهة أخرى البابا وهيجل لا يختلفان عن الحلاج القائل «أنا الحق» أو «ليس في الجبة إلا الله» تأليه الإنسان!

وبالرغم مما سلف لا تعني وحدة الوجود تأليه البشر فقط، وإنما تعني تأليه أي شيء (بما في ذلك الأصنام والأوثان)! وأفضل صورة للتعبير عن وحدة الوجود في الحضارة الإسلامية هي أبيات ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ فمرعىً لغزلانٍ ودَيرٌ لرُهبَانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآن
أدينُ بدينِ الحبِ أنّى توجّهتْ ركائبهُ، فالحبُّ ديني وإيمَاني

مسح ابن عربي باسم «الحب» الفوارق بين الأزمان والأديان والإنسان! وكان ابن رشد من الذين تصدوا لفساد الفكرة على أساس عقلاني: بمعنى أن القول بـ «وحدة الوجود» إلغاء للأسباب، وإلغاء الأسباب إلغاء للعقل، لأن العقل ليس شيئاً سوى إدراك الأسباب (أو إدراك العلاقة بين الأسباب والنتائج بلغة اليوم)، وإذا كان إلغاء الأسباب إلغاء للعقل فإن إلغاء العقل إلغاء للمسئولية. مركزي في فهم ابن رشد، بالنسبة لي، أن العقل هو أساس التكليف عند المسلمين، فإذا زال العقل زال التكليف، ومن هنا كان إلغاء العقل إلغاءً للمسئولية! تبعاً لذلك إذا قتل شخص شخصًا آخر فإن القول بان الله قتله إعفاء للقاتل من المسئولية المباشرة، وهذا الإعفاء قائم على إلغاء السبب المباشر للقتل وهو الإنسان-القاتل.

وقد يذهل القارئ عندما يعلم أن الجيش الصهيوني يعمل وفقًا لهذا التصور، فممارسة بعض الطقوس قبل المعركة يوحد الله والجيش اليهودي، فيصبح الجيش اليهودي هو الله الذي يقتل الفلسطينيين. ولهذا الغرض كثيرًا ما تنقل الفضائيات صور الجنود الصهاينة وهم يمارسون بعض الطقوس (فوق الدبابات) كمقدمة لحلول الله فيهم وفي دباباتهم ليتوحدوا مع الله في قتل الفلسطينيين. الموضوع برمته مجرد إلغاء للعقل بإخراج عنصر السبب المباشر للقتل (السلاح وحامله) من المعادلة! ولا يستطيع اليهود التصريح بأن الجيش اليهودي هو الله الذي يقتل الفلسطينيين، لذا يقولون الجيش

الإسرائيلي هو الجيش الأكثر أخلاقية في العالم (لأنه هو والفكرة الأخلاقية ــ الله ــ شيء واحد) ــ ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]!!

وأثر الفكرة الكارثي لا يتوقف عند ما يفعله الجيش اليهودي، وإنما يتبدى في الشراسة التي يبديها بعض أبناء المسلمين في الدفاع عن الحضارة الغربية! هؤلاء لا يرون الحضارة الغربية وهي تخرب بلاد المسلمين واحدة تلو الأخرى (أفغانستان والعراق وسوريا والصومال وليبيا واليمن) ولا يرون الإبادة الجماعية للمسلمين، وإنما يلومون المسلمين عن كل مصيبة تحدث بما في ذلك التي تصيب المسلمين أنفسهم، بالضبط مثلما تفعل الحضارة الغربية!

أبناء المسلمين تكاملوا مع الحضارة الغربية على مستوى الفروع: (وحدة الحضارة، وحدة الإنسانية، وحدة الأديان) دون علم أن هذه الوحدة الزائفة أصلها «وحدة الوجود»، وهو ما يجعلهم وجوديًا جزءًا من الحضارة الغربية، وجنودًا في صفها، وموقفها هو موقفهم حتى تجاه إخوانهم من المسلمين! آخر مظاهر تجنيد أبناء المسلمين لخدمة الظلم هو قول بعضهم ان من حق إسرائيل أن تدافع عن أرضها/نفسها، بمعنى أن الفلسطينيين/المسلمين هم الظالمون المعتدون على إسرائيل (المعترف بها دوليًا). هذه الحضارة وقيمها (القوة الناعمة) هي التي احتلت عقول الكثيرين منا حتى لم يعد لديهم اعتبار للحق والباطل في موضوع فلسطين والفلسطينيين! لكل ما سبق أعتقد أن بحث الفروع دون الأصول، والتفاصيل دون المبدأ، مجرد مضيعة وقت.

قضية الألوهية عند ميشيل فوكو

في سنة 1976 ألقى ميشيل فوكو سلسلة من المحاضرات في الكوليج دو فرانس جمعت في كتاب.[1] وفي محاضرة 17 مارس من ذاك العام تحدث فوكو عن الذي يحيي ويميت. وإذا كان الذي يحيي ويميت اسمه عند المسلمين هو الله، فإن الذي يحيي ويميت اسمه في ثقافة فوكو.Le souverain والسلطات/ القدرات التي يمارسها هذا الذي يحيي ويميت تسمى . Souveraineté

المصطلح الأول يترجم عندنا إلى «صاحب السيادة» والمصطلح الثاني يترجم إلى «السيادة». وما دام صاحب السيادة يحيي ويميت فلابد من تسميته إلهًا، ولابد من تسمية سلطاته أو قدراته «الألوهية!» والتعريف اللاتيني للسيادة ليس بعيدًا عن هذا الفهم، فالسيادة عند واضع نظريتها، جان بابتست بودان، هي «القوة المطلقة الأبدية» La puissance absolue et perpetual ، والترجمة العربية لفكرة «السيادة» ليست بعيدة عن هذا المعنى كذلك، فهي عند البعض «السلطة التي لا سلطة فوقها! «

وكيف تكون هناك قوة: 1) مطلقة و2) أبدية و3) لا سلطة فوقها، ثم تكون لغير الله (ملك أو شعب أو دولة)؟ وإذا كانت السيادة هي السلطة التي لا

(1) M. Foucault, Il faut defender la Société, Paris, Seuil, 1997.

سلطة فوقها فأين يكون الله؛ فوقها أم بجانبها؟ إذا كان الله فوقها فهي ليست السلطة التي لا سلطة فوقها، وإذا قلنا إن الله بجانبها عندها نكون قد جعلنا مع الله إلها آخر، مثلما فعل أبو جهل وأبو لهب.

وفي النطاق القانوني-السياسي يُنظر إلى «السيادة» على أنها «مصدر المشروعية»، أو «القدرة على سن القانون ونقضه». وفي هذا السياق صك المودودي مصطلح «الحاكمية» لترجمة مصطلح «السيادة» من الإنجليزية sovereignty إلى العربية باستعمال مصطلح غير معهود. يقول المودودي:

«الإسلام لا يعترف بسيادة/حاكمية سوى تلك التي لله ولذلك، لا يعترف بواهب للقانون غيره».

Islam admits of no sovereignty except that of God and, consequently, does not recognize any law-giver other than him.

غير أن شاغل فوكو، وهو محل الاهتمام هنا، ليس المشروعية وإنما الحياة والموت ودور السلطة (Le pouvoir) فيهما. ومحل اهتمام فوكو هو الإله المتصرف في الموت والحياة في العصر الحديث والحداثة: (الدولة، وعلى رأسها الملك، أو بدونه)، وهو ما سأعود إليه بعد وقفة قرآنية لإنارة الموضوع من الجانب الإسلامي.

القرآن مليء بقصص الذين يزعمون القدرة على الإحياء والإماتة، أو الذين يزعمون أن القتل ممارسة لبعض حقوقهم السيادية، أو أن الحق في الحياة منة منهم. وهؤلاء لا يوجدون إلا عند الذين يقبلون أن يكون مع الله آلهة بشرية؛ من نوع فرعون، والنمرود، وأباطرة روما، وملوك فرنسا... إلخ!

وفي ضوء ما تقدم سأقوم الآن بسرد موجز لأفكار فوكو التي عالج فيها

قضية الألوهية في تلك المحاضرة. وإذا كان القارئ من الملمين بقصص القرآن الكريم فسيتذكر المواقف المشابهة، وبما يفيد أن التاريخ يعيد نفسه من أيام الفراعنة إلى أيام لويس السادس عشر. وقرن لويس السادس عشر (القرن الثامن عشر) هو بداية مناقشة موضوع السيادة/الألوهية في محاضرة ميشيل فوكو.

أول ما يبدأ به فوكو هو التأكيد على أن الحق في الحياة والموت من مشمولات «السيادة». وفي هذا الصدد يقول:

«في النظرية الكلاسيكية للسيادة؛ تعلمون أن الحق في الحياة والموت من مشمولاتها الأساسية»!

Dans la theorie classique de la souverainte, vous savey que le droit de vie et de mort etait un de ses attributs fondamentaux.

ويتساءل فوكو عن معنى ملكية الحق في الموت والحياة ثم يجيب:

«بمعنى من المعاني، القول بأن صاحب السيادة يملك حق الموت والحياة معناه أنه يستطيع قتل الناس أو تركهم ليعيشوا».

En un sense, dire que le Souverain a droit de vie et de mort signifie... qu'il peut faire mourir ou laisser vivre.

وكانت ممارسات فرعون مع بني إسرائيل على ذاك النحو، فهو القائل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127]! وإنا فوقهم قاهرون معناها نحن أصحاب السيادة، نحن أصحاب القوة المطلقة أو السلطة المطلقة في مصر. وبهذه الصفة (الألوهية) نقتل من نقتل لهلك ونترك من نترك ليعيش! وقد جاء موقف فرعون هذا ردًا على تساؤل الحاشية المتملقة: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: 127]! ومن هنا تقرر لدى فوكو إن:

«سلطة صاحب السيادة (الإله) على الحياة لا تتقرر إلا من اللحظة التي يستطيع فيها القتل».

L'effet du pouvoir souvrain sur la vie ne s'exerce qu'aprtir du moment ou le souverain peut tuer.

وعندما يصل فوكو إلى القرن التاسع عشر يقرر أن دور صاحب السيادة (الإله) قد انقلب مئة وثمانين درجة ليصبح له:

«الحق في أن يحيي الناس أو يتركها تموت!»

«Le droit de faire vivre ou de laisser morir»

والسر فيما سلف هو تحول الألوهية من الملك/الفرعون إلى الدولة التي يسميها نيتشه «الصنم الجديد»! وللسخرية من عبدة هذا الصنم يقول نيتشه (في كتابه هكذا تحدث زرادشت): «سيعطيكم كل شيء.. إذا عبدتموه.. الصنم الجديد»! اذكروا الدولة-الإله، عظموا الصنم الجديد، واطلبوا ما شئتم، فما تطلبونه للعيش والرفاهية سيوفره لكم هذا الصنم في مقابل العبادة التي تتوجهون بها إليه!

وكما تكون عبادة الصنم بالمداومة على ذكره أولاً، تكون كذلك بجعله مصدرًا للمشروعية ثانيًا، وبسفك دماء من يهدد أمنه ثالثًا! فمن يهدد أمن الصنم يقدم لمحكمة أمن الصنم/الدولة لتحكم عليه بالإعدام. والحكم بالإعدام نوع من تقديم القرابين للدولة. وهذه العبادة مورست قديمًا باسم الآلهة، وتمارس حاليًا باسم الصنم الجديد (الدولة).

ومازال في محاضرة فوكو ما يسترعي الانتباه، ولاسيما حديثه عن الموت كلحظة انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وكل دار ولها إله.

«كان الموت، يقول فوكو، يمثل الانتقال من سلطة إله الدنيا، إلى سلطة إله الآخرة».

La mort, c'etait le moment ou l'on passait d'un pouvoir, qui etait celui de souverain d'ici bas, a cet autre pouvoir, qui etait celui du souverain de l'au-dela.

فوكو وثقافته من عالم تعدد الآلهة ولذا يرى في الموت الانتقال من أحكام إله يحكم بالقانون الخاص والعام، إلى إله ليس في حكمه غير النعيم المقيم أو الجحيم الأبدي. وللأسف عندما يذهب أبناء المسلمين للدراسة في فرنسا لا تسترعي انتباههم هذه النفايات ولا يتوقفون عند خطورتها السامة، بل يعودون بها إلينا ليسمموا أجواء الفراغ الفكري الذي نعيشه، ويحكموا على الأحرار بالإعدام بمفاعيل هذه النفايات السامة. ومع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!

الخاتمة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

أسرار كشفتها المحاولة الانقلابية في تركيا

(2-1)

حان الوقت لدراسة هادئة لمضامين وعواقب المحاولة الانقلابية في تركيا، لأن الأمة انقسمت بشأنها بين متأسف لفشل المحاولة ومبتهج لذلك، وهو ما يحول دون نقاش عقلاني مفارق للرؤى الأحادية في حينها، لكنه أصبح ممكنًا الآن!

وفي هذا السياق سأناقش بعض الأسرار التي أذاعها الانقلاب بطريقة غير مباشرة، إذ لا فائدة في أن تظل هذه الاسرار طي الكتمان لأنها مسائل علمية، وليست مواضيع عاطفية، تراعى فيها مشاعر الموتور.

السر الأول متعلق بجوهر العمل السياسي وهو «الصراع»، وحقائق هذا السر غائبة عن الجميع تقريباً؛ والسر الثاني متعلق بازدواج الموقف من الديموقراطية، عند بعض الليبراليين العرب؛ وهذا الموقف انكشف بشكل لا لبس فيه لحظة فشل المحاولة! والحديث هنا عن «النخبة الليبرالية»، لأن رجل الشارع ربما لا يعرف الليبرالية، ولا يأبه لها، فهو مشغول بقوت عياله أغلب الوقت.

أولاً: جوهر العمل السياسي: (الصراع).

لا توجد مدرسة تؤهل المقدمين على العمل السياسي، فبإمكان أي سباك أو نجار أن يترك السباكة أو النجارة ويتحول إلى العمل السياسي مباشرة!

وهوما لا يمكن تصوره في المهن الأخرى؛ فلا يستطيع سباك أو نجار مثلاً أن يتحول بين عشية وضحاها إلى جرّاح، لأن الطب مجال لا يُفتح إلا أمام أهل الاختصاص الحاملين شهادات علمية تثبت تأهلهم وخبرتهم. فتح مجال من المجالات أمام الناس كافة هوما يجعله ميدان صراع، وهذا هو شأن السياسة، فهي ميدان مفتوح للصادق والكاذب، للعاقل والسفيه، للمتعلم والجاهل!

من جهة أخرى؛ قد يعمل إنسان بسلك التعليم أو الصحة لأربعين سنة فقط ليرى عسكريًا (أحيانًا عريف أو رئيس عرفاء) يعين وزيرًا للتعليم أو الصحة بحجة أن الوزارة منصب سياسي، فالخبرة قد تساعد صاحبها في ارتقاء السلم الوظيفي، لكنها ليست معتبرة وحاسمة في الميدان السياسي حيث يعتمد الصراع على القوة وليس الخبرة!

وقد يكون من المناسب هنا التذكير بأن مصطلح «السلطة» في المدرسة الأوربية/الغربية يحمل معنى «القوة» في اللغة الانجليزية Power والصراع على السلطة يمكن فهمه على أنه صراع قوة أو صراع على القوة-السلطة power struggle أما في اللغة الفرنسية فمصطلح السلطة يحمل معني القوة والقدرة! Le pouvoir فالمفردة الفرنسية تعبر عن السلطة اصطلاحًا، لكنها اسم إذا عُرّفت، وفعل إذا سلمت من أداة التعريف.

أما في البلاد المتخلفة، فإن الصراع السياسي يعني ليس الصراع على السلطة تحديدًا، وإنما على الثروة كذلك، فالسلطة في البلاد المتخلفة تعني «عدم المحاسبة في باب الثروة»! وهكذا يتجاوز حجم الفساد في مصر مثلاً خمسمائة مليار جنيه سنويًا، يستولي الجيش على أغلبها لأن ميزانية الجيش المصري لا تخضع للرقابة، ولا تناقش، لا في البرلمان ولا في غيره!

ما معنى أن يكون الصراع هو جوهر العمل السياسي؟

الصراع كجوهر للعمل السياسي معناه أن وسيلة الحسم في هذا الميدان هي القوة، ويستوي في ذلك أن يكون الصراع على السلطة فقط (كما في البلاد المتقدمة) أو على السلطة والثروة (كما في أوطان التخلف) وتتدخل القوة في حسم الصراعات السياسية بثلاثة طرق: الاغتيال، والانقلاب، والصندوق:

1. الاغتيال.

وهو أسوأ وسيلة من وسائل حسم الصراع السياسي، فما تم اغتيال سياسي إلا وكان ما بعده أسوأ مما قبله، مثلما كان اغتيال امبراطور النمسا الشرارة التي أشعلت الحرب العالمية الأولى. أما في تاريخنا السياسي فتمتد الاغتيالات من قتل عثمان رضي الله عنه إلى قتل السادات رحمه الله، فكل ما بعد هذه الاغتيالات كان أسوأ مما قبلها. ولا يقف ذلك عند قتل القادة السياسيين، وإنما يشمل قتل أصحاب الرأي من المعارضين أو الخصوم كذلك (عبد القادر عودة في مصر والمهدي بن بركة في المغرب) فالقتل ليس حلاً لا للحكومة ولا للمعارضة ولا للأمة، فهو تنفيس مؤقت لا يحل مشكلة لا للحاكم ولا للمحكوم. وأسوأ نوع من أنواع هذا القتل هو الذي يتم بموجب محاكمات صورية يتم فيها إلباس الظلم ثوب العدالة (سيد قطب في مصر، وعلي بوتو في باكستان)!

2. الانقلاب.

وهو تعبير سياسي عن التخلف، فالانقلاب، وحتى الثورة، تعبير عن جهل عمومي يجعل مجتمع ما غير قادر على حل مشاكله بغير القوة/العنف؛ وفي هذا السياق تتساوى الثورة والانقلاب على اعتبار انها وسائل دموية للتغيير في مجتمع وصل إلى نهاية طريقه المسدود. انتظروا الانفجار في الجزائر، فهي

في طريق مسدود بلغت فيه الأمور نهايتها المحتومة! فبعد عشرية دموية اقتنع الشعب الجزائري بالاكتفاء بالبحث عن القوت كمعنى للحياة! والآن تشرف الجزائر على مرحلة تقشفية تجعل المساس بالقوت الخط الأحمر الأخير الذي تقطعه حكومة على رأسها مومياء فوق كرسي متحرك! قديماً كانت الجزائر سائرة في طريق النمو، أما اليوم فهي سائرة في طريق الانفجار - هذه هي الجزائر كنموذج معاصر للتخلف!

3. صندوق الاقتراع:

والحسم من هذا الطريق يعتمد على الاحتكام إلى الرأي العام كقوة مدنية تحل محل القوة المادية (السلاح) في حسم الصراع على السلطة. ويعتمد نجاح هذا السلوك على عاملين: أولهما نضج الشعب، وعلى النحو الذي شاهدناه في تركيا؛ فهي المرة الأولى، التي يتحرك فيها الشعب لصالح الحكومة المنقلب عليها، بعد تاريخ طويل من السلبية تجاه الانقلابات العسكرية. وثانيهما نضج النخبة واتحادها في الوقوف وراء خيار الصندوق، وهذا هوما شاهدناه من رفض الجميع في تركيا (شعب وحكومة ومعارضة وصحافة) لمحاولة الانقلاب.

وهذا لا يوجد مثله في مصر، لا على مستوى الشعب ولا على مستوى النخبة، حيث رحبت الغالبية بالانقلاب، الذي خلص المصريين من الإخوان الذين عجزوا عن أن يصلحوا في سنة ما أفسده الجيش في ستين سنة. ولا تثريب على عامة المصريين (الذين يتجرعون مرارة العيش على مدار الساعة وأغلب همهم اليومي توفير القوت) في أن يقفوا بجانب المخلص: (الجيش؛ وهو مجرد صنم من أصنام القبيلة؛ يُعبد بالرغم من مسئوليته عن الهزائم والأزمات)! وعلى خلاف حال العامة من المصريين، كانت المحاولة الانقلابية في تركيا المناسبة-الفضيحة للنخبة الليبرالية في مصر، التي أعلنت عن خفتها بالابتهاج

بالانقلاب التركي قبل نجاحه، وبالأسف عليه عند إخفاقه. وهذه الخفة لا نجدها عند إدارة «الثورة المضادة» للربيع العربي، فقد أعطى بنيامين نتنياهو تعليماته الصارمة بعدم التعليق على ما يحدث في تركيا، حتى لا ينتبه الغافلون ويستيقظ النائمون فيعرفون من هو صاحب المصلحة في الانقلاب على الربيع العربي وداعميه! وهذا يوصلنا إلى ازدواج الموقف عند الليبراليين العرب الذين أعلنوا قبل الأوان ابتهاجهم بانقلاب ان نجح لا يستفيد منه سوى دولة بني إسرائيل!

ثانيًا: موقف الليبراليين العرب (الازدواج).

لا خلاف في أن الليبرالية مدرسة غربية، وستظل كذلك وإن تبنى فكرها غير الغربيين! ومن شأن الفكرة الليبرالية، وهي تنتقل إلى البيئة الإسلامية، ان تحمل في طياتها خصائص الحضارة التي انتجتها ومن بينها «الفصل بين السياسة والأخلاق»، كمبدأ معتمد منذ مكيافيللي على الأقل. الحضارة الغربية، وهي تعلم السياسة لأبناء المسلمين، لم تعلمهم كيفية إخفاء انعدام الأخلاق في السياسة (المعبر عنه بالفصل بين السياسة والأخلاق). ولذا انكشف التلاميذ في الوقت الذي احتفظ فيه الأساتذة بوقارهم حتى انجلى الغبار، وبان الفرس من الحمار! لقد انتظر الغربيون حتى فشل الانقلاب، ليعلنوا دعمهم للديموقراطية في تركيا؛ والله يعلم أنهم أحرص على نجاح الانقلاب من خفاف العقول الذي أعلنوا أسفهم لفشله، وتمنوا نجاحه بصدق ساذج!

ولم ينكشف الإخفاق الأخلاقي، للموقف الليبرالي العربي، بتمني سقوط الحكومة المنتخبة في تركيا بانقلاب عسكري فقط، بل أيضاً بالتباكي على الديمقراطية التي تهددها الإجراءات القانونية اللاحقة. فالرئيس

المنتخب أصبح يلقب بـ «السلطان» في إيماءة لا تخفي أن الخوف ليس على الديمقراطية، وإنما الخوف منها، لأنها كفيلة بأن تحمل، إلى الحكم، الإسلاميين القادرين على البقاء بحكم الصندوق. وتجمع هذه الخشية الليبراليين العرب والإسرائيليين في حلف موضوعي، وإن لم يدرك العرب ذلك، لأنه غير موجود في دفاتر الحضارة الغربية المتوفرة للقراءة!

عمومًا؛ لا أعتقد أن الليبراليين يسعهم - أخلاقيًا - تمني زوال الديمقراطية في الصباح، والبكاء على أطلالها بعد الظهر، وفي نفس المكان (تركيا)!

سوء التجربة الإسلامية في مصر أعطى لليبراليين غطاءً كافياً لقصورهم الأخلاقي، أما التجربة التركية فقد عرتهم بشكل فاضح!

ومما يزيد طين الليبراليين بلة أن تركيا ليست تجربة سياسية ناجحة على مستوى الشعب والنخبة فقط، وإنما لأن تركيا تجربة مذهلة على المستوى الاقتصادي، وهوما يجعل أردوغان يربح خيار الصندوق بأصوات الإسلاميين وغير الإسلاميين! ولا أعتقد أن غلاة العلمانيين، الذين يختفون وراء لافتات من نوع «الليبرالية» و«الدولة المدنية»، بإمكانهم هضم هذه الحقيقة، لأن الليبرالية مثل الديمقراطية، يمكن أن تعمل في بيئة إسلامية، إذا صدقت النوايا، وهذا هوما لا يطيقونه! هؤلاء يطيقون إسلام التكايا والزوايا، إذا اقتضى الأمر، أما الإسلام الذي يعمل، والإسلام الذي يحكم فهو، بالنسبة لهم، أكثر مما يطاق!

أسرار كشفتها المحاولة الانقلابية في تركيا

(2-2)

قرأت في أكثر من مكان، ولأكثر من كاتب، عبارة: «مع أنني ضد الانقلابات إلا أنني تمنيت نجاح الانقلاب في تركيا»! وهذه العبارة تعكس، فضلاً عن تناقضها الداخلي، المعضلة الليبية التي سأتناولها كقضية دراسية Case study بين حالات الربيع العربي، وموقف الأطراف الداخلية والخارجية منه... أصحاب عبارة «أنا ضد الانقلابات.. أنا مع الانقلاب» رأوا في الانقلاب العسكري في تركيا - لو نجح - إمكانية لوقف التدخل التركي في الشأن الليبي، وهوما يستدعي نقاشًا موضوعيًا للتدخل الخارجي أولاً، ثم نقاش موضوعي لموقف الليبيين منه بعد ذلك.

أولاً: التدخل الخارجي في ليبيا!

ليبيا ساحة تدخل اقليمي داعم للربيع العربي، بالمال والسلاح والإعلام، تمثله تركيا وقطر. ثم ساحة لتدخل داعم، ومتورط بشكل مباشر في ما يسمى الثورة المضادة (طائرات تقصف ثوار الربيع العربي). هذا التدخل الأخير يتم التخطيط له في إسرائيل، وتموله الإمارات، وتنفذه بمعية مصر! أما على المستوى الدولي فهناك التدخل الأمريكي الأوربي الروسي، المندرج تحت «الحرب على الإسلام» الذي يقرأه المغفلون «الحرب على الإرهاب»!

والنتيجة... تقصف فرنسا بنغازي فيبتهج بعض الليبيين بالحرب على

الإرهاب، ثم تقصف الولايات المتحدة سرت فيبتهج البعض الآخر بالحرب على الإرهاب! قصف فرنسا لبنغازي، وقصف أمريكا لسرت، وقصف روسيا لحلب يسمى «تقسيم العمل»! والعمل المطلوب إنجازه هو تسوية المنطقة بالأرض تمهيداً لإعادة تقسيمها (العراق 3 دول، ليبيا 3 دول، وسوريا 5 دول). وفي جوقة الحرب على الإرهاب هذه يطبل الإعلام (وبعضه صهيوني ناطق بالعربية) لـ «الثورة المضادة»، دون تفرقة بين الحرب على الإسلام والحرب على الإرهاب! الإرهاب موجود، لكن الحرب على الإسلام! وما تورط أبناء المسلمين في الإرهاب إلا نجاح من نجاحات الحرب على الإسلام!

الحرب على الإسلام تبدأ باستفزاز المسلمين بأبشع الطرق، فإذا استجاب المسلمون للاستفزاز وردوا، رداً عشوائياً عنيفاً، اعتبر ذلك ارهاباً يبرر ما يسمى منذ أيام الرومان بـ «الحرب العادلة»! وبهذه الحجة المصطنعة تخوض أوربا وامريكا حربهما العادلة، ضد الإرهاب، في تحالف مع بعض القوى السياسية (حكومات) والمدنية (مثقفين) في المنطقة! وبالرغم من أن معظم القتلى من المسلمين، والمدن التي يتم تسويتها بالأرض، تقريباً، تقع في بلاد المسلمين؛ وبالرغم من أن الغالبية العظمى من المعذبين/الجرحى والقتلى والمهجرين من المدنيين العزل (أطفالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً وعجائز) من أبناء المنطقة، إلا أن آلة الحرب التي تطحن هؤلاء جميعًا تستمر في دورتها الجهنمية دون توقف، تحت غطاء شرعية مزورة اسمها «الحرب على الإرهاب»!

وتندرج المحاولة الانقلابية في تركيا ضمن سياقات الحرب على الإسلام، غير أن ما يميز هذه المحاولة أنها تتم ضد تجربة إسلامية ناجحة، في المجالين السياسي والاقتصادي، وهذا هو وجه الخطورة من منظور «صدام الحضارات» كأيديولوجيا تصور المسلمين كقطيع من الهمج غير قادر على

شيء غير التخريب! فـ «الحضارة» كفكرة إغريقية لتبرير غزو الشعوب المجاورة الذين يوصفون بـ «البرابرة»، لا يمكن أن تكون ذات جدوى في غياب «البرابرة»، ولذا وجب بربرة المسلمين أولاً لتبرير إبادتهم ثانيًا!

عندما تسمع عبارة الحضارة الغربية حضارة «إغريقية-رومانية» فافهم أنها في باب الحرب تقوم على فكرتي «الحضارة» و«الحرب العادلة» كمبررات لغزو «الآخر» الذي عليه أن يظهر بمظهر البربري/العدواني حتى تتم إبادته باسم «الحضارة» و«الحرب العادلة». المسلم باستجابته للاستفزاز ووقوعه في فخ الإرهاب يكون على المقاس «الإغريقي-الروماني»، الذي يسمح لأوربا وأمريكا وروسيا (الذين تسكنهم الروح الصليبية فضلاً عن الأفكار الرومانية الاغريقية) بإبادة مدن أو دول مسلمة بأكملها تحت لافتة «الحرب على الإرهاب»!

التجربة التركية (تجربة أردوغان) تجربة حضارية تمثل النجاح وضبط النفس معاً، وتمثل أكبر تهديد لصورة المسلم الهمجي/الإرهابي الذي لا نفع له، في الايديولوجيا الغربية، غير تبرير الحرب على الإسلام. نجاح التجربة التركية يهدد ايديولوجيا الحرب على الإرهاب/الإسلام التي بنت عليها أمريكيا استراتيجيتها في المنطقة للنصف الأول من هذا القرن- المسئول الأمريكي يذكرنا من حين إلى آخر أن الحرب على الإرهاب قد تستمر لخمسين سنة!

في هذا السياق يجب تخريب أي نجاح للإسلام، وفي أي مكان يظهر، وبكل الطرق الممكنة، ومن ضمنها الإنقلاب الذي إما أن يعيد البلد لحكم العسكر، أو ربما حتى يدخلها في حرب أهلية لا تبقي ولا تذر، وتبرر التدخل للحرب على الإرهاب (كما كان مأمولاً في الحالة التركية)؛ وهذا يوصلنا لأصحاب «أنا ضد الانقلابات.. أنا مع الانقلاب»!

ثانيًا: الموقف الاحادي للداعمين للانقلاب!

وهؤلاء يسمون اختصاراً بالليبراليين (لتجاوز الخلفيات الايديولوجية دون إحراج)! ومن بين هؤلاء يظهر الليبيون الذي يعلنون أنهم ضد فكرة الانقلابات من حيث المبدأ لكنهم تمنوا نجاح الانقلاب في تركيا...! لنفترض الآن أن المحاولة الانقلابية في تركيا قد نجحت في إعادة تركيا إلى حكم العسكر، وأصبح لحكم العسكر في تركيا موقف من الإسلاميين، مثل موقف حكم العسكر في مصر منهم؛ ثم توقف دعم تركيا للإسلاميين في ليبيا، أو تحول دعمها «للثورة المضادة»! ـ ماذا كان بإمكان السيناريو الاجتماعي-السياسي في ليبيا أن يكون في ظل هذه الفرضية؟

لابد من التذكير أولاً، أن صاحب أول محاولة انقلابية في ليبيا - اعلنت من قناة العربية - قد حشر كل الإسلاميين في الزاوية، دون تفرقة بين معتدل ومتطرف، وبذا يكون صاحب المحاولة قد ارتكب خطأ استراتيجيا - ربما خطط له غيره - نتج عنه أن يقف كل الإسلاميين، مضطرين غير مختارين، في حالة دفاع عن النفس!

هؤلاء تدعمهم تركيا؛ فماذا كان سيكون مصيرهم لوأن الدعم التركي توقف بنجاح الانقلاب؟!

لا اعتقد أن الليبراليين قد طرحوا هذا السؤال على أنفسهم! وإذا كان الحال كذلك، فهذا أخف الضررين، رغم أنه احادي الجانب: بمعنى أن موقفهم هو: ليتوقف الدعم التركي، ولتنجح الثورة المضادة، وليكن ما يكون! المهم أن يتم القضاء على الإسلاميين جميعاً، حتى وإن كان الثمن أن تعود ليبيا لحكم العسكر مثلما كانت قبل اربعين سنة! لكن الأسوأ في حق الليبراليين هو أن يكونوا قد تمنوا أن يقف الدعم التركي-القطري، ليستمر

الدعم المصري - الإماراتي للثورة المضادة، التي تعلن رفضها لـ «شرع الله» ومستعدة «للتحالف مع الشيطان»!

ما الذي سيحصل لو توقف الدعم التركي للإسلاميين واستمر الدعم المصري-الإماراتي «للثورة المضادة»؟

أولاً، ستتحول ليبيا إلى سلخانة للإسلاميين، مثل مصر، ودون تفرقة بين معتدل ومتطرف! وسيدير هذه السلخانة العسكر بالكفاءة المعهودة أيام القذافي. وهذا هوما يتحقق الآن في بنغازي، حيث قتل سبعون شخصا إما لأنهم من مشايخ الكتاتيب التي تعلم القرآن، أو لأنهم من حفظة كتاب الله! وإذا كان التشفي من الإسلاميين، دون تمييز، يبرر هذا كله، فمثل هذا الموقف سيكون عديم الأساس أخلاقياً، وإن سمي ليبرالية، وسيكون وخيم العواقب، وإن سمي حرباً على الإرهاب!

ثانياً، ستتم تسوية مصراتة بالأرض عقابًا لها عن الحيلولة دون تقسيم ليبيا مرتين في ظرف أربع سنوات: المرة الأولى عندما كان عهد القذافي يلفظ آخر أنفاسه، والمرة الثانية، وهي التي ما زلنا نعيشها، عندما قادت عملية فجر ليبيا ضد المحاولة الانقلابية في الغرب، ولم تستسلم أمام «الثورة المضادة» في الشرق.

ثالثاً، وليعلم كل ليبي يقرأ هذه الكلمات أن الخطر لا يتهدد الإسلاميين فقط أو مصراتة فقط، وإنما يتهدد ليبيا كلها التي قد تصبح، يوما ما، خرابة مثل سوريا، لا قدر الله! عندها سيتسابق الفرقاء الليبيون إلى التحالف مع القوى الخارجية، مثلما حصل قبل مائة سنة عندما باعت القيادات المحلية/الجهوية، عن جهل لحقائق المواجهة، وحباً في البقاء بأي ثمن، دماء الشهداء، ووضعت نفسها في خدمة الاستعمار الإيطالي الذي جند الليبيين، دون تفرقة،

لغزو الحبشة وخوض الحرب العالمية الثانية ضمن الجيوش الايطالية!

في الختام ارجوان يكون القارئ قد أدرك أن الحرب ليست فقط أهلية (في ليبيا) أو إقليمية (في المنطقة)؛ وإنما هي حرب عالمية حقيقة، وعلى الإسلام. وهذه الحرب لا يمكن أن تمتد لأراضينا إلا بموافقتنا أو بطلبنا؛ فإذا أراد الليبيون حلاً ناجعا فالتفكير الواجب هو في تجاوز الحرب وليس في حسمها أو المشاركة فيها، باسم الحرب على الإرهاب!

أما إذا أصبحنا جزءًا من الحرب العالمية على الإسلام، فبوسع كل إنسان أن يختار معسكره: تركيا وقطر والإسلاميين أو، مصر والإمارات وإسرائيل، والذين يحاربون مع الجميع ضد الجميع، لأن حربهم على الإسلام وليست على الإسلاميين.

التمسك بالتخلف!

في مقابلة مرئية سئل أحد أساتذة الجامعة عن دينه فقال: «ديني الديمقراطية»! أصول هذا الأستاذ تعود إلى العائلات الزيتونية العريقة، لكن الإسلام ليس بالوراثة، ولا بالإكراه، وإنما اختيار حر. والحرية فطرة الخالق وليست منحة من المخلوق. وطالما اختار هذا الأستاذ غير الإسلام دينًا فهذه المقالة لا يمكن أن تنصرف إلى مثله!

هذه المقالة منصرفة إلى الذين يقولون نحن مسلمون ثم يتبعون ﴿غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 115]. ويبدو السر فيما سلف أن المسلم المعاصر إما لا يرى في الدنيا إلا ما توافق عليه الإسلام وغير الإسلام من فروع وتفاصيل (مثل بعض حقوق الإنسان) أو يرى الاختلافات في حدود الفروع والتفاصيل فقط، دون ان يرجعها إلى اختلافات الأصول، ثم يتأولها على أساس أنها اختلافات ثقافية، مثل مسألة الشذوذ في العلاقات الجنسية على سبيل المثال.

لو ربط المسلم بين الأصول والفروع لرأى أن الإسلام دين «حقوق» و«واجبات» الإنسان معاً، وليس حقوق الإنسان فقط. وما إهمال واجبات الإنسان والتركيز على حقوقه، في الحضارة الغربية ومن لف لفها، سوى انقلاب للعالم رأساً على عقب، لوجود إله آخر، أو آلهة أخرى، مع الله، في النظام العالمي الذي صنعته الحضارة الأوربية خلال الأربعمائة سنة الماضية.

الداعي للشذوذ الجنسي، والمدافع عنه، إنسان اتخذ إلهه هواه، ولذا كان خياره على مستوى النظر والممارسة مناقضاً تماماً لخيار المسلم الذي لا يجعل مع الله إله آخر! الذي يتخذ إله هواه يرى فيما يصفه الله «فاحشة» و«مقتا» حقوقًا للإنسان، وهي لا تكون كذلك إلا إذا كان الحكم للهوى وليس لله!

أحكام الإسلام التفصيلية متفرعة عن أصوله وهي: أن الله لا إله غيره، والقرآن كتابه، ومحمد عبده ورسوله.

ومقتضى هذه الأصول أن الله يطاع ولا يعصى، وفق الأحكام التي أنزلها في كتابه، ليعمل بها من اتبع نبيه ﷺ. هذه الأصول، غير المادية، هي القيم التي بنيت عليها الحضارة الإسلامية التي أنارت العالم لألف سنة. وهي ذات الأصول التي يمكن أن تبنى عليها حضارة (عبادات ومعاملات وفنون) إسلامية مرة أخرى. لكن ما يحول بين المسلم وبين بناء هذه الحضارة من جديد أمران:

أولهما: عدم إدراك المسلم لأثر الزمن على فعالية الأفكار، وفي هذا السياق يحافظ المسلم على الأصول لكنه غير قادر على ترجمتها لأفكار بذات المنهجية التي اتبعها أبو حنيفة وابن خلدون وابن حزم وابن رشد.

وثانيهما: إذا ظهر مجتهد خارج الفكر الغربي يتم اعدامه فورا -لأنه من الخوارج- مثلما حصل لعبد القادر عودة عندما كتب «التشريع الجنائي في الإسلام»، ومثلما حصل لسيد قطب عندما كتب «معالم في الطريق»! وبذا لا يظهر في الصورة سوى مسلم متخلف، يتمسك بالأصول مضافٌ إليها أقوال فقهاء اجتهدوا لزمانهم وليس لزماننا.

على العموم؛ الأفكار فروع يمكن أن تطور دون المساس بالأصول، لكن المسلم مازال غير قادر على ذلك دون اللجوء لأفكار الغربيين الذين يرفضون

الأصول التي تقوم عليها عقيدة المسلمين وشريعتهم. وفي هذا الخضم يجد المسلم نفسه مدفوعا تحت الضغوطات إلى نبذ الأصول دون وعي لخطورة المسألة. الضغوطات يمارسها حراس النظام العالمي ووكلاؤه باسم الشرعية الدولية التي يقع الإسلام خارجها، لأنها مؤسسة على نقيضه: تعدد الآلهة. و لايزال المسلم غافلاً عن حقيقة الموقف، وخطورة الضغوط ونتائجها، إما لأنه لم ينشئ آليات تربط ربطاً محكمًا بين الأصول والفروع، وتكون جرس إنذار عند تجاوز الحدود، وإما لأنه اشترى الدنيا بالآخرة حتى لا يجد نفسه خارج الشرعية.

وكي يلتزم المسلم بهذه الشرعية عليه ليس التزام حدود الله، وإنما التزام حدود الدولة-الوطنية، التي تجاوزها الزمن إلى نسق جديد اسمه «العولمة»، وفيه أصبح العالم قرية كونية. تصور إذن ماذا يمكن أن يكون حجم أو دور الدولة الوطنية جنوب المتوسط مقارنة بالقرية الكونية- مجرد معتقل.. أليس كذلك؟

ولي على ما سلف مثالان؛

المثال الأول. في ثمانينيات القرن الماضي كان على ساكن مساعد (وهي على الحدود المصرية الليبية) إذا رغب في زيارة أهله في مطروح أو الإسكندرية أن يأتي إلى طرابلس أولاً، ثم يطير منها إلى مالطا أو أثينا، ثم من هناك إلى القاهرة ومنها إلى مطروح أو الاسكندرية. وكل هذا لأن القذافي قد قفل حدود المعتقل المسمى ليبيا تاركا منفذا واحداً هو مطار طرابلس، الذي لا تتجه منه الطائرات الليبية إلى القاهرة مباشرة، خشية أن تثير رؤية طائرة إسرائيلية تقف إلى جانب طائرة ليبية، في مطار القاهرة، حساسية القذافي! لكن ذات الحساسية لا تثور عندما تقف الطائرة الليبية جنب طائرة إسرائيلية في مطار

زيورخ أو فرانكفورت ...! والذي دفع ثمن هذا النزق ليس الحكومتين المصرية والإسرائيلية، وإنما الليبي والمصري والفلسطيني. هذا هو كيف تتحول الدولة إلى معتقل وطني! كان القذافي يدير ليبيا كلها كما كان الجنرال غرتسياني يدير معتقلاته في شرقها...! لم يختلف حال الليبيين أيام غرتسياني عن حال الليبيين أيام القذافي إلا بفارق بسيط: أيام غرتسياني كان المعتقل اسمه «العقيلة» أو «سلوق»، أما أيام القذافي فقد كان اسم المعتقل «الجماهيرية»!

المثال الثاني. سنة 2008 ابتكر أحد التونسيين طريقة تغني التونسي عن إلقاء نفسه في البحر للخروج من المعتقل، فتقدم للقضاء التونسي طالبا اسقاط الجنسية التونسية عنه، لأنها وسيلة لتشفي المعتقل بساكنيه من المسلمين. يقول صاحب الابتكار إنه تعرف على سبب الهوان الذي يتجرعه على مدار الساعة فلخصه للقاضي على النحو التالي: «و بناء على .. تفكري في أسباب المعاناة وجدت أن سببا رئيسيا يجعلني هدفا لهذه التعديات هو محافظتي على الجنسية التونسية لذا أطالب بإسقاطها قانونيا ورسميا بعد أن اكتشفت بأن مفاعيل الجنسية سحبت مني واقعيا وفعليا فأنا مواطن مجرد من حقوق المواطنة، ولعلي أحصل بعد ذلك على جواز سفر من المفوضية العليا للاجئين وأكون حرا طليقا ولاجئا عبر العالم على أمل أن أعود يوما ما إلى جنسيتي عندما ينزاح الظلم والطغيان وتتوفر لي أسباب العزة والكرامة. ولكم سديد النظر في هذا الطلب وجميل الاستجابة. والسلام».

صاحب العريضة كا يعيش في بلد «الفرح الدائم»، حسب الوصف الذي كان المنافقون يطلقونه عبر وسائل الإعلام التونسية على الوطن-المعتقل. ولكن قبل ذلك لا بد أن أختم بتبيان إلى أي مدى، ووفقاً لأي معيار، يبدو المسلم الذي يقبل الدولة-المعتقل موغلاً في التخلف.

قبول فكرة الدولة-القومية، أو «الوطنية» كما يصفها البعض، يعبر عن تخلف شديد على المستويين الزمني والديني. على المستوى الزمني ازدهرت الدولة-القومية في أوربا القرن التاسع عشر، لتكتشف شؤمها في النصف الأول من القرن العشرين (حربان عالميتان). وعندما حان أوان استقلالنا في النصف الثاني من ذات القرن أهدتنا أوربا ذات الفكرة، فكانت كمن يهدي للأسد قفص في حديقة الحيوانات. على المستوى الديني فإن على المسلم أن يخجل من نفسه وهو يحاول قفل تونس على التونسيين، ومصر على المصريين، في الوقت الذي يرى فيه الأوربيين يفتحون الفضاء الأوربي أمام الأوربيين، والأمريكان يفتحون العالم ليكون فضاءً حراً أمام الأمريكيين.

أيهما أولى بالعولمة؟ الذي أنزل دينه رحمة للعالمين أم المغضوب عليهم والضالين؟ أيهم أحرى بأن يكون فضاء مفتوحاً: دار الإسلام أمام المسلمين، أم أوربا أمام الأوربيين، والعالم أمام الأمريكيين؟ وعندما تفتح أوربا أمام الأوربيين والعالم أمام الأمريكيين، ما المبرر لأن تتحول دار الإسلام إلى معتقلات للإسلاميين؟ لا مبرر إلا اتباع الهوى الذي يتحول إلى إله يأذن لمن اتبعه بما لا يأذن به الله! قبل أن أختم لابد أن أذكر القارئ بما بدأت به: أنا لا أكتب لمن اختار غير الإسلام ديناً، أنا أكتب للمسلمين!

الكلمـة-المشـروع

ساويت في بعض ما كتبت بين القومية والاشتراكية والوطنية على أن الثلاثة «كلام فارغ»! وحيث إننا أنفقنا اربعين سنة من أعمارنا لندرك أن القومية والاشتراكية كلام فارغ، فقد تساءلت إن كان هناك داعٍ لأن ننفق أربعين سنة أخرى لندرك أن «الوطنية» هي الأخرى كلمة فارغة. الأستاذ عمر الككلي تساءل باللهجة الليبية: «شن تقترح البديل لكل هذه الكلمات الفارغة استاذ محمد؟ لا بد من وجود كلمة»!

تساؤل الأستاذ عمر جوهري، ويستحق إجابة تفصيلية تليق بعمق السؤال. ولهذا السبب كتبت هذه الورقة، ليس فقط لأحدد «الكلمة»، وإنما لأبين أن «الكلمة» محل البيان هي في جوهرها مشروع حقيقي وفي غاية الجدية!

وقبل الانتقال إلى صلب الموضوع لا بد من القول، على سبيل التمهيد، أن مفردة «كلمة» كمصطلح تحتمل المعنى المفرد (الله مثلاً)، وتحتمل معنى الجملة كقولنا «لا إله إلا الله» هي كلمة التقوى، كما تحتمل الحديث الطويل كأن نقول ألقى فلان كلمة في الحاضرين استغرقت عشرين دقيقة...! ما تبقى من هذه الورقة مقسم إلى جزأين يتناول الأول الكلمة، ويتناول الثاني المشروع.

أولاً- الكلمة.

هناك أمر إلهي نصه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:1]. وفي نفسي فهم خاص لهذه الآية أو لهذا الأمر منذ بعض الوقت، غير أني لم أجد المناسبة للتعبير عنه، ولم أجد له ما يؤيده فيما اطلعت عليه من تفاسير. وأسوأ من ذلك أني عثرت عند الجلالين على تفسير متهافت يقول: سبح اسم ربك، أي نزه ربك عما لا يليق به و«اسم» زائد، و«الأعلى» صفة لربك! تهافت تفسير الجلالين ناتج عن سيره عكس «التنزيه» باعتباره المعنى المقصود بالتسبيح، فهذا التفسير لا يحقق التنزيه المطلوب بقوله أن «أسم» زائد ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ لا توجد كلمة زائدة في القرآن، القرآن لا حشو فيه، ومعنى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] لا يفهم إلا بدليل مركب من عدة خطوات تنتهي إلى تبيان كيف ينصب التنزيه على الاسم، وليس على الذات، وعلى النحو الذي سنراه بعد الفراغ من فكرة تعدد الأرباب!

أ) تعدد الأرباب. كلمة الرب الأعلى تفترض تعدد الأرباب، بحيث تصبح هناك حاجة لتحديد من هو الرب الأعلى. في هذا الباب عندك «رب العمل»، و«ربة البيت»، وقول يوسف لصاحبه في السجن ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]! والنص يأمر النبي والمسلمين من بعده بتسبيح اسم الرب الأعلى، فما هو أسم الرب الأعلى؟

الله هو أسم الرب الأعلى، أليس كذلك؟!

فهل يكفي في هذه القضية القول «سبحان الله»؟ بالتأكيد لا، لأن التنزيه في «سبحان الله» منصب على الذات وليس على الاسم، والمطلوب هو العكس، أي تسبيح الاسم وليس الذات. لاحظ أن الآية لم تقل سبح اسم إلهك الأعلى لأن الألوهية ليس فيها تعدد، وعلى خلاف الربوبية التي قد تكون

صفة اجتماعية «رب الأسرة»، كما قد تكون صفة لمدبر الكون «رب العالمين»! وهذا في نظري من وجوه الإعجاز -الذي لا ينقطع على مر الأيام- لأن درجة قوة البيان القرآني تجاوزت قدرات جل المفسرين الذين اطلعت أو استمعت إلى تفاسيرهم، ومن بينهم الشيخان بن عاشور والشعراوي رحمهما الله!

ب) تسبيح الاسم. «سبحان الله» تعني تنزه الله عن الشريك، والشبيه، والولد.. وكل صفة من الصفات التي لا تليق بجلاله وكماله! وكل مسلم يقول سبحان الله يؤجر، لكن تسبيحه لا يحقق التنزيه المطلوب في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1]، فـ «سبحان الله» منصب على ذاته وليس على اسمه، بينما الأمر بالتسبيح في الآية منصب على اسمه وليس على ذاته العلية. وإذا كان قد تقدم معنا أن أسم الرب الأعلى هو الله، فكيف نسبح هذا الاسم؟ كيف ننزه هذا الاسم؟

تسبيح هذا الاسم أو تنزيهه يتم بطريقة واحدة لا غير، وهي شهادة أن «لا إله إلا الله»! ولذا جاء عن النبي أنه قال: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله»! وهي بمثابة قولك تنزه الله عن أن يكون معه إله آخر! وهذا هو ما شهد به كتاب الله العزيز في سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

ثانياً- المشروع.

«لا إله إلا الله» هي الصيغة الوحيدة لتنزيه أسم الرب الأعلى. عند المسلمين كانت هذه الكلمة ومازالت مشروع غايته أن تكون كلمة الله هي العليا. و لا تكون كلمة «الله» هي العليا إذا جعلنا مع الله إله آخر، في الأرض أو في السماء. فكلمة «الله» التي نجعلها هي العليا عندما نسبحها بقول «لا إله إلا الله» كانت مشروعا كونياً من أول يوم، لكن لا يعلم الغيب إلا الله!

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا..!

لو علم أبو سفيان أن الإسلام سيجعل من البلدان الممتدة بين الهند والاندلس مملكة لبني أمية، ما قاتل الإسلام في أحد والأحزاب، وحتى فتح مكة! ولو كان أبوسفيان يعلم أن ابنه معاوية سيكون آخر الخلفاء وأول الملوك لما صاح «أعل هبل»، وحوله اجساد سبعين شهيدا من المسلمين!... كمشروع لاقت لا إله إلا الله مقاومة من أقرب أقارب الداعين إليها، ومن ذلك ابو لهب الذي قال للنبي «لا قبل لنا بالعرب»! بمعنى أن النظام العربي في حينها كان مؤسساً على الأصنام (تعدد الآلهة) التي ستهدها «لا إله إلا الله»، ولذا يتوقع أبو لهب، وهو حبيس وعيه القومي، أن العرب ستهب إلى الدفاع عن أصنامها والنظام القائم عليها، وقد فعلت، غير أن الله متم نوره ولو كره الكافرون. لو علم أبو لهب أن الإسلام سيقارع الروم والفرس في مرة واحدة بعد عشرين سنة، وأن العراق سيصبح بستان قريش، لما قال لابن أخيه «تباً لك حتى آخر النهار.. إلهذا جمعتنا؟» (يقصد لتخبرنا أنك رسول الله!

تحقق المشروع وأضاء الدنيا لألف سنة، ثم انطفت أنواره تبعًا لقانون ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]! ومازال المشروع قائمًا، غير أن أشد الناس عداوة للذين آمنوا استطاعوا وضع أبناء المسلمين على الخط الأول في المواجهة معه، فما يشهده المشروع اليوم مجرد عود على بدء!

وما تبني أبناء المسلمين لأفكار من نوع «القومية» و«الاشتراكية» و«الوطنية» إلا استبدال للذي هو أدني بالذي هو خير، فلنجري بعض المقاربات والمقارنات ليتبين الرشد من الغي؛

أولاً؛ لاداعي لـ «فقه التلفيق» والاستشهاد بما يمكن أن ينسب للإسلام بخصوص حب الوطن، فأنا لا اهاجم فكرة أن الإنسان يحب بلاده حباً

غريزياً؛ ما اهاجمه هو «الوطنية» كدين متفرع عن «عبادة الوطن»! فعندما يلتقي الليبي وأخوه التشادي (أو المغربي وأخوه الجزائري، أو العراقي وأخيه الأيراني) وكل عازم على قتل أخيه باسم الوطن، عندها يتساوى - في ميزان الشرع- من يقدم أنساناً قرباناً للوطن والذي ينحر بعيرًا قربانًا لـ «هبل»! تقديم القرابين عبادة (منذ قابيل وهابيل) والعبادة لا تكون إلا لله، فمن قدم قربانًا للوطن يكون عابداً لغير الله، يستوي في ذلك أن يكون القربان إنسانًا أو حيوانًا!

الكلمة-الجريمة

عندما يُبنى نظام على تعدد الآلهة –كما هو حال النظام العالمي اليوم– تصبح كلمة «لا إله إلا الله» جريمة والمشروع القائم عليها مؤامرة! وإذا رفض القارئ هذه الفرضية فلن ألومه، لأني كنت في مكانه قبل خمسة وثلاثين سنة. القصور النظري الذي يطبع حياة المسلمين هو ما جعلني في السابق لا أرى ما أراه اليوم، بعد بحث واطلاع على الكثير من الحقائق، لاسيما ما تعلق منها بالفكر الأوربي:(القوة الناعمة التي تحكم العالم).

ويبدو القصور النظري واضحا لدى من لا يستطيع إجراء عملية حسابية مركبة من عدة خطوات، وهو حال المسلم الذي يرى العالم في صورة سلسلة من البديهيات الخالية من أي تعقيد، وكلها من نوع واحد زائد واحد، التي لا تحتاج لعظيم مجهود. المثال على ذلك ألّا إنسان يشك في أن عمر المختار قد قتل مظلوماً على يد الايطاليين، لكن الشك سيتطرق إلى ذهنه إذا قلنا إن عبد القادر عودة أو سيد قطب قد قتل مظلوما. والسبب في مثل هذا النوع من البلبلة هو أن المسلم لا يرى اعدام الثلاثة على حقيقته، أي مجرد فروع للظلم الأول الذي وصفه لقمان في موعظته لابنه بالقول: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13] .

الشرك هو الظلم الذي تتفرع عنه كل الشرور البشرية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: 44]. ومن لم يدرك هذه الحقيقة سيظل في بلبلة نظرية من النوع الكامن في جوهر كل الحروب الأهلية التي تمزق الأمة المسلمة، وتعيق أي تعاون على البر والتقوى، وأسوأ من ذلك أنها أساس لكل تعاون على الإثم والعدوان! والقصد من هذه الورقة ليس فقط تبيان أن الشرك أساس لكل الإثم والعدوان الذي نحن شاهدوه، وإنما تبيان كذلك أن الشرك قد أصبح يأخذ صوراً لم يدركها العقل المسلم بعد، لأن شرك الجاهلية الأولى تمظهر في الأصنام التي أخذت شكلها في عالم الحجر، بينما أصنام اليوم أفكار/نظريات مجردة وأحياناً مشفرة. والمسلم المعاصر لا يغفل عن السر في شؤم الأصنام القديمة فقط، وإنما لا يرى أصنام الحداثة وأثرها السلبي، الذي يقطع سبيل العقل بين النتائج وإدراك كامل سلسلة الأسباب المفضية إلى السبب الأول.

أولا. الأصنام.

الأصنام لها أثر واحد على المستوى النفسي؛ وهو تشويه الفطرة السليمة، بحيث تصبح معوجة بعد أن ولدت مستقيمة على الإسلام. ويستوي في ذلك قديم الأصنام وجديدها، وعلى التفصيل التالي؛

أ) الأصنام القديمة. عند ظهور الإسلام كانت الأصنام هي الرجس الذي يلوث البيئة (العربية)، وأقدس مكان فيها هو بيت الله الحرام، الذي ببكة! وما أود أن يراه القارئ هو أن أثر الأصنام الذي اهتم له الإسلام هو أثرها على الفطرة، على النفس البشرية، وهذا القول-الذي سأدلل عليه فورا- مجرد تمهيد لتبيان أن الأصنام المعاصرة (أصنام الحداثة) لها نفس الأثر على النفس البشرية، وإن لم تأخذ مظهرًا ماديًا في الواقع. فقطب الرحى في

عقيدة المسلمين ليس بغض الحجر الذي أخذ شكل الأصنام أو الخشب الذي أخذ شكل الأوثان، وإنما تشويه الأصنام والأوثان للفطرة لدى عامة الناس، فإذا استقامت الفطرة تصبح الأصنام عديمة القيمة. ولي على ما سلف دليلان؛ الأول، هو صلاة النبي ﷺ عند الكعبة قبل الهجرة وسط الأصنام والأوثان التي تحيط بالكعبة. والثاني هو شعور المسلمين بالحرج عند السعي بين الصفا والمروة، مع وجود صنم على الصفا (ايساف) وصنم على المروة (نائلة). وسبب الحرج عند المسلمين هو أن ظاهر الحال يوحي بأنهم يسعون بين «إساف» و«نائلة»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]! الصفا والمروة من شعائر الله؛ هذا هو الأصل، ولا يؤثر في هذا الأصل مشهد عارض للأصنام على الصفا والمروة.

عندما استقامت الفطرة، وخلصت النية لله تعالى، لم يؤثر في شعائر الرسول وأوائل المسلمين (الصلاة والسعي والطواف) أنها كانت بين الأصنام، فأثر الأصنام السلبي يقتصر على المشركين أما في عالم المسلمين فإن الأصنام والأوثان من ملوثات البيئة التي يجب التخلص منها وفقاً لقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: 30]. والربط بين الأوثان وقول الزور في الآية ليس صدفة، فالقول بأن الله معه إله آخر هو قول الزور الذي يتجسد في أوثان/رجس. مرة أخرى وأخيرة: في شكلها المادي القديم الأصنام والأوثان مجرد ملوثات للبيئة، لكنها على المستوى النفسي ملوثات للفطرة السليمة التي تعوج فتضفي عليها صفة الألوهية، ظلما وعدوانا. وهو ما يتكرر عندما يكون رجس الأصنام والأوثان مخبأ في صورة نظريات معرفية تقيد العقل البشري، وتضلل العقل المسلم من جديد.

ب) الأصنام الجديدة. وهي من المدركات عند فلاسفة الغرب والكتابات عنها متعددة، لكن ما يستحق التوقف عنده هو قول نيتشه: «الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم»!

There are more idols than realities in the World.

ويأتي تقرير نيتشه هذا بعد ثلاثة قرون من تفصيل فرانسيس بيكون لنوعية الأصنام النظرية وتصنيفها الجديد، بحسبها من المؤثرات السلبية على البحث العلمي، أو لنقل من المؤثرات التي تضلل خطوات العقل السليم بين الأسباب والنتائج. ومن هذه المؤثرات ما وصفه بيكون بـ«أصنام الكهف»، وهي الباطل الذي يحتل عقل الإنسان ويتحول إلى ما يشبه الهوس، أي يصبح الشلل الذي يحرم العقل من أداء وظيفته:(النظر/التفكير). وفي سياق شلل القوى العقلية يتحول الممكن إلى مستحيل، ويتحول الباطل إلى حق، ويتحول الحق إلى جريمة!

ثانياً. الجريمة.

لابد من التفرقة بين الجريمة من منظور إسلامي، والجريمة من منظور جاهلي، لأن تبادل الاتهامات بين الإسلام والجاهلية أصبح التاريخ الذي يعيد نفسه! وهذا هو، في نظري، مبرر وصف الجاهلية العربية التي قارعها الإسلام أول مرة بـ «الأولى» والمعنى الباطن للآية هو أن هناك جاهلية ثانية/جديدة تأتي بعد الجاهلية الأولى، مثل جاهلية النظام العالمي الحالي، الذي احتفل بالذكرى المئوية لوعد بلفور وأعلن القدس عاصمة لدولة بني إسرائيل! هذه كلها جرائم بالمعنى الأخلاقي/الإسلامي، لكنها ليست كذلك بالمعنى الجاهلي حيث الإسلام هو الجريمة، وهذا يستحق شيئًا من التفصيل لاختلاف مفهوم الجريمة في النظامين الإسلامي والجاهلي.

أ) الجريمة من منظور إسلامي. عندما يقول القرآن ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 72] فالقصد أن من استنكف عن إعمال العقل بشكل سليم في الدنيا سيكون أعمى بالفعل في الآخرة، وآية ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: 124-127]! والنسيان في الآية بمعنى الترك على وزن ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: 67] لأن الله لا ينسى، بل المقصود تركوا الله فتركهم، فوصف الجريمة في مفتتح الآيات هو «الإعراض» وفي ختامها «النسيان» فتساوى الإعراض والنسيان/الترك كنوع من أنواع الظلم/الجريمة التي يحشر صاحبها أعمى كعقوبة عن رفض استخدام العقل لإدراك آيات الله المعجزات! والدليل على هذا النوع من الربط هو ما جاء في سورة السجدة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22]. فالآية تبين أن الإعراض عن آيات الله (= تركها/رفضها)، أشد انواع الظلم/الجريمة. والاستعاضة عن عبادة الله بعبادة الأصنام هو العمى النظري المفضي إلى جريمة الشرك، التي أصبحت شديدة الخفاء في الزمن المعاصر لأن الأصنام لم تعد حجرية وإنما أفكار مجردة!

ب) الجريمة من منظور جاهلي. ومن مشمولات العمى النظري عند المشركين تصنيف الإسلام كجريمة وتصنيف الداعين إليه كخارجين عن القانون! إذ عندما يؤسس النظام على تعدد الآلهة تكون الدعوة إلى توحيد الألوهية خروج عن القانون، وجريمة تتراوح عقوبتها بين الفصل من الوظيفة والتصفية الجسدية (بلغة هذه الأيام)، غير أن الغافل لا يستطيع الربط

بين الشرك (عبادة الأصنام) وتجريم الإسلام، لأن أصنام الحداثة نظريات، وهذا هو مفاد تقرير نيتشه أن «الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم» وأن موقفه منها هو «التفلسف بالمطرقة»! الأصنام؛ مادية أو معرفية، لا ينفع في مواجهتها إلا المطرقة: (المادية في عالم المادة، والفلسفية في عالم المعرفة)! وهذا ما ارجو ان يدركه القارئ من خلال الأمثلة الواقعية التي تربط بين النظري والتطبيقي في النظام العالمي الحالي.

ثالثاً. أمثلة من الواقع.

هناك أمثلة متعددة ومختلفة، ولا يجمع بينها إلا مبررها وهو صنم من أصنام الكهف! وسأعالج بعضاً من هذه الأمثلة لنرى كيف يجمعها أصل واحد على اختلاف انواعها.

أ) الثوم الصيني. تعرض في السوق الليبي أكياس من الثوم الصيني، وزن كل منها مائتي غرام، وثمنها خمس دينارات ليبية، أي خمسة وعشرون دينارا للكيلو. والعقل السليم يقول: إذا عجز الليبيون عن زراعة الثوم بما يكفي حاجتهم فالأولى أن يستوردوا الثوم من تونس أو مصر، حيث يعاني إخوانهم المزارعون الفاقة والكساد، فـ «الأقربون أولى بالمعروف». ولو كان للحدود الليبية قيمة لمنعت الثوم الصيني وسمحت للثوم المصري أو التونسي بدخول السوق الليبي. والحدود الليبية التونسية المصرية ليست عديمة القيمة فقط، وإنما عديمة الوجود كذلك، فقبل اربعين سنة كان سكان الجنوب التونسي يأتون على الأقدام، دون جوازات سفر، ودون تأشيرات، من أي نوع، للعمل في ليبيا. ومازال المصريون وحتى البنغلاديشيون يعبرون كل الحدود ويركبون البحر إلى أوربا عبر ليبيا، فالحدود لا وجود لها إلا في رؤوس أصحابها: (كهوف الظلمات).

كان الاستعمار، وهو يخط الحدود على الورق، ينصب أصناماً، أو يغرس أوهاماً، في رؤوس الليبيين والتونسيين والمصريين. هذه الأصنام/الأوهام تجعل من الممكن استيراد الثوم الصيني، ومن المستحيل استيراد الثوم المصري أو التونسي. هذا هو بالضبط ما يحصل للعقل السليم عندما يحتله صنم حجري أو نظري: يتحول الممكن إلى مستحيل، وأكثر من هذا يتحول الحق أو الواجب إلى جريمة!

عبور الحدود جريمة، مثل الاستخفاف باللات والعزى، فالحدود تضع إطارًا للمعتقل الذي يعتقل فيه العقل قبل البدن. الحدود لا شيء سوى حصون، وراء حصون، وراءها حصون تحقق منجزًا واحدًا: حماية دولة بني إسرائيل. فالعرب والمسلمون الذين تنادوا لفلسطين سنة 1948، لم يعد بإمكانهم تجاوز حدود الوطن-المعتقل. وإذا فكر مسلم في نصرة الفلسطينيين بالانتقال إلى فلسطين فإن من يقبض عليه لن تكون الحكومة اليهودية، وإنما الحكومة العربية التي تحرس المعتقل المسمى «الدولة الوطنية»! المغفل العربي لا يرى حكومته وهي تحرس حدود المعتقل، لأن في رأسه صنم اسمه «الوطن»! فالحكومة، من وجهة نظر هذا المغفل، تحمي حدود الوطن وليس حدود المعتقل! هذا هو دور الوطن-الصنم؛ إعطاء الباطل صورة الحق!

الحدود-الأصنام يتم اليوم خلقها من العدم، وبتمويل أوربي وأمريكي، لأنها أفضل معتقل، ليس للإنسان العربي، وإنما للعقل العربي/المسلم، الذي يتصور، وهو قابع في المعتقل، أن سبب مشكلته هو الدولة المجاورة، أو القبيلة المجاورة، غافلا عن أن أصنام الحداثة تلغي قاعدة «المسلم أخو المسلم» وتضع بدلها «الجزائري عدو المغربي» أو «التركي عدو الكردي». وهذا قليل من كثير يعظمه الناس تعظيم الجاهلية الأولى لأصنامها مثل تعظيم

المغفلين لتفاهات تتعلق بملكية «تيران وصنافير» أو «مثلث حلايب»، التي ما كان لها أن توجد لولا «الوطن» و«الحدود»، كأصنام نظرية تشوه الفطرة فتعوج لتستبدل الصراع الإسلامي-اليهودي بصراع إسلامي-إسلامي!

ب) قضية المجاهدين. عندما اجتاح الصليبيون الجدد العراق سنة 2003، خف بعض الليبيين إلى العراق باعتباره يتعرض لغزو يجعل من واجب كل مسلم الإسراع لنجدته، وعندما وصل الليبيون هناك لقوا الشهادة ولكن ليس برصاص الصليبيين، وإنما برصاص أطلق على ظهورهم من قبل العراقيين الذين اعتقدوا أن الليبيين قد جاءوا للدفاع عن صدام حسين ونظام صدام حسين. ومن المشاهد التي لن تفارق مخيلتي صور العذاب الذي تلقاه آلافارقة على يد الليبيين الذين اعتقدوا ان آلافارقة قد جاءوا لنجدة القذافي ونظامه. لقد دفع آلافارقة إلى ليبيا تصورهم أن القذافي -الذي أباد بدم بارد 1200 من المسلمين في صباح واحد- يدافع عن الإسلام، وأرض الإسلام. الليبيون الذين ذهبوا للعراق، وآلافارقة الذين توافدوا على ليبيا للجهاد مازالوا غير واعين لكنه النظام القانوني العالمي الذي يجعل منهم ارهابيين/مجرمين، مثل عمر المختار قبل ثمانين سنة، ومثل اللبناني أو الفلسطيني الذي يصنف إرهابيًا اليوم لأنه يقاتل من أجل البقاء.

وبينما يجري كل هذا للمسلمين، يصور اليهودي الذي يأتي من بلاده (أوربا أو أمريكا) لحرب المسلمين في غزة أو لبنان -ثم يعود من حيث أتى بعد الحرب- بطلاً تُجرى معه مقابلات تبثها الفضائيات لكل من لديه عيون ليشاهد وآذان ليسمع كيف يقف البطل اليهودي في مواجهة المسلم/الإرهابي. ومؤخرا أنظم المنافقون العرب لليهود في الحرب على الإسلام التي يسمونها «الحرب على الإرهاب»، حتى لا ينتبه الذين تبلبلت أفكارهم!

وإذا كان للمسلم أن يعيد ترتيب أفكاره فلابد أن يعلم أن جريمته التي لن تغفرها له الشرعية الدولية هي محاولته انجاز مشروعه الذي يبدأ دائما من لا إله إلا الله. ولن تغفر له الشرعية الدولية هذه الجريمة إلا إذا جعل مع الله إله آخر، ولم يعترض على وجود أصنام الحداثة في فضائه الثقافي. وفي هذا السياق لا يسمح للإسلاميين بالعمل إلا على مضض وبعد أن يعلنوا قبولهم نصف الباطل: التسامح مع، والعيش بين، الأصنام النظرية، التي تحدث عنها بيكون قبل أربعة قرون، ومازالت سرا من أسرار كل شرعية تأسست على تعدد الآلهة!

مستقر العادة في انتخابات التخلف

تمزيق المجتمعات المتخلفة بالانتخابات مما يقع في «مستقر العادة». فإذا أردت أن تمزق مجتمعاً متخلفاً كل ممزق فأنت لا تحتاج لأكثر من انتخابات. ويستحسن بدايةً الإشارة إلى أن مصطلح «مستقر العادة» من أفكار ابن خلدون التي حوّل فيها آية قرآنية إلى فكرة عقلانية، فـ «مستقر العادة» عند ابن خلدون هي «السنن» بلغة القرآن الكريم، غير أن ابن خلدون لا يخاطر باحتمال إضافة القصور البشري في استقراء حركة المجتمع، وأحداث التاريخ، إلى «السنن الإلهية»! كان ابن خلدون أكثر حصافة وعقلانية من هيجل وماركس، لأنه لم يقل بـ «الحتمية التاريخية» لم يجعل من التاريخ، أو الاقتصاد، إلهًا حاكماً على مصير الإنسانية.

كل ما يقوله ابن خلدون هو أن هناك أشياء تحدث عادةً (أو بشكل يتكرر تكرار العادة) إذا اجتمعت أسباب معينة، وهنا مربط الفرس، فقد استقرت العادة أن تكون الانتخابات وبالاً على الشعوب التي ليست في مستواها: (لا قدرة لديها على تنظيمها بنفسها فتترك تنظيمها لغيرها، أو لمن تتعارض مصلحته مع مصلحتها، فينظمها لها في غير وقتها، أو دون توافر شروط نجاحها). وهذا هو ما أقرأه في مشروع الانتخابات التي يجري بنا غسان سلامة نحوها. هذه الانتخابات إن تمت فقد تقود إلى تقسيم البلاد؛ وهذا ما أجد له

سنداً في «مستقر العادة» في انتخابات الشعوب المتخلفة، حيث يكون ما بعد الانتخابات أسوأ مما قبلها، وليس هناك في تصوري ما هو أسوأ من نتيجة الانتخابات السابقة (الحرب الأهلية) إلا تقسيم البلاد.

أولاً. مستقر العادة الانتخابية.

في ثلاثينيات القرن الماضي بدأت الجزائر في الاستيقاظ من سباتها العميق بقيادة «جمعية العلماء» التي تأسست سنة 1931. أدخلت الجمعية ثقافة «الواجبات» إلى روح المجتمع الجزائري بشعارها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. ومن يومها شرع الجزائريون يبنون مرة مدرسة ومرة أخرى جامع، وانتشر التعليم في المدارس ودروس المساجد، إلى أن تكوَّن تيارًا إسلامي عريض تكلل بانعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936.

أرتج معسكر الإدارة الاستعمارية رجة هائلة لانعقاد المؤتمر الذي كلل الجهد الجزائري-الإسلامي في مواجهة الجهد الفرنسي-الصليبي، وكان على الإدارة الصليبية إيجاد طريقة تُجهض بها ثقافة الواجبات التي تدفع بالشعب الجزائري إلى الأمام وترتقي به إلى أعلى. أدخلت الإدارة الاستعمارية إلى دائرة التداول «ثقافة الحقوق»، ودعمتها بفكرة الانتخابات، فترك الجزائريون نهج «الواجبات» وشرعوا يتحدثون لغة الحقوق والاستحقاقات: (حقوقنا.. نريد حقوقنا). بعدها بقليل تم القضاء على المؤتمر الإسلامي الجزائري قضاءً مبرما لأن أساسه ثقافة «الواجبات» التي تم بيعها لشراء «ثقافة الحقوق» ـ وهذه الأخيرة مجرد مادة من المواد الاستهلاكية المستوردة.

كل ما تم في حينها، (في نظر شاهد القرن) هو توصل الإدارة الاستعمارية إلى إدخال الشعب الجزائري إلى «الزردة الانتخابية»، عوضاً عن «الزردة المرابطية» التي هجرها بفضل ثقافة الواجبات التي أحيتها جمعية العلماء!

إدخال الشعب الجزائري إلى دائرة الحقوق، والتوجه به إلى صناديق الانتخاب، ترك التخلف كما هو، بعد أن زلزلت أركانه «ثقافة الواجبات» التي انقلبت، مع العالم الذي قلبته الانتخابات، إلى «ثقافة الحقوق».

«كانت الأفكار قبل ذلك صافية، والنوايا خالصة صادقة، والقلوب رحيمة خيرة، فاستحال كل ذلك إلى الخلط والخبط والتباغض والانتهازية والثرثرة». هكذا يلخص بن نبي نتائج الانتخابات ـ فبفكرة واحدة، بإجراء واحد، بجولة انتخابية واحدة، ضاع صفاء الأفكار، وضاع صدق النوايا، وضاعت رحمة القلوب الخيرة!

هذا هو الصراع الفكري، الصراع الذي يدار بالأفكار وليس بغيرها، أو هذا هو الصراع الإيديولوجي لمن لا يعرف المصطلح إلا في باب التنابز بالألقاب. فكرة واحدة (الانتخابات) شوشت الأفكار الصافية، وبعثرة النوايا الحسنة، وإذا بالقلوب الرحيمة تتحول إلى قلوب قاسية، وإذا بإرادة الخير تنقلب إلى شر محض، وإذا بالثرثرة تحل محل الموعظة، وإذا بالإيثار ينقلب إلى انتهازية مدمرة.

أليس هذا هو بالضبط ما حصل في ليبيا بعد جولتين انتخابيتين: (2012 - 2014)؟!

غير أن مسلسل الانتخابات التي تنظمها فرنسا للمسلمين لم ينتهِ بعد، ففي سنة 2011 نظمت فرنسا انتخابات أخرى لمسلميها المقيمين على أرضها لانتخاب «المجلس الإسلامي الفرنسي» فما كان من المسلمين إلا أن مزقوا أنفسهم شر ممزق، مثلما فعلوا قبل سبعين سنة في الجزائر، لأن انتخابات 2011 مثل انتخابات 1934، لم تكن رغبة المسلمين وإنما رغبة فرنسا، ولم ينظمها أو يشرف عليها أو يحدد ميعادها المسلمون وإنما الإدارة الفرنسية!

كانت الانتخابات أداة - مجرد أداة- لبعثرة جهود المسلمين، وفي هذا الصدد يقول بن نبي: عندما تكفي حصوة لإيقاف المحرك فإن الاستعمار لا يضربه بقنبلة نووية، فإذا كان محرك الجزائر (أو المسلمين أينما كانوا) يمكن أن تعطله فكرة الانتخابات مثلاً، فلا داعي أن تستخدم أوربا أو أمريكا ترسانتها النووية.

وفي الانتخابات، التي تنتج عكس المأمول منها، يكمن جوهر القضية في تخلف الإنسان الذي ينتخب والإنسان الذي يتم انتخابه، فالذي ينتخب ضحل التفكير والثقافة عموماً، حتى أنه يفضل قريبه أو صديقه المهرج على شخص يتمتع بالكفاءة والفعالية، وهنا يكون الباعث للمشاركة في الانتخابات ليس المصلحة العامة، وإنما المصلحة الشخصية الضيقة التي حركتها مناسبة انتخابية. أما الذي يتم انتخابه فهو أحد ثلاثة؛ إما مجرد مهرج وفرت له الانتخابات منصة للتهريج، وإما انتهازي يسعى لمصلحته الخاصة، وإما إنسان في غاية الجدية لكنه يضيع بين تهريج الأول وانتهازية الثاني. ويتم كل الهرج والمرج والانتهازية باسم الوطن والوطنية عادة فنحن في عصر «عبادة الوطن»: (نحن في الجاهلية وحروبها الأهلية)!

هذه هي نوعية الانتخابات التي تجعل الإنسان المسلم يرى اليوم مومياء على كرسي متحرك في منصب رئاسة الجمهورية في الجزائر. وقد يؤول حكم ليبيا في وقت من الأوقات القريبة إلى مومياء متحركة أو دمية يتم تحريكها عن بعد، لأن الشعب الجزائري والشعب الليبي أشقاء في الخير والتخلف.

في السابق عرف بن نبي لمن يوجه نقده فانتقد القيادة (جمعية العلماء) دون تحفظ أو عصبية، وعلى النحو التالي: «الظروف السانحة وضعت العلماء أمناء على مصلحة الشعب، فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في

مستواها العقلي، سلموها لمن يضعها تحت أقدامه لتكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية»!

ما يستحق التوقف عنده مطولاً هو أن العلماء، وهم فطاحل الثقافة الدينية التقليدية في ذاك الزمان، لم يكونوا في المستوى العقلي لتعقيدات الصراع الذي تستخدم فيه الأفكار (قبل البنادق والمدافع)، إذ لم تكن القيادة الإسلامية الجزائرية (جمعية العلماء) تملك في حينها أكثر من عقل كونه علم الكلام (حسب تعبير بن نبي) وهو عقل بينه وبين القرن العشرين ألف سنة. وفي هذا السياق يقول بن نبي: «لم يكن العلماء على جانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري حتى يتفطنوا لهذا الانحراف، ولم يكن لديهم من حدة المزاج وصرامة الإرادة ما يكفي حتى يتداركوا الموقف»!

لو أعدنا قراءة فقرات بن نبي السابقة في نقاط لأدركنا أن العلماء لم يكونوا في المستوى العقلي للمواجهة مع فرنسا لنقص في قدرات لازمة، ولا يمكن لأي قيادة تحررية العمل بدونها، وهي:

الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري؛

الحزم وحدة المزاج عند التصدي للانحراف ساعة ظهوره، كما جرى في غزة بعد انتخابات 2006؛

الصرامة في الحسم، وهو ما أظهرته «حماس» عندما تبين لها أن الانتخابات الفلسطينية كانت مجرد فخ للإيقاع بالفلسطينيين.

بين 1936 و2006 قطع العمل الإسلامي المنظم مسافة لا بأس بها إلى الأمام على جبهة الصراع الفكري، لكن قبل 70 سنة كان نقص العناصر السالف بيانها هو السبب الذي جعل الأمور تفلت من يد جمعية العلماء

بشكل نهائي لاسيما وأن المشروع المضاد، «الحزب الشيوعي الجزائري»، قد تأسس في السنة التي انتهت فيها فعالية المؤتمر الإسلامي (1936). ويجد الشلل الذي تعيشه الجزائر اليوم كل أسبابه في رواسب تلك الحقبة، ومن أهمها استمرار الجهل بوسائل الصراع الفكري الذي جعل مناضلي الحزب الشيوعي الذي تأسس على قبر المؤتمر الإسلامي هم الذين يستلمون مقاليد الأمور في الجزائر المستقلة دون أن ينتبه الشعب. وقد أصاب ليبيا ذات الشلل الذي أصاب الجزائر منذ زمن بعيد، لكنه لم يظهر على السطح إلا إثر جولتين انتخابيتين دخلهما شعب مغيب عن حقائق الصراع الفكري، ويمكن تهييجه حد فقد العقل بفكرة/كذبة من نوع «الإخوان يبيعون النفط من غير عدادات»!

الذي يوجه الصراعين الفكري والنفسي في ليبيا يعرف النوتة التي تجعل الشعب الليبي يرقص (أو يردح إذا أردت عبارة أكثر دقة) ومازالت الموسيقى مستمرة، إذ يقود سلامة اوركسترا جولة جديدة من الانتخابات دون دستور، لأن «الدستور» سيكون عقبة كأداء في طريق تقسيم ليبيا، لنصه صراحة على عدم جواز ذلك، فلابد إذن من إزاحة العقبة من الطريق حتى يتم مشروع التقسيم الذي وُضع على مائدة القذافي آخر أيامه، ومازال ينتظر فرصة أخرى ليتحقق في واقع شعب غافل. فهل ينجح غسان سلامة؟

ثانياً. انتخابات غسان سلامة.

نظراً لعدم معرفة الليبيين بأساليب الاستعمار في إدارة الصراع بالانتخابات يجري التسجيل للانتخابات بهمة ونشاط وكأنها الحل النهائي. ومما زاد الإقبال على التسجيل اقتناع أنصار النظام السابق بأن إبليس سيعود إلى الجنة بانتخابات نزيهة، وأنهم سيعودون وراءه، بإشراف المجتمع

الدولي. من حق الليبيين العودة إلى بلادهم على كل حال، لكن ما يدعو للرثاء حقاً هو عدم تصور الليبيين أن نتيجة الانتخابات - إذا تمت كما هو متصور الآن- ستكون إما تقسيم ليبيا، وإما أن تذهب ليبيا دخاناً في السماء، وكل هذا مما يُسعد اليهود الذين أعلنوا أكثر من مرة ابتهاجهم لرؤية أعدائهم المسلمين يمزقون بعضهم بعضاً!

ما علاقة اليهود بما يجري في ليبيا؟

بعد انتهاء عهدة مارتن كوبلر وقع الاختيار على الفلسطيني سلام فياض ليكون على رأس بعثة الدعم الأممية في ليبيا، غير أن الأنباء جاءت باعتراض الولايات المتحدة عليه! وحقيقة الأمر أن الذي اعترض على سلام فياض لم يكن الولايات المتحدة وإنما بنو إسرائيل، وما كانت الإدارة الأمريكية في هذا السياق سوى الأداة التي عطلت تفعيل تعيين سلام فياض، لأن الولايات المتحدة تملك ما لا تملكه دولة بني إسرائيل: (حق الفيتو).

مرة أخرى؛ ما علاقة دولة بني إسرائيل بما يجري في ليبيا؟

دولة بني إسرائيل صاحبة مصلحة فيما يجري في ليبيا؛ ويحقق مصلحتها أن يتم توجيه ما يجري ليس في ليبيا وحسب، وإنما في كامل بلاد المسلمين، نحو إعادة تقسيم المنطقة بكاملها إلى قطع صغيرة، من حجم الكويت، التي كانت الإدارة الأمريكية تسيرها بالفاكس حسب تعبير عبد الله النفيسي. في لقاء جرى مؤخراً مع الأمين العام للجامعة العربية، على إحدى الفضائيات المصرية، تحدث أبو الغيط عن أن هناك من حاول إقناعه بجدوى إعادة تقسيم البلاد العربية كلها، ولكنه لم يجرؤ على ذكر صاحب المشروع، وهو معذور لأنه في النهاية مجرد موظف مصري «يخاف على أكل عيشه»!

مشروع الإسلام المسيحي

المسيحية اليوم عبادة بدون شريعة، ولذا يتجاور في المجتمعات المسيحية بيوت العبادة وبيوت الدعارة. وتصدر الدولة تراخيص فتح بيوت العبادة وبيوت الدعارة بذات الطريقة؛ بمعنى أن دور الموظف الحكومي يقتصر على فحص ما إذا كان الملف مستوفي الشروط التي يتطلبها القانون وتحددها اللوائح بغض النظر عن البعد الأخلاقي للدار (عبادة أم دعارة)! وهذا اسمه «الدولة تقف على مسافة واحدة من الجميع»، أي على مسافة واحدة بين المومسات والرهبات، لأن الفرق بين المومسات والرهبات مسألة أخلاقية تهم الأفراد وليس الدولة! أو بعبارة أكثر إيجابية المومس والراهبة يقدمان خدمات روحية واجتماعية يحتاجها الفرد والمجتمع، حتى أن سارتر له مسرحية بعنوان «المومس الفاضلة».

وهناك اليوم محاولات حثيثة لفرض هذا النوع من التفكير والتصرف على المجتمع المسلم بحيث يتحول الإسلام هو الآخر إلى جملة من العبادات فقط، ودون شريعة تمنع شذوذ الفكر والفعل. والغريب ليس غفلة المسلمين عن مثل هذه الحقائق، وإنما قبول المسلمين لها، لأن قبولها سيحول الإسلام إلى نسخة من المسيحية التي استنسخت هي الأخرى عن اليهودية. وبهذا الشكل يتساوى أهل الكتاب (اليهود والنصارى والمسلمين) في الخروج عن

الإسلام وليس الانتظام فيه كما أوصى إبراهيم ويعقوب، أو دعا إليه موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

هناك دون أدنى شك من المسلمين من مازال على ملة إبراهيم ودين محمد، ويأمل أن يكون في الديمقراطية ما يكفي لإنصاف الإسلام باعتبار أن الديمقراطية احتكام إلى رأي المجتمع ورهانًا على سلامة الفطرة البشرية، غير أن المسيحية التي تحولت صليبية واليهودية التي تحولت صهيونية لا ترضى بغير إلغاء الإسلام جملة حتى تتحقق المساواة بين البشر دون تفرقة على أساس الدين، وكل ما يتطلبه هذا الأمر هو إلغاء الإسلام شريعةً والإبقاء عليه عبادة، ليذهب اليهودي إلى الكنيس والمسيحي إلى الكنيسة والمسلم إلى المسجد، دون التعرض لبيوت الدعارة ونوادي القمار وبنوك الربا، وليأكل الجميع السحت وليشربوا الخمر. وبهذا الشكل يصبح الإسلام مطابقًا للمعايير الدولية التي لا تفرق بين الدعارة والعبادة، ومن ثم يتساوى الإسلام والمسيحية في الامتثال للمعايير الدولية التي لم يشارك المسلمون في وضعها.

والسؤال الجوهري الآن هو: هل نبقى مسلمين إن نحن فعلنا ذلك؟

جدل العقل بين الجابري وطرابيشي

يتماهى طرابيشي في الحضارة الأوربية، وينتقد كتابة الجابري عن عقل عربي مستقل أو حتى مستقيل[1]، لأن هدف الجابري من نقد العقل العربي كان التأسيس لعقل جديد، وفي هذا تحدٍ لوحدانية الحضارة (التي تعبر عن وحدة الوجود) أو ما يسمى «المركزية الغربية». وفيما يلي نبذه مختصرة عن محور الجدل بين الجابري وطرابيشي (العقل).

أولاً. المصطلح والمفهوم.

أ) العقل العربي عند الجابري. النظم المعرفية المكونة للعقل العربي عند الجابري هي «البيان» و«العرفان» و«البرهان». وطرابيشي لا يخالف الجابري فيها كمصطلحات وإنما يخالفه فيها كمفاهيم. وفي هذا السياق لا بد من الإشارة إلى أن استخدام ذات المصطلح من قبل المسلم وغير المسلم لا يعني أن المفاهيم متحدة عندهما، لأن استعارة المصطلحات معمول به العمل، لكن الغفلة عن تعدد المفاهيم التي يمكن أن يعكسها مصطلح واحد

(1). ويصر طرابيشي -الذي اعتقد أن الجابري رجل يخفي إيمانه- على أن العقل الذي استقال هو العقل المسلم. وهذه الاستقالة يجب أن تكون دائمة ونهائية من وجهة نظر طرابيشي، الذي لم يغفر للجابري تعريفه للحداثة على أنها «العقلانية والديمقراطية». وسبب شقاء طرابيشي بالخصوص هو إهمال الجابري للعلمانية في تعريفه للحداثة، ذلك أن الحداثة بدون علمانية لا تحقق الغرض: القضاء على الإسلام.

يحدث بلبلة لا حدود لها في الصف الإسلامي. وسأعرض فيما يلي الضراوة التي قاتل بها طرابيشي رائحة الإسلام في فكر الجابري.

ب) العقل الإله عند طرابيشي. ينطلق طرابيشي من تأليه ضمني للعقل، ويظهر ذلك بوضوح في جدله مع الجابري. إذا بدأنا بالبرهان نجده عند طرابيشي «هو حرية العقل في ممارسة فعاليته بالاستناد إلى مرجعيته الذاتية وسلطته الخاصة».[1] وبهذا الموقف يرفع طرابيشي «العقل» إلى مستوى واجب الوجود، لأن واجب الوجود هو الذي لا يحتاج في وجوده لغيره، إذ الكل مفتقرٌ إليه وهو الغني عن الكافة.

استناد العقل على مرجعيته الذاتية واعتماده على سلطته الخاصة -كما يزعم طرابيشي- يجعل العقل في غنى عن أي مصدر معرفي آخر بما في ذلك الوحي. وعلى هذا المستوى يكون «العقل» في مستوى واجب الوجود عند غير المسلمين، أما عند المسلمين فواجب الوجود هو الله، العليم الحكيم، وسع كل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددا.

وطرابيشي ليس من المسلمين، وهذا هو ما قاده إلى الاختلاف مع الجابري حول مفهوم البيان مثلما اختلف معه حول مفهوم البرهان. وفي هذا الصدد يقول طرابيشي: «إن البيان [عند الجابري] هو فاعلية تأويلية تقيّد نشاط العقل بنص مقدس، أو بنص مرفوع إلى مرتبة القداسة».[2]

(1). جورج طرابيشي، العقل المستقيل في الإسلام؟ الطبعة الثانية، بيروت، دار الساقي، 2011. انظر الهامش رقم 132، ص 94-95. ولسان حال طرابيشي يقول هنا: لا برهان إلا بعد نبذ القرآن، وهذا الموقف لا يستغرب من طرابيشي لأنه لا يؤمن بالقرآن أصلاً، اما ما يُستغرب بحق فهو أن يأخذ إنسان نفس موقف طرابيشي ثم يقول عن نفسه أنه مسلم. وقد يكون إحكام الجابري طرحه العقلاني دون نبذ القرآن هو ما جعل طرابيشي يعتبره عقبة ابستيمولوجيه.

(2). ذات المرجع السابق.

وهنا نصل إلى موضوع من مواضيع علم الكلام الذي لا وجود له في حياة المسلمين اليوم، لأن الكلام كان علمًا عند المسلمين الأوائل، أما اليوم -وفي غيابه- أصبح الكلام عند الكثير من أبناء المسلمين ثرثرة، إن لم يكن هذيانًا. ومن ضمن الهذيان قول بعض أبناء المسلمين إن طرابيشي تعرض لإهمال متعمد من قبل المثقفين العرب لأنه مسيحي!

ومسألة أن يكون طرابيشي مسيحيًا أو غير مسيحي مسألة عديمة الأهمية، طالما لم يؤمن بمحمد وما أنزل على محمد ﷺ. وعندما يتحدث طرابيشي عن «تقييد نشاط العقل بنص مقدس، أو بنص مرفوع إلى مرتبة القداسة» فهو يتحدث عن القرآن الذي كفر به بادي الرأي.

القرآن عند طرابيشي ليس منهجًا يحوّل الكلام إلى علم يبني حضارة متميزة، اسمها الحضارة الإسلامية، وإنما قيد يحول بين العقل وبين أن يكون إلهًا. طرابيشي ومن لف لفه يكفر بما أنزل على محمد ليؤله العقل، وهذا هو ما نزل القرآن ليحول دون وقوعه، أو هذا هو ما نزل القرآن لإلغائه بعبارة أكثر دقة.

وما يثير أكبر الإشكاليات هو العقل العربي الذي ينتسب للإسلام وينضبط على ايديولوجيا غير إسلامية! وهذا العقل هو ما تراه عند مفكرين من نوع صادق جلال العظم، وحسين مروة، وطيب تزيني، والعفيف الأخضر. وهؤلاء الماركسيون من أبناء المسلمين لا يختلفون عن الماركسيين من أصول مسيحية مثل جورج طرابيشي وعزمي بشارة. هؤلاء وهؤلاء هم ورثة مشروع خيري دشنه رينان سنة 1883، وعنوانه: «أفضل خدمة نقدمها للمسلم هي تحريره من دينه»!

وبياني هذا هو حوار العقلانية المسلمة مع العقلانية غير المسلمة، بغض النظر عن تصنيفها الأيديولوجي، لأن الملل والنحل غير الإسلامية تجعل مع الله

آلهة أخرى، وهذا هو ما يجعلها كلها في النهاية ملة واحدة، سوى ألهت العقل أو ألهت غيره.

ثانيًا. تعدد الأيديولوجيات.

الأيديولوجيا هي منظومة الأفكار التي تعطي «الخطاب» طابعه المميز، فالأيديولوجيا الإسلامية هي الضابط المميز للخطاب الإسلامي، والأيديولوجيا الماركسية هي الضابط المميز للخطاب الماركسي... وهلم جرا. ولذا لابد من وضع جدل طرابيشي مع الجابري في السياق الأيديولوجي المناسب لكل منهما، وهو سياق العقول الثلاثة: 1) الفطري وهو واحد عند كل البشر، و2) المكتسب الذي ينقسم عند صاحب هذه الدراسة إلى: أ) مسلم، وب) غير مسلم. وبذا يكون عندنا عقل فطري واحد وعقلان مكتسبان: مسلم وغير مسلم. ولما كان صاحب الدراسة عقلانيا-مسلما، والجابري عربيا-عقلانيا، وطرابيشي عقلانيا-علمانيا، سيتم تفصيل الأيديولوجيات الثلاث وفق رؤى هذه العقول بحسبها متوحدة في الانتماء إلى العقل الفطري ومنقسمة إلى ثلاثة عقول مكتسبة، أي ثلاث ثقافات/ أيديولوجيات مختلفة بدرجات متفاوتة.

أ) أيديولوجيا صاحب الدراسة.

الأيديولوجيا لا تضبط الخطاب فقط وإنما تعطي صاحب الخطاب جنسيته الثقافية/ الفكرية. وفي هذا يقول الجابري: «هناك في العصر الحاضر قاعدة عرفية تتحدد بموجبها الجنسية الثقافية لكل مفكر، هذه القاعدة تقتضي أن المثقف لا ينسب إلى ثقافة معينة إلا إذا كان يفكر داخلها والتفكير داخل ثقافة معينة لا يعني التفكير في قضاياها، بل التفكير بواسطتها»[1]. وبذا يكون الخطاب الإسلامي هو الخطاب المنضبط داخل

(1) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الخامسة، 1991، ص 13

حدود الشريعة، فلا يقول الزنا حرية ولا الربا تجارة لأن هذه التعابير من مفردات الخطاب غير الإسلامي.

وهذا هو معنى أن المنتمي لثقافة معينة يفكر داخلها، أو يفكر بواسطتها، وليس في قضاياها. وما يجب أن يدركه القارئ هو أن طرابيشي كان يفكر في قضايا الثقافة الإسلامية ولكن من خارجها، فهو ليس مسلما ولا يلتزم بالدين أو الشريعة الإسلاميين، وبذا يكون خطابه غير إسلامي لأن موقعه العقدي/ الأيديولوجي خارج الإسلام ولا يختلف عن مستشرق يفكر في القضايا الإسلامية. والقول في هذا السياق أن طرابيشي مسيحي قول مضلل لأن أيديولوجيا طرابيشي ليست مسيحية ولذا أصنفه مفكرا غير مسلم لأنه حر في عقيدته أو أيديولوجيته ولا رقابة لي عليه فيها، ولكن من حقي أن أقرر أنه من أيديولوجيا/عقيدة غير إسلامية على اعتبار أن أيديولوجيتي/عقيدتي أنا إسلامية. وبهذا الشكل يتمايز «الأنا: المسلم»، عن «الآخر: غير المسلم».

ب) أيديولوجيا طرابيشي.

هناك تيار انطلق في منتصف القرن التاسع عشر مع ارنست رينان ويحمل لواءه اليوم الدكتور عزمي بشارة، ومن رموز هذا التيار فرح أنطون في النصف الأول من القرن العشرين وجورج طرابيشي في النصف الثاني منه. هؤلاء جميعًا يعملون على مشروع خيري عنوانه «أفضل خدمة يمكن أن نقدمها للمسلم هي أن نحرره من دينه»! هذا المشروع (تحرير المسلم من دينه) دشنه ارنست رينان في مواجهة آلافغاني في باريس سنة 1883، ونقله إلى القاهرة في بداية القرن العشرين فرح أنطون في مواجهة محمد عبده.[1]

(1) وهذه أمور تتبعتها بالشرح في كتابي، مئة سنة من الصراع الفكري، 2020، إسطنبول، دار منابع النور.

وما زال المشروع قائمًا وقيد الإنجاز اليوم، وإن لم يعد محل إعلان صريح من حاملي لوائه وأبرزهم الدكتور عزمي بشارة.

ومن الغفلة التحدث عن هؤلاء باعتبارهم مسيحيين لسببين: أولهما تعليمهم أبناء المسلمين لذات المنهج بحيث أصبح الكثير من أبناء المسلمين يعتقدون أن السبيل إلى الحرية مشروط بالتخلص من الإسلام، وإن لم يكن ذلك ممكنًا فلا أقل من التخلص من الإسلاميين، وبمساعدة أعداء الإسلام إذا لزم الأمر. وثانيهما تقسيمي العالم إلى مسلمين وغير مسلمين، والمذكورون آنفًا ليسوا مسلمين، ولذلك لا داعي لإثارة أنهم ماركسيون مثلاً، لأن المسيحي والماركسي يقعان في تصنيف غير المسلمين، ومن ثم يكون نقاش الفرق بين المسيحي والماركسي «نقاشا أكاديميا»: يمكن أن تضيّع فيه أربع سنوات من حياتك تحصل في نهايتها على شهادة دكتوراة تعلقها على الحائط؛ لكن النتيجة هي بقاء المسيحي والماركسي غير مسلمين.

القول إن طرابيشي غير مسلم لا يعني بالضرورة أنه مسيحي كما يعتقد البعض، والقول إنه ماركسي أو مسيحي لا يغير من وضعه الفكري وخطابه الثقافي في نظري شيئًا، لأنه خطاب غير إسلامي وهدفه تحرير المسلم من الإسلام. والقول إن الجابري مسلم أو أن خطابه إسلامي تجنٍ على الحقيقة وسوء تقدير لموقفي منه، لأن الجابري (وهو المعني الأول) لم يقل إنه إسلامي، بل قال إن العقل الذي ينقده هو العقل العربي الذي بإمكانه أن يكون عقلا برهانيا داخل الإسلام. وهذا الموقف هو الذي ذهب بعقل طرابيشي لأن أمله، أو مشروعه - تحرير المسلم من الإسلام- قد وقع في الماء، ليس بفعل الجابري وحده، وإنما بفعل نقاد ومفكرين آخرين قادرين على رؤية المشروع الذي يدافع عنه ويسوقه طرابيشي. ومن هؤلاء رضوان السيد الذي قال لفريق

طرابيشي: «ينحصر عملكم في «تنوير» العرب والمسلمين بشأن الخلاص من موروثهم الديني».

كان تخليص المسلمين من دينهم «المشروع الخيري» لإرنست رينان، وعندما استلم راية المشروع (في القاهرة) فرح أنطون توجه بخطابه إلى «العقلاء في كل ملة ودين في الشرق الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر فصاروا يطلبون وضع دينهم جانبًا في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحادًا حقيقيًا ومجاراة تيار التمدن الجديد..»!

ردود محمد عبده على أنطون ونقاشه لموقف الإسلام والمسيحية من العلم والمدنية أفقد هذا الأخير هدوءه فكشف عما بنفسه قائلاً: «فليحجم محمد عبده وغيره عن مثل هذا النقد مسدود الآفاق، ويجلس على مائدة الحوار الوطني العلماني العقلاني مع الآخرين..»! ومثلما فقد أنطون عقله أمام عقلانية محمد عبده فقد جورج طرابيشي عقله أمام دعوة الجابري لنبذ العلمانية والاكتفاء من الحداثة بالعقلانية والديمقراطية. وبهذه المناسبة كتب طرابيشي غاضبًا: «يريد الجابري الاستعاضة عن شعار العلمانية بشعاري العقلانية والديمقراطية. وعلى هذا النحو تتحول الحداثة إلى سوق للخردة نبتاع منها. بأبخس الأثمان. ما نشاء، وندفع ما نشاء إذا ما تخوفنا من ارتفاع ما في ثمن التكلفة، والواقع أنَّ استبعاد الجابري للعلمانية أشبه بفعل من يُريد أن يجعل كرسي الحداثة يقف على قائمتين اثنتين بدلاً من ثلاث أو أربع»! فهل كان موقف الجابري يحول الحداثة إلى سوق خردة؟ لنرى ذلك الآن!

ج) أيديولوجيا الجابري.

إن عدم تخلص الجابري من موروثه الديني وعدم تنكره للإسلام وعدم تبنيه لمشروع ارنست رينان وخلفائه في المنطقة هو ما سبب تعاسة جورج

طرابيشي حتى فقد هدوءه أمام نهج الجابري، وعلى طريقة فرح أنطون الذي انهزم في النهاية أمام محمد عبده.[1]

كان طرابيشي يأمل أن يكون موقف الجابري مثل موقف صادق جلال العظم وحسين مروة والعفيف الأخضر، ولكن خاب رجاؤه لأن الجابري لم ير في الإسلام عقبة معرفية في وجه المذهب المادي والعلمانية فكتب يقول بمنتهى المرارة: «صدمني [الجابري] حين كتب مقالة في مجلة اليوم السابع.. يقول فيها «فلنسحب هذه الكلمة ـ يقصد العلمانية ـ من قاموس الفكر العربي! هنا شعرت أن كل الآمال التي علقتها عليه باعتباره رائد ثورة معرفية. لا ثورة أيديولوجية. سقطت وتهاوت».

وهذا الموقف الذي يجعل العلمانية شرطًا للمعرفة لا يقره برهان غليون الذي يقول: «التصنيم الذي شهده مفهوم العلمانية هو الذي يفّسر تعثره وهزالة في المجتمعات والثقافات العديدة غير الأوروبية»! عند طرابيشي الحداثة دون علمانية ليست حداثة، وغليون يرى في هذا الموقف تحويلًا للعلمانية من ظاهرة أوروبية إلى صنم يلوذ به بعض الناس دون جدوى. وهذا التصنيم للعلمانية هو، في النهاية، موقف أيديولوجيٌ وليس موقفًا ابستمولوجيًا، فلا داعي للتدليس!

(1) حسب شهادة سلامة موسى، في كتابه هؤلاء علموني، مرجع سابق.

التخرج في المقبرة والخروج منها

توافق هذه السنة (2023) الذكرى الخمسين لوفاة مالك بن نبي (1905-1973). ومالك من أهم شخصيات القرن العشرين دون أدنى شك، وله إسهامات تستحق المراجعة من حين إلى آخر، ومن أهم هذه الإسهامات ما يتعلق بقضية «التعليم». والإسهام الذي أود التوقف عنده هنا هو رأي مالك فيما يسمى «البعثات التعليمية».

ورأي مالك في الموضوع لا يستحق التأمل والتوقف عنده وحسب، بل يستحق الاستعانة به لفهم وتحليل واقع التعليم في البلاد العربية، لأنه واقع في غاية السوء. ومن ذلك أن التعليم في ليبيا وسوريا والعراق والسودان واليمن والصومال قد خرج من التصنيف العالمي! وهذا يعني زوال الفرق بين العلم والجهل في مؤسسات تسمي نفسها «مؤسسات تعليمية».

وحقيقة الأمر هو أن تلك المؤسسات لا تسمى نفسها «تعليمية» إلا من باب «التجهيل الممنهج»، الذي يُغطى بشهادات جامعية ليصبح «جهلاً مقنعًا»، يوازي «البطالة المقنعة» ويعيد إنتاجها. وما أود التوقف عنده في هذه المقالة هو كيف يمكن أن يكون التعليم (والجامعي تحديدًا) مقبرة أولاً، ثم كيف يمكن الخروج من المقبرة بعد ذلك.

أولاً. التخرج في المقبرة.

يقول مالك؛ «بعثاتنا التعليمية تذهب إما إلى المزبلة أو إلى المقبرة»! وعند مالك بن نبي المقبرة في فرنسا نوعان: «البرلمان» و«الجامعة». ففي الجامعة الفرنسية يدرس الطلاب العرب كلمات وأفكار ميتة على صفحات باردة، ولاسيما فيما يسمى «العلوم الإنسانية». وبينما ينتزع الطلاب والعمال الفرنسيون حقوقهم من تحت هراوات البوليس في إضرابات يخوضونها ومظاهرات عارمة يسيرون فيها، يكتفي الطالب العربي بمشاهدتهم في التلفاز دون أن يخطر بباله أن الكفاح الذي يخوضه الإنسان الأوربي خارج الجامعة هو ما يصنع الحضارة الأوربية. وبهذا الشكل يعيش الطالب العربي أربع أو خمس سنوات عاكفًا على الكتب، في عزلة عن مجرى الحياة، ليحصل على شهادة يعود بها إلى بلاد المقابر.

في التصنيف العالمي لجودة التعليم حلت مصر في المركز 139، وهو ما قبل الأخير! مصر؛ التي ترسل بعثات تعليمية إلى فرنسا منذ مائتي سنة، هي اليوم أشد بلاد الله تخلفًا، حتى أن المصريين الأحياء يجاورون الأموات في مقابر القاهرة. وبعض الأحياء من المصريين يلتحق بالمصريين الأموات الذين يجاورهم إثر عضة كلب أو ثعبان من كلاب أو ثعابين المقابر. ويحدث كل ذلك دون أن يضطرب الضمير العربي أو العالمي!

ولا غرابة فيما سلف؛ إذ ليس في وسع من تحنط في مقبرة فرنسية لأربع أو خمس سنوات أن يجد حلاً لساكنة المقابر في مصر، لأنه لا يتخرج في المقبرة الفرنسية إلا بعد دفن عقله. والشهادة التي يحصل عليها ـ وقد تكون دكتوراه دولة ـ هي مجرد شهادة وفاة عقل من العقول الشرقية. وشهادة الوفاة هذه تؤمن لحاملها موقعًا في المقبرة التي حوت «خمسة آلاف سنة حضارة»!

ثانيًا. الخروج من المقبرة.

لم تخرج ليبيا من التصنيف العالمي إلا بعد أن جاءت لتلاميذها بمناهج أول دولة في التصنيف العالمي لجودة التعليم (سنغافورة). ولما كانت ليبيا غير سنغافورة وكان الإنسان الليبي (تلميذًا أو مدرسًا) غير الإنسان السنغافوري خرج التعليم الليبي من التصنيف العالمي بالرغم من المحاولة، لأن التعليم في ليبيا صورة مصغرة من التعليم في المقبرة الكبرى التي ما انفكت تعقد مؤتمرات لإصلاح التعليم وسط ضجيج إعلامي لا مبرر له!

وفي سياق استراتيجية الضجيج الإعلامي الفارغ تحدث د. جلال أمين عن مؤتمر عقد في ثمانينات القرن الماضي لإصلاح التعليم في مصر. قال د. جلال: «كان رئيس المؤتمر د فتحي سرور، الذي كان وقتها وزيرًا للتعليم، وقبل أن يصبح، أو يعين، رئيسًا لمجلس الشعب بعد أن أثبت كفاءة عالية في إفساد التعليم في مصر»! وينقل لنا الدكتور جلال أمين رأي د. حلمي مراد[1]، في عبثية المؤتمر وعبثية ما يسمى مؤتمرات إصلاح التعليم فيقول: «قال لي الدكتور حلمي مراد معلقًا على عقد المؤتمر: إنهم لم يكونوا بحاجة لعقد أي مؤتمر لإصلاح التعليم، إذ إنهم لو فتحوا أي درج في أي مكتب من مكاتب وزارة التعليم فسيجدون مذكرات ومقترحات يكفي تنفيذها لإصلاح كل مفاسد التعليم في مصر».[2]

أول شروط الخروج من المقبرة إذن؛ هو إدراك أن التعليم يتعرض لتخريب متعمد! القضية ليست قضية إهمال سياسي أو سوء حظ على الاطلاق. هناك من يعمل على تخريب التعليم، والهدف من تخريب التعليم

(1) وهو أحد وزراء التعليم السابقين في مصر.

(2) جلال أمين، ماذا حدث للثورة المصرية، دار الشروق، ص 170.

هو دفن مستقبل أولادنا قبل أن يولدوا. وعندما يولد هؤلاء المساكين قد لا يجدوا أمامهم غير الديون التي راكمتها أنظمة كانت تفسد الحرث والنسل.

ثانيًا؛ إرسال البعثات والدراسة في الخارج نوع من الهجرة المؤقتة التي تتحول إلى دائمة أحيانًا، وهذه قد تحل مشكلة أصاحبها لكنها لا تحل مشكلة الأمة. وقبل إرسال البعثات لا بد من تأهيلها وتحصينها ضد أوبئة المزبلة والمقبرة، وإلا عاد إلينا المرسلون محنطو العقول (مومياوات ناطقة ومتحركة).

ثالثًا؛ القمع الممنهج، والإفساد الممنهج، لا يقف أمامهما إلا عمل منظم ومؤطر في الاتحادات والنقابات والجمعيات والأحزاب. ومن التقاليد السائدة في عالمنا المتخلف العداء للعمل المنظم واعتباره مؤامرة أجنبيه أو اختراقًا من الخارج لجبهتنا الداخلية التي لا وجود لها أصلاً. والأثر المباشر لهذا النوع من التفكير العقيم هو بقاء الشعب قطيع هامل تستعبده أنظمة فاسدة.

رابعًا؛ لا بد من التخلي عن أخلاق العبيد، والوقوف في وجه الظلم وهراوات البوليس. وهذا لا يكفي فيه فرد أو فئة مستضعفة من نوع الطلاب أو العمال. لا بد أن تتوقف النخبة المثقفة عن دفن رأسها في الرمال. وقد يكون من مهام النخبة إن وجدت، أن تطالب بقفل المقبرة بحيث لا يعاد فتح الكليات المقفلة فيها إلا بعدد التحقق من أنها أصبحت مطابقة لأعلى المعايير العالمية.

خيانة المثقف!

هذه مقالة أخرى أكتبها في الذكرى الخمسين لوفاة مالك بن نبي (1905-1973)، لأن مالك استشعر الخطر في اللحظة التي أُعلن فيها (سنة 1962) أن المفاوضات التي جرت سرًا وانتهت سرًا في «إيفيان» الفرنسية قد تمخضت عن اعلان للاستفتاء على استقلال ستكتشف الأجيال اللاحقة أنه فرية. بعدها بثلاثين سنة حلت ذات الكارثة بالفلسطينيين سرًا في «أوسلو»، لتتكرر المأساة في السر مرة أخرى وعلى نطاق أوسع ثم تخرج، مع بداية الألفية الثالثة، في صيغة غامضة اسمها «صفقة القرن».

وقبل التوغل في الموضوع لا بد من التأكيد على نقطتين؛ الأولى ذاتية والثانية موضوعية. أما الذاتية فتتعلق بكوني ممن يجهر بأن الإسلام منهج تفكير ويرى أن حصر الإسلام، أو محاولة حصره، في ركن العبادات خيانة يرتكبها المثقف المسلم ولا أحد غيره، لأن اللوم في هذه الحالة لا يمكن أن يقع على العجائز ولا المساكين الذين يعيشون على «إيمان العجائز». وبذا يكون نقدي موجهًا في الجملة إلى مثقف جنوب المتوسط دون تصنيف (إسلامي وغير إسلامي) لأن الخيانة التي أتحدث عنها تستغرق هذا التصنيف وتتجاوزه. والنقطة الثانية موضوعية وتتعلق بخروج السلوك السياسي عن نطاق بحث

هذه الورقة، لأن تفكك الجبهة الداخلية والضغوط الخارجية لا يتركان للسياسي من طريق ليسلكه سوى سبيل الخيانة، والسياسيون يلجون هذا الطريق واحدًا بعد الآخر، ومن المحيط إلى الخليج.

وفي السياق السالف بيانه يقع على المثقف إيجاد البديل النظري لهذا التعفن، غير أن المثقف محل نقدي إما خائن ينتظر دوره على المائدة ونصيبه من الوليمة، وإما متخاذل يلوذ بالصمت ويعيش أخلاق العبيد لعجزه عن دفع ثمن الحرية في مجتمع متخلف! بقيت كلمة واحدة على سبيل التمهيد وهي أن الخيانة التي اتحدث عنها لاشعورية في الغالب، بمعنى أن الذي يرتكبها يعتقد أنه ممن يحسنون صنعًا، ولذا لا بد أن يتمحور الحديث حول إرادة الخيانة من جهة، والخيانة اللاشعورية من جهة أخرى.

أولاً. إرادة الخيانة.

يقال إن نابليون، الذي رفض مصافحة ضابط من جيش العدو ساهم بخيانته في انتصار الجيش الفرنسي، قال للخائن: تستطيع قبض ثمن خيانتك لكن أنا لا أصافح الخونة. هذا النوع من الخونة يعرف أنه خائن ويعرف ما يبرر خيانته، وهو ما يحصل عليه من ثمن لما انصرفت إليه إرادته من خيانة. ومن هؤلاء كثيرون لعل أشهرهم الجنرال اوفقير الذي قيل عنه: ما وقف الشعب المغربي في معركة يومًا إلا ووجد أفقير في صف العدو!

والثمن الذي قبضه أوفقير في مقابل خياناته المتعددة والمتوالية هو توليه الأمن في مغرب ما بعد الاستعمار. لم يكن أوفقير عدوًا للمغاربة فقط، ولم يشتغل بتعذيبهم لحساب فرنسا وحسب، بل امتد عدوانه إلى فيتنام والفيتناميين الذين حاربهم، في بلادهم، باسم فرنسا وخدمة لمشروعها الاستعماري. وأمثال أوفقير ليسوا في كل البلدان فقط، بل هم في كل المهن

والوظائف كذلك، ونسبة كبيرة من هؤلاء قائمة على خدمة مشاريع العدو في بلدانهم عن علم وبمقابل، قد يصل أحيانًا إلى رئاسة الوزراء أو رئاسة الدولة. وهذا النوع من الخونة مختلف تمامًا عن مثقف ينفذ خطط العدو ويخدم استراتيجيته وهو يعتقد أنه ممن يحسنون صنعًا.

ثانيًا. الخيانة اللاشعورية.

في التصور الإسلامي هناك عقد مبرم في الأزل بين الله وبني الإنسان: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]. خيانة هذا الأصل هو ما تتفرع عنه كل الخيانات الأخرى، والتي تبدأ باتخاذ الهوى الهً. وهذا النوع من الخيانة يسبب فسادًا في الشعور لدى المفسدين الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220] ولذا استدرك عليهم قائلاً: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12]! شهد الله إذن بأن هؤلاء يعانون من مشكلة على مستوى الشعور، حتى أنهم يعتبرون المؤمنين سفهاء، ولذا عندما دعوا إلى الإيمان قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]! وقد بين الله حكمه فيهم عندما قال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13].

عندما لا يكون الحكم لكتاب الله ويُتخذ الهوى إلهً، يصبح الفساد إصلاحًا والإيمان رجعية ومحاربة الإسلام تقدمًا والتمسك به تخلفًا. وهذا النوع من البلبلة هو المرتع لكل أصحاب المشاريع المريبة، حتى أن بعض زعماء الثورة الجزائرية شربوا بدماء الشهداء وسكي وشمبانيا. وهذا ما شهد به بن نبي في بيانه من أجل مليون من الشهداء وأكد عليه -كل بطريقته - الرائدان لخضر بورقعة وعلي منجلي وهما من قادة المقاتلين أيام حرب التحرير.

يقول بن نبي في بيانه: «إن أيام الحداد والبؤس التي عاشها الشعب خلال الثورة كانت أسعد أيام زعمائه، أولئك الذين صرفوا دماءه في ولائمهم حيث تسكب الشمبانيا والويسكي..»! وهذا ما أكده الرائد على منجلي في لقاء، موثق مرئيًا، حيث أفاد أنه ذهب إلى القاهرة إبان الثورة، تاركًا وراءه جزائريين يأكلون العشب من الجوع واخرين يبذلون دمائهم في ميدان القتال، ليجد ثلة من القيادة في القاهرة تلتقي يوميًا لتحدد أين تقضي السهرة كل مساء. كانت بعض السهرات في المقطم وبعضها الآخر في الشاطئ الذي كان مخصصًا للملك فاروق، حيث الرقص على أنغام اوركسترا انجليزية. كما كانت الرحلات تتم إلى شاطئ الإسكندرية للترفيه على الزعماء الذين يعيشون عيشة المترفين، بينما دماء الشعب الجزائري تجري أنهارًا وذوي المجاهدين يأكلون العشب.

«ويجب أن نضيف إلى هذا -يقول بن نبي في بيانه- أنه لم تصعد من فم عالم أو مثقف جزائري أثناء هذه المأساة المحزنة صرخة استنكار لإيقاظ الشعب لواجبه». وفي ختام بيانه يلقي مالك بدعوة «إلى كل جزائري صاحب ضمير أن يبلغ الشعب هذه الشهادة حتى يكون على بينة من الأخطار التي تهدد الحقوق والحريات المقدسة التي مات من أجلها مليون من ابنائه الشهداء وليكون على بصيرة من الأطماع الحقيرة التي تزحف نحو ثمرة ثورته لتجنيها من يده»![1]

وبالرغم من صدور هذا البيان سنة 1962، وبالرغم من أن نسخة منه قد سلمت لبن بلة، لم يسمع به الشعب حتى سنة 1990، عندما نشر لخضر بورقعة كتابه المعنون «شاهد على اغتيال الثورة»، وكان بيان بن نبي أحد ملحقات الكتاب.

(1) منشور على الانترنت.

وبعد نصف قرن من ثورة الجزائر وشهدائها يخرج الجزائريون في حراك يطالب بتنحي الطبقة السياسية كاملة، غير أن السؤال الذي لم يجب عليه المثقف هو: ما البديل؟ وهو السؤال الذي لم يطرح قبل الربيع العربي ولا أثناءه ولا بعده! وهذا لا يعني إلا أن المجتمع ليس له نخبة، أو أنها غير فاعلة، وهو ما يجعل وجودها والعدم سواء. قد يرى الزعماء أن من مصلحتهم إخفاء الحقيقة، فهل للمثقف مصلحة في ذلك إلا أن يكون متواطئًا، أي خائنًا؟

في أكثر من مناسبة كان الشعب أكثر وعيًا من النخبة وشديد الانتقام من الخونة، مثلما حصل عندما قُتل السادات مثلما يقتل أي ضابط فر من ميدان المعركة: رميًا بالرصاص. ومثلما فعل الشعب المغربي بحكومة الإسلاميين عندما هوى بها إلى أسفل سافلين في أول انتخابات بعد الخيانة.

لوم السياسيين لن يجدي نفعًا، وقد يكون لوم المثقفين أكثر جدوى لأن البديل لن يأتي إلا من جهتهم وإن لم يكلفوا بذلك. وهذا ما أحاول القيام به في الذكرى الخمسين لوفاة مثقف حقيقي هو مالك بن نبي، الذي مشى وحيدًا ومات وحيدًا ممثلاً لأبي ذر في اخلاصه للدين ووفائه للمسلمين.. فلا نامت أعين الجبناء من المثقفين، وعلى رأسهم الإسلاميون.

وظيفة الأصنام

الأصنام والآلهة بمعنى واحد لقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: 74]! والأصنام بالمناسبة نوعان؛ حجرية ونظرية: الحجرية مادية والنظرية ميتافيزيقية. وبغض النظر عن نوعها وزمانها (حجرية في الجاهلية الأولى أو نظرية في الجاهلية الثانية)، لا فائدة من التفرقة بين الأصنام الحجرية والنظرية إلا على المستوى النظري، وبالنسبة لمن لا علم له بأصنام الحداثة، وهي نظرية/ميتافيزيقية.

من جانب آخر؛ النظام المبني على تعدد الآلهة/الأصنام يسمى الجاهلية، والمنتمي لهذا النظام (المشرك) إما أن يتخذ آلهة مع الله، أو يتوجه ببعض عباداته (ومنها تقديم القرابين) إلى غير الله. وبذا يكون للأصنام وظيفتان؛ واحدة تشريعية والأخرى تعبدية. وسأبين الآن انعدام الفرق بين الأصنام الحجرية والنظرية في الوظيفة والقيمة.

أولاً. الأصنام الحجرية.

في الجاهلية الأولى كانت الأصنام حجرية، وكان كبيرها «هُبل» الذي وضعته قريش في جوف الكعبة تعظيمًا لمقامه عندها. وكان «إيساف» على الصفا بينما كانت «نائلة» على المروة. وكانت «اللات» بالطائف، و«مناة» على ساحل البحر.

كانت قريش على رأس العرب باسم النظام القائم على الآلهة المتعددة، وهذا النظام اسمه «الجاهلية» في الاصطلاح القرآني. وعند ظهور الإسلام طفقت قريش تتعامل مع المسلمين على أنهم خارجون عن النظام ويهددون مكتسبات قريش. وكان أبو لهب من أشد المدافعين عن نظام تعدد الآلهة، وقد نصح ابن أخيه بالكف عن الدعوة إلى الإسلام قائلاً: «لا طاقة لنا بالعرب»، لأنه كان يعتقد أن العرب ستهب إلى الدفاع عن أصنامها. وباسم الأصنام ودفاعًا عن النظام القائم عليها انتصرت قريش في معركة أُحد. ولم تجف الدماء حتى صاح أبو سفيان: أعلُ هبل!

هل أعطى هُبل أمرًا -شفهيًا أو مكتوبًا- لأبي سفيان حتى يقاتل المسلمين؟

كان أبو سفيان يقاتل طاعة لهوى أبي سفيان وحفاظًا على مركزه في قريش المشركة. وهُبل لم يكن شيئًا غير حجر يرمز لهوى قريش المشركة ورغبتها في أن تبقى على رأس عرب الجزيرة الجرداء. وأي تصور آخر فوق هذا التصور لم يكن موجودًا.

المهم في كل ما سلف هو أن الصراع كان بين مصدرين للتشريع: الله أم الهوى. وما الأصنام في حياة البشر إلا اقنعة ورموز لأحكام الهوى في مواجهة أحكام الله. وبهذا الشكل يمكنك أن تبحث في الهوى عن مصدر لكل حكم مخالف للشريعة، وكل فكرة ناقضة للإسلام. وإذا فعلت فستجد الهوى يختبئ وراء كل صنم من الأصنام الحجرية أو النظرية. والأصنام لا تجعل عبادة الهوى أمرًا مشروعًا وإنما تجعل عبادة الله وحده أمرًا غير مشروع، وقضية تتعلق بأمن الآلهة المتعددة والنظام القائم عليها (الجاهلية).

وهذا الطرح لا جديد فيه إذ مازال التاريخ يعيد نفسه، من أيام إبراهيم عليه السلام وصولاً إلى يومنا هذا. التطور الذي يستحق التوقف عنده

بالشرح أو النقد هو أصنام الحداثة، لأنها نظرية وليست حجرية، وهو ما لا يدركه الغافل من المسلمين.

ثانيًا. الأصنام النظرية.

لما كان من خصائص الإنسان الجاهلي عدم إدراك أنه في جاهلية، لا يصدق الكثير من الناس اليوم فرضية أننا في الجاهلية الثانية. ولما كانت «الفرضية» مما يقبل الإثبات والدحض، سأقوم بإثبات أننا في جاهلية أصنامها النظريات، وعلى من يعتقد خلاف ذلك دحض الفرضية.

ولا أعتقد أن بإمكاني أن أكون أكثر إنصافًا واحترامًا لمبدأ تحكيم العقل، وحرية الرأي، مما ترى. وسأدعم فرضيتي بأقوال اساطين العقلانية الأوربية، الذين انتهوا إلى أن الأصنام في أوربا أصبحت نظريات. والقصد من وراء اثبات الفرضية هو الدعوة إلى إعادة النظر في الأفكار الأوربية التي دخلت فضائنا القائم على التوحيد فقلبته رأسًا على عقب. ومن هذه الأفكار ذات الطبيعة والوظيفة الصنمية فكرة الدولة.

عالم النفس الشهير يونغ قال: «الدولة تأخذ مكان الله»
The State takes the place of God

ولما كانت الدولة فكرة، ومجرد نظرية، قال أستاذ القانون العام في فرنسا، جورج بوردو: «الدولة لم يرها أحد قط، ومع ذلك من بإمكانه أن ينكر وجودها في الواقع؟».
Personne n'a jamais vu l'Etat. Qui pourrait nier cependant qu'il soit une réalité?

الدولة لا تختلف عن أصنام الجاهلية الأولى إلا في كونها نظرية، ولكنها مثل الحجرية تأذن بما لم يأذن به الله، وتجعل غير المشروع في شريعة رب

العالمين مشروعًا عند سدنة الدولة. ومن ذلك مثلاً، إن الدولة غفرت لكلب أم كلثوم عض إنسان مصري دون أدنى مسئولية على صاحبة الكلب. وقد كان تصرف وكيل النيابة في الواقعة على النحو الآتي: «حيث إن الخدمات التي أدتها أم كلثوم للدولة كفيلة بأن تعفيها وكلبها من المسئولية الجنائية أمرنا بحفظ الملف»!

من الصعب على الإنسان الجاهلي أن يدرك العلاقة بين اتخاذ إله مع الله وإعفاء أم كلثوم وكلبها من المسئولية الجنائية. والأدهى أن الإنسان الجاهلي قد يكون وكيل نيابة، وقد يكون قاضيًا، وقد يكون رئيس الدولة التي تأذن لسدنتها بما لا يأذن به الله. وهذا الظلم المشروع فرع من الكفر، ولذا قال ﷻ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

ولما كان الكفر أصولًا وفروعًا، وقعت صورة أخرى للظلم سنة 1987، حيث أحال نظام بورقيبة قيادة حركة الاتجاه الإسلامي إلى محكمة أمن الدولة مع توصية بالحكم بالإعدام على الشيخ راشد الغنوشي، غير أن أحد القضاة رفض التوقيع على الحكم فلم يتحقق الإجماع اللازم للحكم بالإعدام، ولذا كان الحكم بالسجن المؤبد، فأمر بورقيبة بإعادة المحاكمة والحكم على الشيخ بالإعدام.

وبحكم كونه محاميًا يعلم بورقيبة عدم جواز محاكمة الشخص مرتين عن ذات التهمة، ولكن بورقيبة وهو سادن الصنم والمتحدث باسمه يجوز له، بتلك الصفة، أن يتجاوز ما استقرت عليه الأديان والقوانين الوضعية، فأمر بإعادة المحاكمة والحكم على الشيخ بالإعدام.

الشيخ راشد مسلم حرام الدم في شريعة المسلمين، ويحتاج بورقيبة إلى إله آخر ليأذن له بسفك دمه، والإله الذي يأذن لبورقيبة بذلك اسمه «الدولة»،

وهي النظرية التي سماها نيتشه «الصنم الجديد». وقد اشتهر بورقيبة بحديثه الدائم عن «هيبة الدولة». وعبارة «هيبة الدولة» في الجاهلية الثانية مساوية لعبارة «اعلُ هبل» في الجاهلية الأولى، لأن علو هبل وهيبة الدولة لا يتحققان إلا على أجساد قرابين تقدم من الذين كل جريمتهم أنهم مسلمين.

ولا يدرك أحد هذه الأبعاد إلا وأدرك أن التاريخ يعيد نفسه من أيام إبراهيم عليه السلام إلى يومنا هذا، فمازال التاريخ يتذبذب بين مأساة ومهزلة. ومن المهازل أن ترى اليوم نظراء مصعب بن عمير وحمزة ابن عبد المطلب في السجن بينما أبو جهل وأبو لهب في السلطة. فهل مازال عندكم شك في أننا في جاهلية؟

خيانة المترجم

خيانة المثقف أوحت إليَّ الكتابة عن خيانة المترجم، فهذا الموضوع ببالي منذ زمن ليس بالقصير لكن شغلتني عنه أمور. ما شجعني على ترك المماطلة، وإنهاء التسويف، هو أن خيانة المترجم قد لحقت كتاب «شروط النهضة»، وهو من أهم كتب الأستاذ مالك بن نبي (1905-1973) الذي حلت بنا الذكرى الخمسين لوفاته هذه السنة.

في إحدى المرات التي كنت أقرأ فيها النص المترجم إلى العربية من «شروط النهضة» وقعت عيني على عبارة: «ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم، والعكس صحيح»، فأدركت على الفور أن هذه العبارة ليست لمالك بن نبي، وهي ليست من لغته بالفعل، لكن الجزم بذلك لا يمكن أن يقع دون الرجوع إلى النص الأصلي وهو بالفرنسية. وبمراجعة النص الفرنسي تأكد لي صدق حدسي لأن ذاك النص يقول:

Chaque fois que l'idée disparait, l'idole règne de nouveau et réciproquement.

«من سنن الله في خلقه» ليست موجودة في النص الفرنسي، وقد جاءت العبارة في فصل عنوانه الفرنسي «Idole»، وترجمته العربية السليمة هي «الصنم»، لكن المترجم ترجمه على هواه فأصبح العنوان في النسخة العربية

من الكتاب «دور الوثنية». وبذا يكون بذات الصفحة تحريفان مما يمكن تصنيفه خيانة علمية: الأولى التصرف بشكل مخل فيما يتعلق بعنوان الفصل، والثانية الحشو الذي يدخل لغة غير لغة بن نبي في ترجمة كتاب من كتبه! لغة بن نبي وعقلانيته قريبة من لغة ومنطق ابن خلدون الذي لا يستخدم عبارة «سنن الله» جزافًا، ويستخدم عوضًا عنها عبارة «مستقر العادة» حتى لا يختلط شعبان برمضان.

وقد صادفت هذا النوع المفزع من الخلط والخيانة العلمية في ترجمة كتاب لورنس العرب المعنون «أعمدة الحكمة السبعة» حيث يقول لورنس عن العرب:

They invented no system of philosophy, no complex mythologies. They steered their course between the idols of the tribe and cave: those of the theater and market-place were not within their sight.

والترجمة الدقيقة لهذا النص يمكن أن تكون كالآتي:

[العرب]«لم يخترعوا نظامًا فلسفيًا، ولا ميثولوجيا معقدة. إنهم يشقون طريقهم بين أصنام القبيلة وأصنام الكهف؛ أما أصنام المسرح وأصنام السوق فهي ليست في مدى نظرهم.»

المترجم الذي ترجم كتاب لورنس إلى العربية ابتسر الجملة المعقدة والمثقلة بالمعاني في لغة لورنس الاصلية/الانجليزية إلى الكلمات الآتية: «وفي حقل الفلسفة لم يسبق للعرب أن وضعوا نظمًا فلسفية أو ميثولوجيا معقدة. بل اتبعوا دائمًا الطريق الضيقة القصيرة بين أصنام القبيلة»! لقد حذف المترجم من الترجمة ثلاثة أنواع من الأصنام المذكورة في النص الأصلي والتي يعبدها عرب اليوم وهم لا يشعرون.

الأصناف الأربعة للأصنام هي التي أوردها فرانسيس بيكون في كتابه الشهير «الأرغانون الجديد» وهي: «أصنام القبيلة» و«أصنام الكهف» و«أصنام السوق» و«أصنام المسرح».

Idols of the tribe, idols of the den, idols of the market, idols of the theater.

محمد عابد الجابري ترجمها من جانبه، وفي كتابه «مدخل إلى فلسفة العلوم» إلى «الأوهام» مرتكبًا كبيرة أخرى من كبائر الترجمة، وخيانة علمية لا تغتفر لمفكر بوزنه. ومن ثمَّ أصبحت «الأصنام» عند بيكون تتحول إلى «الأوهام» عند الجابري، وإذا بـ «أصنام القبيلة» تتحول عند الجابري إلى «أوهام القبيلة»، و«أصنام الكهف» تتحول عند الجابري إلى «أوهام الكهف»، و«أصنام السوق» تتحول عند الجابري إلى «أوهام السوق»، و«أصنام المسرح»، تتحول عند الجابري إلى «أوهام المسرح»! وبذا وضع الجابري حجابًا من اللغة بين المفاهيم الصحيحة لأصنام بيكون وبين إدراك القارئ العربي، فضاع المعنى على هذا الأخير وظلت الأصنام النظرية خافية على عقولنا المسطحة! وحسبك بهذا النوع من الترجمة جريمة!

ولما كانت عبادة الأصنام هي جوهر الجاهلية اكتشف سيد قطب أننا في جاهلية، ولما صرح بذلك ثارت الغوغاء واحتجت الدهماء: سيد قطب يكفر المجتمع. المجتمع يعبد أصنامًا خفية ويعتقد أنه من الفرقة الناجية، ولا يستغرب شيء من هذا، لأن من خصائص الإنسان الجاهلي عدم إدراكه أنه في جاهلية، فعدم إدراك الجاهلية هو «قصر النظر» الذي اكتشفه واستغله أبشع استغلال لورنس العرب، قبل مائة سنة.

وإذا كان للإنسان الجاهلي في الجاهلية الثانية عذره لأن الأصنام خفية/

نظرية، فما عذر المثقف الذي يفضل أن يظل شيطانًا أخرسًا وهو يقرأ، بالإضافة إلى كل ما سلف، قول نيتشه: «الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالم»!

There are more idols than realities in the world.

أرجو أن يكون القارئ قد توقف عند الأصنام كقاسم مشترك بين مفكرين من ملل شتى وعبر قرون طويلة (بن نبي، بيكون، لورنس، نيتشه،) كما أرجو أن يكون قد تساءل عن سبب أن يكون الوحيد بينهم من المسلمين هو مالك بن نبي. والإجابة لا تحتاج لكبير جهد، فمالك بن نبي مثقف مسلم حقيقي، أما غيره من أهل العربية فأغلبهم سفسطائيين، يأكلون على كل الموائد، ويتبعون كل ناعق، وليس لديهم ما يؤهلهم لطرق الموضوع الذي سأل إبراهيم الخليل ربه أن يجنب ابنائه عبادته (الأصنام).

المسئول عن هذه البلبلة هم المثقفون عمومًا، ومن اشتغل منهم بالترجمة على وجه الخصوص. وأظن أن إدراك هذه الحقائق هو ما جعل الشيخ محمد عبده يقول: «لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر الدفاع على مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوربية».

وإذا كان الشيخ محمد عبده قد اعتبر أن تعلم لغة أجنبية من لوازم القدرة على خدمة الأمة، فأنا أنصح به كل قارئ يود الحفاظ على سلامة عقله من عبث المترجمين والمدلسين، كذلك النوع من المترجمين الذي ترجم كتاب محمد إقبال Reconstruction of Muslim Thought إلى «تجديد الفكر الديني في الإسلام» بينما الترجمة السليمة هي إعادة بناء الفكر المسلم أو الإسلامي.

ليس من حق المترجم التصرف فيما لا يملك: (أفكار المؤلف). تصرف المترجم في أفكار المؤلف ليس اجتهادًا، بل خيانة. في ضوء ما سلف لا بد لمن أراد ولوج حقائق عالم الأفكار من التسلح بأكثر من لغة أجنبية، أما من أراد دراسة تاريخ الأفكار أو التخصص فيه فلابد أن تكون الاغريقية واللاتينية من مكتسباته المعرفية وادواته العلمية، فبدونهما يظل البحث قاصرًا عن بلوغ الهدف وربما ظل الباحث معاقًا فكريًا طوال حياته بسبب أخطاء المترجمين بل جرائمهم العمدية أحيانًا عندما يتدخلون، وبشكل فج، في تغيير العناوين وقلب المصطلحات.

الأصنام المتحركة!

كان الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم في إحدى معتقلات عبد الناصر عندما توفي هذا الأخير سنة 1970. وفي شريط على اليوتيوب طوله دقيقة وتسعة وعشرون ثانية اختصر نجم كل ما أريد الحديث عنه هنا. يقول نجم إنه بكى وهو في المعتقل، ولكن ليس على موت عبد الناصر الشخص، وإنما على موت عبد الناصر «الحلم».

وأهم ما في حديث نجم هو «لغة الجسد» عنده وهو يصف «الحلم»: وضع نجم كفيه واحدا في مقابل الآخر أمامه، وبينهما مسافة معقولة، ثم رفعهما إلى أعلى وحركهما من أعلى إلى أسفل، كما لو كان يصف تمثالاً أو يحاول تجسيده. وهذا التمثال، الذي حاول نجم تجسيده بحركة يديه، هو الصنم الذي سأتحدث عنه في فقرتين: الأولى تتعلق بالأصنام البشرية عمومًا، والثانية عن بناء الأمريكان على خبرة الانجليز في موضوع الأصنام المتحركة.

أولاً. الأصنام البشرية.

هذه القضية في جانب كبير منها قضية نفسية، وتمثل القابلية للاستعمار Colonisabilité لدى شعوب مغلوبة على أمرها، لأنها بدون نخبة تؤهلها لخوض معاركها على جبهة الأفكار. وقد وصف الشيخ البشير الإبراهيمي

هذا القصور أحسن وصف عندما قال: «الغالب على الشعوب البدائية في السياسة أن تكون على بقية من وثنية أصنامها الشخصيات، فيكون إحساسها تابعًا لإحساسهم وحركاتها منوطة بتحريكهم ولو إلى الضياع والشر. وهذه هي الحالة السائدة في شرقنا، وقد تفطن الغربيون لهذه النقيصة فينا، بل إلى هذه الثغرة الواسعة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنا التماثيل من الرجال ويحكموننا بها».

وفي باب تفطن الغربِيين لهذه النقيصة فينا لدي شاهدان؛ الأول هو الفرنسي ادوارد دوتى وكتابه «السحر والدين في شمال أفريقيا» الذي ظهر سنة 1909. والثاني هو لورنس العرب وكتابه «أعمدة الحكمة السبعة» الذي ظهر سنة 1922. في كتابه «السحر والدين في شمال أفريقيا» وصف دوتى «الزعيم» على أنه تجسد «الرغبة الجمعية» في شخص بعينه Le désire collectif personifié. وما سماه نجم «الحلم» ما هو إلا تجسد «الرغبة الجمعية» للمساكين في صورة عبد الناصر. وفي هذا السياق ذكر لورنس أمرين مهمين بخصوص العرب؛ الأول أنهم يجهلون «أصنام السوق» و«أصنام المسرح»، والثاني أنهم يؤمنون بالأشخاص وليس المؤسسات.

لقد تفطن الغربيون إلى انقلاب العرب على أعقابهم فطفقوا ينصبون لهم أصنامًا متحركة تقودهم إلى الضياع والشر، فلولا استعداد المصريين لعبادة الأصنام ما تشبثوا بعبد الناصر بعد هزيمة 67. كانت كل أحلام ورغبات العرب تسير على قدمين في شخص عبد الناصر، حتى أن الجماهير كانت تهتف في جنازته «عبد الناصر لن يموت»، وهو جثة هامدة.

الفارق شاسع بين من يعبد الله وحده، ومن يعبد معه غيره، ولذا قال أبو بكر رضي الله عنه يوم وفاة النبي ﷺ: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»! ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

تحويل عبد الناصر إلى صنم يبين اقتفاء الأمريكان لأثر الانجليز في إدارة شعوب انقلبت على عقبيها فأمست مستعدة لعبادة الأصنام وتنسى الله كما في الجاهلية الأولى. في السياق السياسي لتاريخنا المعاصر تحول عبد الناصر من شخص إلى صنم متحرك، تعبده الجماهير، بفعل فاعل يعمل خفية ودون إعلان حتى لا ينتبه الغافلون.

ثانيًا. بناء الأمريكان على خبرة الانجليز.

عندما انتهى الاستعمار الأوربي وجاءت الامبريالية الأمريكية حل مايلز كوبلاند في مصر حيث كان لورنس في جزيرة العرب. لورنس كان مستشارًا للشريف حسين وأبنائه فذهب بذهاب الإمبراطورية البريطانية، وجاء مايلز كوبلاند، ضمن متاع الإمبريالية الأمريكية، مستشارًا لعبد الناصر والضباط الأحرار. لورنس كتب «أعمدة الحكمة السبعة»، وكوبلاند كتب «لعبة الأمم»، ومن يقرأ الكتابين يرى سير الأمريكان في أثر الانجليز.

يقول كوبلاند «إن ثقة ناصر بنفسه يشعر بها كل من يقابله، وسبب ذلك أنه... قد ملأ دورًا في مسرحية كان مخرجها يفتش عن ممثل ينجح في تأدية ذاك الدور». وفي وصفه لحقيقة عبد الناصر يقول إنه كان «كالطبل الأجوف، صوته هائل مرعب وباطنه أجوف». ومع ذلك كانت صفته في وثائق الاستخبارات والخارجية الأمريكية هي «موضة المستقبل». وقد أصبح عبد الناصر «موضة» بالفعل، فلم يبق صعلوك في البلاد العربية إلا وتوجه إلى الكلية العسكرية في بلده ليقوم بما قام به عبد الناصر في مصر (الاستيلاء على السلطة).

نجاح الأمريكان في مصر كان مبنيًا على إخفاقهم في سوريا، حيث كان الانقلاب غير مفيد لأن حسني الزعيم كان يسعده أن يقف له الناس على أقدامهم لحظة دخوله ويكفيه أن يخاطبوه بفخامة الرئيس. لم يكن حسني الزعيم متعطشا للسلطة، وهذا النوع لا ينفع لتحقيق الأغراض الأمريكية. وقد دل البحث بعد ذلك على أن عبد الناصر كان متعطشًا للسلطة ويمكن أن يحقق ما أخفق فيه حسني الزعيم: (الأهداف الأمريكية)، لأن «نجاح مخططاتنا رهين بزعيم يتخذ منها أهدافًا ومبادئ»، يقول كوبلاند!

ما هي أهداف الولايات المتحدة في المنطقة حينها؟

كان العالم لحظتها في أوج الحرب الباردة، وكان من أهداف زعيمة العالم الحر التصدي للشيوعية التي أخذت تتمدد بعد الحرب العالمية الثانية، وكان لها حضور لافت بمصر. وعلى الجانب الآخر كانت جماعة الإخوان المسلمين وما تمثله من خروج على النظام العالمي، أو عدم قابلية للاستعمار بعبارة أخرى، مما يجب القضاء عليه خدمة لمشاعر موروثة (صليبية) ومشاريع أخرى (صهيونية).

جعل عبد الناصر من القضاء على الشيوعيين والإخوان المسلمين أهدافًا له، واتخذ من الحياد الكاذب مبدأ، لتبقى مصر فراغًا يملأه «صوت العرب». في حينها كان كوبلاند وفي معيته فريق أمريكي وآخر من ضباط الدعاية النازية، الذين خدموا مع غوبلز وهتلر، يتخيلون عمليات اغتيال لعبد الناصر، ويحبكون مسرحيات لمؤامرات ضد الثورة. وكان «حادث المنشية» أكبر مسرحية استخباراتية، وعلى إثرها أعدم عبد القادر عودة وخمسة من الإخوان المسلمين الذين جمع بينهم الإسلام وقتال الانجليز على القناة واليهود في فلسطين.

في الأثناء كان عبد الناصر يتلقى المساعدات الأمريكية، وفي تبرير هذه المساعدات قال كوبلاند إن هذه المبالغ تحقق الأهداف الأمريكية، ولكن في مقابل ثمن باهض يدفعه الشعب المصري. والثمن في تقديري هو إبادة الفئة التي انعدمت لديها القابلية للاستعمار. وفي هذا السياق يقول كوبلاند إن اثنين من العقداء قدما مصر في أكتوبر سنة أربعة وخمسين، وعقدا اجتماعات لم تفرغ في محاضر ولم يكتب بخصوصها تقرير.

وفي 5 ديسمبر من ذاك العام أعدم عبد القادر عودة وإخوانه. ومن المحتمل أن يكون الحكم بإعدام المجاهدين الخمس هو موضوع المباحثات التي لم تفرغ في محاضر، ولم يكتب بشأنها تقرير. لقد كانت مسرحية المنشية المبرر لتقديم خمسة قرابين بشرية لصنم اسمه عبد الناصر، وبالمناسبة قال أحد الذين أعدموا قبل إعدامه بلحظات إن المحاكمة كانت مهزلة وإن الخصوم كانوا فيها القضاة. المحاكمات مهازل والخصوم قضاة؛ هذا هو تاريخنا المعاصر الذي ما انفك يتذبذب بين مأساة ومهزلة.

الأصنام تأتي دائمًا من الشمال

تعدد الآلهة ظاهرة معروفة في تاريخ الإنسانية. ومن المعروف كذلك أن لكل آلهة كبيرها؛ فكبير آلهة الإغريق اسمه «زيوس»، وكبير آلهة الرومان اسمه «جوبيتر»، أما كبير آلهة العرب فاسمه «هبل». وكان عرب الجزيرة آخر من اتخذ الأصنام آلهةً وأول من تخلص منها، بفضل الوحي الذي نزل على النبي ﷺ فأحيا به ملة إبراهيم عليه السلام.

وعندما أصبح المسلمون حضارة كان كل شيء محل نظر ومجال بحث وتوثيق، ومن ذلك الأصنام. وفي هذا السياق سأشير إلى كتابين مرجعيين في الموضوع: الأول للأزرقي وعنوانه «أخبار مكة وما بها من الآثار» والثاني «كتاب الأصنام» لابن الكلبي. وفي هذين المرجعين ما يفي بالغرض بخصوص أصنام الجاهلية الأولى، وهي محل الفقرة الأولى من هذه المقالة.

بعد ذلك سأنتقل، في الفقرة الثانية، إلى أصنام الجاهلية الثانية التي لا أعتقد أن غيري قد كتب عنها، بالاهتمام والتفصيل الذي أكتب به أنا، وهي أصنام أوربية-نظرية بالأساس. وقد تحولت هذه الأصنام إلى العالمية بتحول الحضارة الأوربية إلى حضارة العالم الحالي: (تعدد الآلهة دين العولمة).

أولاً. أصنام الجاهلية الأولى.

ترك إبراهيم إسماعيل وبنيه مسلمين عند الكعبة وهي أول بيت وضع للناس. وكانت العرب تحج البيت وتعتمر، فتطوف بالكعبة وتشرب من زمزم على نحو ما يفعل الناس اليوم. وظل الأمر كذلك حتى ذهب عمرو بن لحي إلى الشام فوجد الناس تعبد الأصنام فاشترى صنمًا وهو هبل وجاء به مكة لتعبده أهم قبيلة عربية وليكون تبعًا لذلك كبير آلهة العرب.

تتابعت بعدها الأصنام فكانت اللات بالطائف لثقيف، ومناة على شاطئ البحر للأوس والخزرج وكانت العزى شجرة كبيرة إلى جانبها صنم. وقد ذكر القرآن من الأصنام: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. وعلى الصفا والمروة كان إيساف ونائلة. وكان عدد الأصنام في مكة ثلاثمائة وستين صنمًا يوم الفتح. وقد حطمت هذه الأصنام كلها تقريبًا، ولم يبق منها إلا ذو الشرى وهو الموجود بمتحف دمشق اليوم.

كانت الأصنام آلهة، بمعنى أن الإنسان الجاهلي يتوجه إليها بالعبادة، فيسجد لها، ويذبح وينحر لها. وقد روى خالد بن الوليد أن الوليد بن المغيرة كان يأخذ خيرة غنمه وإبله فينحرها عند العزى، ويعتكف عندها ثلاثًا ثم يعود إلى أهله مسرورًا. فالعربي كان يحج البيت ويطوف بالكعبة وحولها الأصنام ثم يسعى بين الصفا والمروة وعليهما إيساف ونائلة. كان العربي يشرك الأصنام بعبادته التي ينبغي أن تكون خالصة لله. هذا هو الجهل وهذه هي الجاهلية القائمة على ذاك الجهل والمدافعة عنه.

كان دفاع الانسان الجاهلي عن أصنامه حتى الموت، واستعداده للقتل في سبيلها مشهود، ففي غزوة أحد استشهد سبعون صحابيًا حتى يهتف أبو سفيان «اعلُ هبل». ومات من بعض القبائل مئة وخمسون رجلاً دفاعًا عن

صنم اسمه ذو الخلصة. وقد قضى النبي ﷺ على هذه الآلهة والنظام القائم عليها في جزيرة العرب قبل وفاته.

كان نزول سورة براءة وقراءتها في الموسم الإعلان الرسمي لنهاية الجاهلية. ومن بعد فتح المسلمون العالم ما بين الهند والأندلس. والمسلمون الذين فتحوا العالم انفتحوا أمامه كذلك، وكانوا قادرين على إفادته والاستفادة منه، وكان الحوار بين الثقافات المتعددة والمتناقضة البيئة الخصبة للإبداع والاجتهاد، إذ تحول المسلمون من المشافهة إلى التدوين والتصنيف ونحت المصطلحات والمفاهيم المعبرة عن الحضارة الجديدة. وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى لحظة ابن خلدون الذي كتب التقرير الختامي للحضارة الإسلامية (المقدمة) ومعلنًا انتقال مشعل الحضارة إلى الضفة الشمالية من المتوسط.

يقول ابن خلدون في الفصل التاسع عشر من المقدمة والمعنون «العلوم العقلية وأصنافها»: «بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة وحملتها متوفرون وطلبتها متكثرون والله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار». وفي اللحظة التي كانت العلوم العقلية تنتقل إلى شمال المتوسط دخل العالم الإسلامي مرحلة نوم عميق «.. وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة» حسب وصف ابن خلدون. وبينما كان العالم الإسلامي يغط في نومه طفقت أوربا تنحت أصنامًا جديدة ونظرية.

ثانيًا. الجاهلية الثانية.

في اللحظة التي مات فيها ابن خلدون كانت مدرسة الرشدية اللاتينية (نسبة لابن رشد) تزدهر في طول أوربا وعرضها، وكان من بين الرشديين المشهود لهم مارسيليوس دو بادوفا، صاحب كتاب المدافع عن السلام. في هذا الكتاب يعتمد مارسيليوس على ما استرجع من فلسفة ارسطو من طريق شروح ابن رشد. وفصل الخطاب في كتاب مارسيليوس هو أن الناس أدرى بشؤن دنياهم والأحرى بهم أن يختاروا حكامهم بأنفسهم. حرمت الكنيسة الاطلاع على الكتاب وفر المؤلف إلى ألمانيا.

بعد اربعمائة سنة قامت الثورة الفرنسية وأصبح الشعب إلهً، أي مصدر السلطات والقانون معًا. وفي هذا تقول حنة آرند: «نظريًا، كان تأليه الشعب في الثورة الفرنسية النتيجة التي لا يمكن تحاشيها بسبب الحرص على جعل السلطة والقانون يصدران عن مصدر واحد-وحيد».

«Theoretically, the deification of the people in the French revolution was the inevitable consequence of the attempt to derive both law and power from the self-same source.»

وقبل آرند كان هيجل قد أله الدولة من خلال تأليه العقل، فأعلن أن «أساس الدولة هو قوة العقل الذي يحقق ذاته كإرادة».

The basis of the state is the power of the reason actualizing itself as will

وينصح هيجل متواضعي الإمكانات بعدم الخوض في الموضوع لأنه «بقدر ما يسمو الفكر فوق الطبيعة تسمو الدولة فوق الحياة الطبيعية. لذلك على الإنسان أن يوقر الدولة كمقدس على الأرض، ثم يضع في حسابه بعد ذلك

أنه إذا كانت الإحاطة علمًا بالطبيعة أمرًا صعبًا، فأصعب منه بما لا يقاس فهم الدولة.

As high as mind stands above nature, so high does the state stands above physical life. Man must therefore venerate the state as the divine on earth, and observe that if it is difficult to comprehend nature, it is infinitely harder to understand the state.

وعندما أرسلت الأمة بعثاتها التعليمية إلى أوربا لم يعد واحد منهم لينذر أو يحذر من أصنام أوربا وخطورتها، حالة كونها نظرية، بل عادوا بها من الشمال احياءً لسنة عمرو بن لحي. وأي فكرة يمكن أن تكون صنمًا ميتافيزيقيًا ولاسيما عندما يتقرب إليها بسفك دماء المسلمين. وآلهة أوربا في هذا السياق لا حصر لها، وقد ذكرت منها الشعب والدولة، ولا بد من ذكر الثورة كذلك، وكيف تم تقديم المسلمين قرابين على مذبحها.

في سنة 1965 شكل عبد الناصر لجنة برئاسة زكريا محي الدين (رئيس الوزراء في حينها) وكانت مهمتها القضاء على الاخوان غير أن اللجنة رأت أن من الحكمة القضاء على المتدينين من غير الاخوان كذلك. وبهذا الخصوص يقول التقرير الذي وضعته اللجنة: «بعد دراسة لموضوع المتدينين من غير الاخوان، وهم الذين يمثلون الاحتياطي لهم، وجد أن هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين في المدى الطويل، ووجد الأفضل أن يبدأ بتوحيد معاملتهم بمعاملة الاخوان قبل أن يفاجئونا باتحادهم علينا. ومع افتراض احتمال لوجود أبرياء منهم إلا أن التضحية بهم خير من التضحية بالثورة..»!

الثورة في هذا السياق مصدر لمشروعية غير المشروع، وهو إراقة دماء الاخوان المسلمين، ودماء المتدينين من غير الاخوان، وإن لم تكن لهم علاقة بالإخوان. تقديم المسلمين عمومًا قرابين للثورة (في مصر وفي غير مصر)

لا يختلف عن تقديم الوليد ابن المغير لابله وغنمه قرابين للعزى، لكن الغافل لا يرى ذلك. أما حمقى المسلمين فمازالوا يعتقدون أن الحرب على الاخوان وليست على الإسلام. ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً!

مراجع لدراسة أصنام الحداثة

أصنام الحداثة ليست مسألة هينة، وعدم العلم بها من معالم تخلف الناطقين بالعربية فقط، أما الناطقين بها وبغيرها الذين اطلعوا على أصنام الحداثة وسكتوا فصمتهم جريمة، إذا كانوا من المسلمين. ولكيلا أكون من هؤلاء أعددت قائمة مختصرة بالمراجع التي يمكن الاستعانة بها في دراسة الموضوع، لمن أراد أن يدرس الظاهرة بنفسه. والمراجع نوعان؛ الاول مراجع الحديث النظري عن الأصنام، والثاني عن المراجع التي تتحدث عن انتصاب أصنام الحداثة في عالم المسلمين.

أولاً. أصنام الحداثة في عالم النظر.

1. فرانسيس بيكون (1561-1626).

أول من أدخل مصطلح الأصنام لمناهج البحث العلمي -فيما أعلم- هو فرانسيس بيكون. وقد قسمها إلى أربع مجموعات: أصنام القبيلة، أصنام الكهف، أصنام السوق، وأصنام المسرح.

Idols of the tribe, idols of the den, idols of the market, idols of the theater.

وقد استعان لورنس العرب بتقسيم بيكون هذا في توصيف حالة العرب

وهم يقضون على ما تبقى من الإسلام الأول ويدشنون جاهليتهم الثانية، في الحرب العالمية الأولى (1914-1918).

2. توماس هوبس (1588-1679).

وضع هوبس نظرية «الدولة» سنة 1651، وفي وصفها قال هي: «الإله الثاني الذين ندين له بالحماية والسلام في ظل الإله الباقي».

That mortal god to whom we owe, under the immortal god, our peace and defense.

3. هيجل (1770-1831).

يرفض هيجل فكرة العقد الاجتماعي كأساس للدولة، ويركز على الدولة فكرة مجردة فيقول: «عند بحث فكرة الدولة يجب عدم تركيز النظر على دول بعينها أو مؤسسات بعينها. عوضًا عن ذلك علينا النظر إلى الفكرة، هذا الإله المتحقق بذاته في الواقع.

In considering the Idea of the state, we must not have our eyes on particular states or on particular institutions. Instead we must consider the Idea, this actual God, by itself.

4. فريدرش نيتشه (1844-1900).

في كتابه هكذا تحدث زرادشت وصف نيتشه الدولة بأنها «الصنم الجديد» مضيفًا: «سيعطيكم كل شيء، إذا عبدتموه، الصنم الجديد».

Everything will it give you, if you worship it, the new idol.

ومن الجدير بالذكر أن نيتشه قرر التفلسف بالمطرقة لأن: «الأصنام أكثر مما يظهر في واقع العالمIdols are more than realities in the world».

5. كارل غوستاف يونغ (1875-1961).

وهو عالم النفس السويسري الشهير الذي قال: «الدولة تأخذ مكان الله، والديكتاتوريات الاشتراكية منظور إليها من هذا الجانب أديان، وعبودية الدولة نوع من العبادة».

The State takes the place of God; that is why, seen from this angle, the socialist dictatorships are religions and State slavery is a form of worship.

كشف يونغ عن ألوهية الدولة في كتابه «الذات غير المكتشفة»: The Undiscovered Self فسكن الدولة في لاوعي إنسان الجاهلية الثانية من نوع سكن هبل داخل الكعبة في الجاهلية الأولى. ومثلما عبر موقع هبل عن فساد شعور الجاهلية الأولى تعبر الدولة-الإله عن فساد شعور الجاهلية الثانية.

6. جورج بوردو (1905-1988)

وهو أفضل من عبر عن سكن الدولة في لاوعي الإنسان عندما قال: «الدولة لم يرها أحد قط، ومع ذلك من بإمكانه أن ينكر وجودها في الواقع؟»

Personne n'a jamais vu l'Etat. Qui pourrait nier cependant qu'il soit une réalité?(1)

كان جورج بوردو أحد أشهر أساتذة القانون العام في فرنسا القرن العشرين، وقد عبر عن إيمان الأوربي بالدولة بالغيب مثلما يؤمن المسلم بالله غيبًا، غير أن المسلم يخرج من الإسلام إذا سار وراء الأوربي وهو مغمض العينين، وعند هذه النقطة سننتقل من عالم النظر إلى عالم التطبيق.

(1) George Burdeau, L›Etat, Seuil, 1970, p 13.

ثانيًا. انتصاب أصنام الحداثة في بلاد المسلمين.

1. ادموند دوتى (1867-1926).

وهو من علماء الإنسان الذين درسوا الشمال الأفريقي، وعنده كتاب بعنوان السحر والدين في الشمال الأفريقي، وفيه تحدث عن الزعيم باعتباره «تشخص الرغبة الجمعية»، أي تحول رغبات الشعب إلى شخص يسير على قدمين بعبارة أخرى. وهو غير بعيد من سيكولوجية الجماهير لغوستاف لوبون.

2. لورنس العرب (1888-1935).

استخدم لورنس تقسيمات بيكون للأصنام في وصف واقع العرب في بداية القرن العشرين، وقال عن العرب: إنهم يشقون طريقهم بين أصنام القبيلة وأصنام الكهف؛ أما أصنام المسرح وأصنام السوق فهي ليست في مدى نظرهم.»

They steered their course between the idols of the tribe and cave: those of the theater and market-place were not within their sight.

ذكر لورنس أن العرب يجهلون أصنام السوق (=سلاح الشائعات) وأصنام المسرح (الدمى السياسية والأصنام المتحركة). كان ملوك العراق والعرب عمومًا دمى تحركها بريطانيا ومن بعدها الولايات المتحدة. والوحيد الذي اعترف بذلك -فيما أعلم- هو فيصل الأول، ملك العراق الذي قال أنا موظف لدى الانجليز بدرجة ملك. ومن بعده جاء عبد الناصر الذي لم يكن دمية، بل صنم متحرك، وقد شرحت فيما سبق كيف بنى الامريكان على خبرة الانجليز وشهادة مايلز كوبلاند بالخصوص. أما ذبح عبد الناصر للإخوان فقد أصبح

معلومات عامة، وهو ما أعطى دولة بني إسرائيل فسحة ثلاثين سنة تحولت فيها إلى قوة إقليمية.

3. الشيخ البشير الإبراهيمي (1889 - 1965).

ذكرت فيما سبق حديث الشيخ عن نصب الغربيين أصنامًا للشعوب التي مازالت على بقية من وثنية، وأن هذه الاصنام البشرية المتحركة تقود الشعوب إلى الضياع والشر. وهذا لا يحتاج إلى دليل فالمصريون يسكنون في المقابر ويأكلون من الزبالة ويهتفون: «عبد الناصر قلها زمان... الاخوان مالهمش أمان». هذا هي وظيفة الصنم: يقلب الباطل حقًا، ويسحق المسلمين باعتبارهم مجرمين. وهذا يوصلنا لسحق المسلمين باعتباره من «المكتسبات»!

4. عياض بن عاشور (1945 -)

أستاذ القانون الدستوري شاهدٌ على: «... تحول التركيب الدستوري من منوال دولة الإسلام إلى منوال إسلام الدولة، وشتان ما بينهما. وهذا المنوال يعني في حقيقته: لا دين فوق الدولة، بينما يعني الأول: لا دولة فوق الدين»[1]. في تونس ما قبل الحداثة كان الدين فوق الدولة، ومع الاستعمار انقلب الوضع (في تونس وفي غيرها من بلاد المسلمين) لتصبح الدولة فوق الدين، ولتصبح الدعارة مهنة والربا تجارة، والقمار نوادي، وليصبح الإسلام تطرفًا تجب محاربته، وجريمة ينبغي القضاء عليها! وكل هذا يسمى «مكتسبات» يرعاها صنم اسمه «الدولة»!

آخر مكتسبات تونس، من نوع مكتسبات مصر قبل سبعين سنة، صنم متحرك يقود تونس إلى الضياع والشر، أسمه قيس سعيد. 90% من الذين

(1)

انتخبوا قيس سعيد من الفئة العمرية 18-25، وهي الفئة الحالمة التي قد يضللها أي صنم. قيس سعيد صنم متحرك آخر، ينصب للجماهير وسط صمت نخبة من نوع عبد الله العروي الذي قال «كل منا ينحت صنمًا يعبده..»! نخبة من نوع نوال السعداوي التي ما أن قتل محمد مرسي حتى استلمت الميكرفون لتطالب الدولة بفتح بيوت الدعارة والاشراف عليها.

وهناك نكبة تعتقد أنها نخبة، وهي الفئة المشتغلة بتفاهات من نوع «الجندرة»، و«تمكين المرأة» دون أن تسأل نفسها هل تم تمكين الرجل حتى يصبح تمكين المرأة مسألة ملحة! هذا النوع من العمى الفكري والفقر المعرفي هو ما يجعل نصب الأصنام أمرًا هينًا في أمة لم تكتشف ما يمكن تسميته نظريًا «أصنام الحداثة» بالرغم من ظهورها قبل أربعمائة سنة.

الإسلام الأعرج

يصف الشيخ محمد عبده علم التوحيد بأنه «ركن العلم الشديد». ولما كان هذا الركن قد انهدم بفعل تتابع عصور الانحطاط على المسلمين فقد كان عدم وجود مؤلف يفي بالغرض مما اصطدم به الشيخ عندما دُعيَ لتدريس هذا العلم. وفي هذا السياق كتب الشيخ: «لما كنت في بيروت ودعيت في سنة 1303 لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية، ومنها علم التوحيد، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من افادة التلاميذ، والمطولات تعلوا عن أفهامهم، والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم.»

وما اكتشفته أنا، بعد قرن من وفاة الشيخ محمد عبده رحمه الله، هو أن علم التوحيد سيظل علمًا أعرجًا إذا لم يتضمن نظرية في الشرك وآلهة المشركين. وضع الشرك في صورة نظرية إذن هو ما سيجعل ركن العلم الشديد يتوازن من جديد على شهادة أن لا إله إلا الله. هذا التوازن القائم على الجمع بين الكفر بالطاغوت من جهة والإيمان بالله من جهة أخرى، هو العروة الوثقى التي يستمسك بها كل من يمشي سويًا على صراط مستقيم.

وحيث لم استبعد وجود كتاب جامع قد يغني عن الحاجة للتأليف من جديد في موضوع الشرك والمشركين، بدأت البحث عن مثل ذاك الكتاب فلم أجد سوى كتاب الشيخ مبارك الميلي «الشرك ومظاهره». ومظاهر الشرك في

كتاب الشيخ مبارك الميلي مما يمكن معالجته بعلم التوحيد في المصنفات التي لم تفي بالغرض عند الشيخ محمد عبده، أما الشرك وآلهة المشركين التي دفعتني أنا للخوض في هذا الموضوع فلم أرى لها مصنفًا بعد.

بعبارة أخرى؛ لو كان الشرك على ما كان عليه أيام الجاهلية الأولى أو متفرع عن مظاهرها القديمة لكفاه ما وضع السلف، ومنهم عبده والميلي، ولكن الشرك أخذ أشكالًا غير مسبوقة، مع ظهور آلهة جديدة في أوربا-الحداثة. ومن خصائص هذه الآلهة أنها نظرية؛ بمعنى أنها لا تنكشف إلا لمن غاص في أصول وفروع الضلال المبين: (الضلال الذي يتحول مع الزمن إلى مناهج ومدارس)!

ومع تحول الحضارة الأوربية/الغربية إلى حضارة عالمية تحولت أصنام أوربا النظرية وأوثانها إلى قيم عالمية هي الأخرى. وبذا تلوثت عقيدة المسلمين وعالمهم، وتحولت حياة الموحدين الصادقين منهم (الذين يكفرون بالطاغوت) إلى جحيم، لأن حفظ أصنام الحداثة والنظام القائم عليها (النظام العالمي) أصبح ظاهرة عالمية وممارسة يومية!

وآلهة الحداثة (أصنامها النظرية) تدّرس لأبناء المسلمين وفي جامعاتهم على أنها نظريات سياسية، وهي كذلك، غير أن طابعها النظري يخفي جوهرها الصنمي، وهو ما يستدعي هتك استارها وكشف أسرارها.

وسيُذهل المسلم عندما يكتشف أن مفكري أوربا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، أكثر وعيًا بأصنام أوربا من بعض أهل التوحيد الذين يعيشون على التقليد ويكتفون به. وهذا هو ما يجعل «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده وكتاب «الشرك ومظاهره» للشيخ مبارك الميلي، على أهميتهما، من الكتب القديمة التي لا تفي بالغرض ولا تحقق القصد.

لكل ما سبق استأنفت البحث في الموضوع لتبيان أن الأصنام النظرية في الزمن الحاضر لها ذات مفاعيل أصنام الجاهلية الأولى. وهذا العمل لازم لتجديد الإيمان بأن الله لا إله غيره، وأن محمد رسوله، والقرآن كتابه. وبدون هذا التجديد النظري سيبقى علم التوحيد يعرج على الإيمان بالله دون معرفة بالطاغوت أو عزم على الكفر به، لأن أصنام الحداثة من المجهولات (نظرية).

ولما كان الشرك من فروع الكفر وناقضًا للتوحيد، وجب التعريف به على أنه إما 1. اتخاذ آلهة مع الله، أو 2. التوجه بالعبادة إلى غير الله. والآلهة قد تكون أشخاص مثل فرعون، أو أشياء مثل هبل، أو أفكار مثل الدولة. والتوجه إلى غير الله بالعبادة يمكن أن يكون بالركوع والسجود، كالركوع للصليب أو لجمهور المشجعين. وقد يكون بتقديم قرابين حيوانية أو بشرية للآلهة، أو الطواف بغير الكعبة، أو الحج لغير بيت الله، أو الاحتكام لغير شرعه.

وإذا أدرك المسلم جميع وجوه الشرك، يمكنه عندها الانتقال إلى ما يتناوله علم التوحيد مما يجب الإيمان به: الله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر. ولذا لا بد أن يكون التركيز على تفاصيل الشرك وأعمال المشركين، وهي ليست قليلة وتستحق الرصد بدايةً. بعد ذلك، وبعد ذلك فقط، يكون الانتقال إلى الحديث عن العقيدة والشريعة ذي جدوى. وبدون هذا التقابل بين مكونات الشرك ومفردات التوحيد سيظل المسلم كمن ينظر بعين واحدة.

دين بدون دولة!

حال المسلمين اليوم شبيهة بحالهم قبل الهجرة، وفيما عرف تاريخيًا بالمرحلة المكية. في تلك المرحلة كان المسلمون تحت رحمة الكفار ومحلاً لاضطهاد المشركين، لأنهم في مرحلة «ما قبل الدولة»، أو في «الجاهلية» بعبارة أخرى. كانت الهجرة هي الحدث الذي حوّل الواحة المسماة يثرب إلى «مدينة الرسول»، لتولد المدينة-الدولة لأول مرة في تاريخ المسلمين. كان النبي ﷺ أول من بنى دولة على أساس تعاقدي: «البيعة» مع الأنصار و«الصحيفة» مع اليهود.

كانت البيعة عقدًا مبرمًا بين الله ورسوله والانصار؛ وبموجبها كان على الأنصار حماية النبي حتى يبلغ الدعوة، ولهم في المقابل الجنة. وللتأكيد على أهمية هذا الجانب التعاقدي، فيما يخص المسلمين، قال ﷺ «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، فالبيعة من أهم الفروق بين الجاهلية والإسلام.

أما على مستوى العلاقة بين المسلمين واليهود، فقد نصت الصحيفة على أن للمسلمين دينهم ولليهود دينهم. وبذا كان الإسلام أول نظام عالمي يسمح لأهل الكتاب بأن يكونوا «دولة داخل الدولة»، بحيث يستقلوا بمؤسساتهم التعليمية والقضائية تحت اشراف أحبارهم ورهبانهم.

ولم يتدخل الرسول ﷺ في شئون أهل الكتاب، ولم يصطدم بهم إلا بعد أن خرجت الأمور عندهم على السيطرة وفي خرق واضح لبنود الصحيفة المنظمة للعيش المشترك في المدينة. وعندما فتح المسلمون العالم سمحوا لأهل الذمة بأن يحتفظوا بحرياتهم الدينية وبأماكن عبادتهم في مقابل التزام واحد هو الجزية، وهي ضريبة تؤدى في مقابل الحماية.

في المدينة-الدولة كان ﷺ النبي المرسل، والقاضي بين المسلمين، وبينهم وبين غيرهم من ساكنة المدينة. وكان ﷺ الحاكم السياسي الذي بيده قرار الحرب والسلم، ومن سلطاته المشروعة جمع الأموال وتوزيعها. وبعد تنظيم المدينة على هذا النحو أصبح المسلمون قادرين على الدفاع عن أنفسهم في جميع الحالات، بما في ذلك الحالة التي يكون فيها الهجوم هو أفضل وسيلة للدفاع.

ومع ذلك لم تكن البيعة الركن الوحيد في البناء السياسي للدولة الإسلامية، إذ كانت الشورى، وهي نقيض الاستبداد، الركن الثاني في هذا البناء. كانت المدينة قائمة على نظام ليس فيه من إله إلا الله، والعلاقة بين مكونات سكانها وحاكمها علاقة تعاقدية.

ولم يمت النبي حتى قال «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي». وأول سنة سنها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، عند تمام بيعته، هي قوله «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم». وبذا تكون طاعة المحكوم للحاكم بقدر طاعة الحاكم لله. وقد سار الخلفاء الراشدون على البيعة والشورى حتى انقلبت الخلافة إلى ملك فقال معاوية: «ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصُومُوا ولا لتحُجُّوا ولا لتُزَكُّوا ... إنما قاتلتُكُم لأتأمَّر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كَارِهُون»!

الكثير من الناس يعتقدون أن مصطفى كمال قد ألغى الخلافة سنة 1924، والذي ألغاها على الحقيقة هو معاوية بن أبي سفيان في القرن الهجري الأول. وقد أكد ذلك بشكل قاطع عندما نصب ابنه يزيد ملكًا بعده، وفي الأمة بقية من الصحابة والصالحين، ويزيد لم يكن من الصحابة ولا من الصالحين.

لقد دق معاوية أول مسمار في نعش الدولة الإسلامية مصداقًا لقول النبي ﷺ «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ... أولها الحكم وآخرها الصلاة». وكان الإمام مالك من ضحايا التعذيب الذي جعل الخلافة ملكًا يضطهد علماء من نوع إمام دار الهجرة. وفي هذا يقول ابن خلدون: «لما أفتى مالك رضي الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه ورأوها قادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة للإمام». كان الإكراه على البيعة في القرن الأول للهجرة التمهيد التاريخي لإلغائها رسميًا في القرن الرابع عشر من ذات التاريخ.

في القرن الرابع عشر للهجرة جاء مصطفى كمال ليدق آخر مسمار في نعش السلطنة العثمانية، وهي آخر دولة إسلامية قبل المرحلة الاستعمارية. وبزوال السلطنة العثمانية دخل المسلمون مرحلة «دين بدون دولة». وفي هذه المرحلة تطلع كل من الشريف حسين والملك فاروق وموسوليني إلى أن يكون خليفة المسلمين أو حامي الإسلام. وقد بلغت المهازل القمة بإعلان موسوليني حاميًا للإسلام والمسلمين في طرابلس الغرب سنة 1936. وكان ذلك مؤذنًا بعودة الجاهلية ومظهر من مظاهرها: (لا بيعة ولا شورى؛ والأمر في بلاد المسلمين للصهاينة والفاتيكان والأمريكان).

وفي غياب دولة الإسلام أصبحت القرارات التي تهم المسلمين تتقرر لدى الجدد من ملوك الطوائف، وفي كل إقليم بشكل منفصل. وتطور الأمر حتى

أصبح الصوم والإفطار يتقرر بشكل فردي، لأن رؤية الهلال قرار سياسي والمسلمون لا دولة لهم، لأنهم عادوا إلى المرحلة المكية حيث الإسلام بدون دولة. وأصبح أبناء الليبيين/المسلمين يتنصرون سيرًا على سنة عرب الجاهلية الذين كانوا يتهودون ويتنصرون. فلا تستغربوا أن يتنصر ويتهود أبنائكم طالما رضيتم بالإسلام دين بدون دولة، لأن من مهام الدولة الإسلامية «حراسة الدين وسياسة الدنيا به». وعند غياب الحارس يضيع المحروس فتستباح الحرمات وتنهار الحدود، ويصبح الزنا حرية والربا تجارة والدعوة إلى الله جريمة.

الفهرس

مقدمة..... 5
الفناء في مدرسة المركزية الغربية..... 13
الفرضية الفرنسية..... 18
أخلاق الضغينة!..... 28
نقد المقاربة الماركسية..... 30
2011-1911..... 35
ضحايا الحرب النفسية!..... 38
الخطة فشلت!..... 43
خصائص الظاهرة التركية..... 46
الفصل بين الدين والدنيا..... 53
عجلة تاريخنا تدور في الفراغ!..... 63
صوت الفراغ..... 67
مدينة الملاهي..... 71
حكاية مدرستين..... 75
تلبيس إبليس!..... 80
مدارس الأخلاق الليبية..... 86

الغنوشي..... 91
حثالة الصحافة..... 95
أزمة الهوية والهوية المضادة..... 97
التشكل الكاذب..... 101
الدولة المفتعلة!..... 110
سفسطة النهوم..... 113
حرب المصطلحات..... 122
اقرأوا نيتشه بشرط بن خلدون!..... 127
نيتشه وصفة علاجية!..... 135
قراءة قرآنية في عدمية نيتشه..... 141
وحدة الوجود عند هيجل..... 148
أصول وفروع..... 153
قضية الألوهية عند ميشيل فوكو..... 158
أسرار كشفتها المحاولة الانقلابية في تركيا..... 163
أسرار كشفتها المحاولة الانقلابية في تركيا..... 169
التمسك بالتخلف!..... 175
الكلمة-المشروع..... 180
الكلمة-الجريمة..... 185
مستقر العادة في انتخابات التخلف..... 194
مشروع الإسلام المسيحي..... 201
جدل العقل بين الجابري وطرابيشي..... 203
التخرج في المقبرة والخروج منها..... 211
خيانة المثقف!..... 215

وظيفة الأصنام 220
خيانة المترجم 225
الأصنام المتحركة! 230
الأصنام تأتي دائمًا من الشمال 235
مراجع لدراسة أصنام الحداثة 241
الإسلام الأعرج 247
دين بدون دولة! 250
الفهرس 254